نهاد شريف

رواية

قاهر الزمن

مختارات الكرمة

t.me/qurssan

لمزيـــــد مـــن المعلومـــات عـــن الكرمـــة : /facebook.com
alkarmabooks

حقوق النشر © نهاد شريف 1972

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر .

شريف، نهاد .

قاهر الزمن: رواية / نهاد شريف - القاهرة: الكرمة للنشر، 2019 .

تدمك : 9789776743076

1- القصص العربية .

أ-العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 16557 / 2019

t.me/qurssan

صورة الغلاف: أفيش فيلم قاهر الزمن (1987) بريشة الفنان جسور

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

t.me/qurssan

إهداء

إلى غدٍ مرتقب ...

تستعيد فيه مصر مجدًا علميًا كان وقفًا عليها وحدها، بينما ظلام الفكر يخيم على أرجاء الدنيا وشعوبها .

وحين تتحقق أمنيتي ...

ويتبوأ المصري مكانه الخليق بتراثه، كأول بانٍ لأعرق حضارة عرفها التاريخ، حينئذ تكون سطوري هذه قد أسهمت في تأكيد أمل صادق وغالٍ عبر ذلك التاريخ الطويل، متألق الضياء .

t.me/qurssan

تقديم

القاهرة في أول يناير 2301

هذه السطور هي خلاصة أمينة لكلمات قمت بتصحيحها وضبطها واختصار المكرر فيها، وذلك عن مجموعة من الأوراق القديمة البالية ـ وكان بعضها على هيئة مذكرات أو يوميات شخصية، والباقي عبارة عن قصاصات متناثرة ـ وقد وجدت المجموعة كلها في حالة يرثى لها، وقد التهمت النيران أجزاء كبيرة من أولها ومن آخرها .

ولكنْ... وبعد جهد مضنٍ استغرق مني، ومن نخبة الخبراء الذين يعاونونني قرابة العام، أمكنني أن أستخلص منها أحداث هذه القصة التي تطالعونها فيما يلي، والتي عثرت على أصولها بنفسي، خلال قيامي بالتنقيب في منطقة حفائر «المرصد المصري»، الذي يرجع تاريخ إنشائه على تل المقطم، شرقيَ مدينة حلوان القديمة، إلى عام 1903. وكانت الأصول موضوعة بداخل علبة حديدية بالغة الثقل، ولم تكن مغلقة بأي أقفال، وقد اتضح من طريقة وضعها في مكان العثور عليها، بين ثنايا الصخر، أن صاحبها قد عُني عناية فائقة بإخفائها عن الأعين المتطفلة، بغرض الحفاظ على محتوياتها التي ولا بد تعني كل شيء لديه .

حاتم بن منصور

باحث تاريخي

يرجع نسبنا إلى مُنشئ الأسرة حاتم بن نهاد شريف،

المولود بمدينة حلوان الحمامات عام 1960 ميلادية

t.me/qurssan

القسم الأول

على الطريق

1

كان القمر ناقص النمو، يحتضر وهو ينحدر ببطء ليتوارى خلف الأفق، وبالرغم من شحوب ضوئه، لم يكن هناك ما ينير التلال المترامية على مدى أميال سواه. وفيما عدا طريقًا أسفلتيًّا شديد الانحدار راح يتلوى كثعبان أسود لامع، يختفي طرفه البعيد في الضباب، فإنه لم يكن يرى سوى فضاء.. واسع.. كئيب.. تبرز من ثناياه قمم حادة تقبع منذ أزمنة سحيقة في القِدم .

ولم يكن هناك من صوتٍ غير وقع أقدام الرجل الرتيبة العَجْلى برغمه بسبب انحدار الطريق مع سفح الجبل، تدق الأرض في إيقاع مكتوم يعوي صداه عن بُعد، أما المدينة الصغيرة الدانية فكانت ترقد نحو الجنوب الغربي مطفأة الأنوار.. نائمة.. بالرغم من أن الساعة لم تكن قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل.. وهبَّت نسمة باردة جعلت الرجل يرفع ياقة معطفه ليحكمها حول عنقه، فإن حنجرته الضعيفة لا قِبل لها بتحمل لسعات برد ديسمبر، بينما استمر جسده النحيل يتقدم في خفة إلى الأمام، وقد تحفزت كل عضلة فيه للسيطرة على قدميه، خشية أن تهرولا برغمه مع الانحدار المنطلق دونما عقبات. وكان الطريق الجبلي الممتد لمسافة أربعة كيلومترات يربط المدينة النائمة في أسفل بأعلى أبنيتها وهو المرصد، الذي شُيد عام 1903 على واحد من التلال الكثيرة المحيطة بالمدينة من جهاتها الشرقية .

وسعل الرجل ثم بصق جانبًا وهو يتوقف برهة عبر طريق المرصد، ومع استدارة رأسه لمحت عيناه الهوة العميقة على يمينه حيث تستقر في أغوارها مقاطع الحجارة، وكانت الهوة على اتساعها ترقد على بُعد قدمين منه دون أي جدار يفصلها عنه، وقد اختلطت معالمها بظلمة الليل الحالكة، وارتعد الرجل

t.me/qurssan

لفكرة السقوط من حالق والارتطام بالقاع، فأشاح بوجهه وعاود المسير. ومع انحناء الطريق يسارًا طالعه واحد من عشرات الأعمدة الخشبية القاتمة، يتدلى منه فانوس كهربائي مضاء، وبدا له ضوء الفانوس المصفر وسط هالة حمراء منطبعة على ذرات الضباب، كواحة من النور غير مألوفة، تحيطها مساحات لانهائية من الظلام المختلط بلمسات أخيرة من أشعة القمر، وامتدت أصابع الرجل المثلجة تزيد من إحكام ياقة المعطف وهو يدور مع المنحنى الهابط، وقد تقلصت يده اليسرى على العصا القصيرة التي يحملها، حين ترامى إلى سمعه عواء ذئب بعيد تردد صداه جنبات التلال حوله .

لقد أهابوا به مرارًا ألَّا يطرق هذه الأماكن المتطرفة من حافة المدينة في ساعات الليل المتأخرة وحده، فذئاب الجبل الرمادية الداكنة تتسلل مع حلول الظلام إلى البيوت المتلاصقة بطول المشارف الشرقية، بل إن بعضها، وهي ذئاب جائعة شرسة، تجوس خلال الشوارع المقفرة باحثة دومًا عما تفترسه، دون أن تميز بين حيوان وإنسان .

غير أن عمله الجديد الذي كان يستغرق منه كل وقته، وكل تفكيره وتركيز عقله، لم يكن يترك له الخيار، فهو غالبًا لا يغادر المرصد قبل منتصف الليل، وفي كل مرة يسلك بمفرده نفس الطريق فلا يوجد سواه .

حتى الحارس النوبي العجوز مضيء القسمات والمسلح بالبندقية العتيقة، كان يرفض مصاحبته له ولو لأمتار قليلة تبعده عن مجال حراسته حول مبنى المرصد والمباني الأخرى الملحقة به، فقد كان بالرغم من طيبته ومن مشاعره الساذجة الفياضة رجلًا ثرثارًا، وهو لا يرحب بسماع الكلمات التي تذهب هباء دون أن يحصل من ورائها على ما يفيده، كما أنه بطبعه كان عزوفًا عن مخالطة الناس بفضل الانطواء والوحدة، والوحدة لديه تعني الهدوء.. والسكينة وصفاء الذهن.. الأمر الذي يتيح له انطلاقًا متجردًا حرًّا مع أفكاره الغزيرة، وهذه هي عادته كلما انغمس في تأليف مادة يضمها كتاب. صحيح أن مؤلَّفه . هذه المرة . ليس

t.me/qurssan

قصة طويلة كسابق كتبه، فهو بحث تاريخي أكثر منه عمل أدبي، إلا إنه كان يستهدف الانتهاء منه بأسرع ما يستطيع .

وزاد صرير الريح، وظهرت عند الأفق عتمة سوداء تتجمع في تثاقل، محاوِلة اللحاق بالقمر المختنق في لونه الأرجواني المزرق، وراحت قدما الرجل تقتربان به من ضوء الفانوس الوحيد، وهو يحس ألفة تتزايد مع كل خطوة تدنيه منه .

ولكنْ فجأة، قطع سيلَ تأملاته شيء شاذ، بدا له يتحرك فيما وراء الخزان العالي الذي يمد المدينة بمياه الشرب، كرة من الغبار العاصف اندفعت تشق الضباب أمام الخزان، صاعدة إلى أعلى في إصرار غريب وهي تنطلق رأسًا نحوه .

وتسمر برغمه يعاود التحديق في بلادة غير مصدق عينيه، ولم يمهله تلاحق الأحداث، فسرعان ما أقبلت العربة الضخمة، يجرها جوادان داكنا اللون، لتلقي بثقلها في زمجرة إلى صدره، وكمحاولة أخيرة شد الرجل قامته وقفز دون وعي إلى حافة الهاوية، بعيدًا عن مسار الخيل المسعورة، وقد طار طربوشه، ومرقت عصاه من يده وراء الطربوش ليستقرا في قاعها، وخُيل إليه، وهو يفترش الصخور المدببة، أن أنفاس أقرب الجوادين قد لفحت وجهه بجمرات من نار. أما السائق الوحيد الجالس في مقدمة العربة فلدهشته بدا له وكأنه نائم، فقد رأى ذراعيه متراخيتين بجواره، بينما يطوح رأسه خلفًا ليستند على جسم العربة، وفاهُ مفغورًا على اتساعه .

فهل كان نائمًا حقًّا وهو يقود عربته؟ أو كان واقعًا تحت تأثير مخدر قوي؟

وظل الرجل ملقى على الأرض، وقد شل تفكيره لثوانٍ، فقط حرك رأسه ببطء في نصف استدارة يلاحق العربة بنظراته الساخطة الحيرى، ولمحها تشبه صندوقًا مستطيلًا، لا نوافذ له فيما عدا بابًا واحدًا اتضح في مؤخرتها، يحكمه قفل كبير، ورأى القفل يتراقص يمنة ويسرة بعنف، والعربة تبتعد صاعدة الجبل في سرعة وجلبة حتى اختفت نهائيًا بين طيات الضباب .

t.me/qurssan

ويبدو أن شيئًا مبهمًا قد أغضب السماء في هذه اللحظة، فقد لمع برق خاطف تجاه الشمال، تبعته قرقعة الرعد تهز الجبال، وتشبث الرجل بكل قواه في صخرة بارزة ليرفع جسده بحذر إلى الطريق الأسفلتي، قبل أن تطيح به الرياح التي بدأت تعصف بملابسه في قوة. وعقب محاولة ناجحة، انتصب على قدميه ثانية وهو يتحسس أجزاء جسده في اضطراب وبطريقة آلية، ويبدو أنه اطمأن قليلًا، فقد اعتدل مع اتجاه الطريق المنحدر وأسرع يهبط بقيته في خطوات عجلى محمومة، ما كان يظن أنه بفاعلها في يوم من الأيام .

وبلغ نهاية الطريق، واستدار مع بناء القصر المهجور في اتجاه الجنوب وهو يلهث، ومر بسور حديقة المدرسة الابتدائية الحديدي المنخفض، ثم تذكر وهو يتعثر في حجر ملقى لم يره، أنه يسير على الإفريز الخطأ، فتوقف وعبر الشارع المعتم بعرضه إلى حيث يوجد البيت العتيق ذو الطابقين، والذي يستأجر فيه إحدى حجرات طابقه الأرضي بصفة مؤقتة حتى ينتهي من إعداد مؤلَّفه التاريخي .

وفي توتر، دفع الرجل بالمفتاح في الثقب الضيق الذي قابله، وأدار المفتاح، وتسلل إلى داخل الردهة على أطراف أصابعه حيث الجميع يَغطون في النوم .

وحين فتح باب حجرته أخيرًا، دلف منه وصفقه خلفه متعجلًا، وهو يقذف بذراعه إلى زر الكهرباء المجاور، في حين اتكأ بثقل كتفه على خشب الباب الرطب، المتجرد من الطلاء، وأنفاسه تتلاحق بعصبية في صوت عالٍ .

ومع سطوع الضوء في الحجرة غزت الراحة قلبه، وفي سكينة راحت عيناه تجوسان خلال أدواته البسيطة: الفراش الخشبي، والدولاب ذي المرآة البيضاوية، والمنضدة وحولها الكراسي الخيزران وعليها القلة المغطاة بكوب مقلوب، والمشجب وقد عُلقت عليه منامته وبعض ملابسه. كل محتويات المكان كانت توحي بالألفة والهدوء .

t.me/qurssan

وعاد يُرهف السمع، ولكنْ لا صوت بالخارج. تُرى هل كان ما حدث له بطريق المرصد منذ برهة مجرد وَهْم كبير، كابوس سيطر عليه نتيجة لكثرة ما بذل من جهد؟ هل لم يكن هناك أثر للعربة المستطيلة.. ولا للخيل.. ولا للسائق النائم؟

ولمح نفسه في مرآة الدولاب لأول مرة منذ ولج المكان، وصدمته الرؤية التي طالعته، فقد كانت الأوساخ والأتربة تلطخ معطفه، وكان هناك تمزُّق متسع يمتد من أعلى كتفه إلى ما وراء كُم المعطف الأيسر، وتنبه كذلك لفقده الطربوش والعصا القصيرة، وهز رأسه آسفًا .. لا بد أنه كان بالفعل ضحية لسائق مهمل أثقله النعاس، فأرخى لخيله العنان تسير على هواها، وهي دون شك تعرف الطريق ومعتادة عليه .

وخلع الرجل معطفه وعلقه على المشجب، ثم تناول من القلة جرعة كبيرة رطب بها شفتيه المتيبستين، وعاد يراقب مظهره في المرآة متفحصًا، فطالعه قوامه الفارع النحيف المنتهي بساقيه القويتين، فقد كان في حداثته لاعبًا مخلصًا لكرة القدم، ثم رفع بصره إلى أعلى ليستقر على وجهه المستطيل كثيف الحاجبين والشارب، وإلى عينيه العسليتين، وأنفه الحاد، ولكن شيئًا لمحه جعل عينيه تكفان عن الحركة، فقد ضايقه مظهر شعره المتهدل على أذنيه في غير انتظام، بينما لفت انتباهه وجود جرح ظاهر أسفل ذقنه، أما عيناه فقد شاهد التعب ينضح منهما بصورة أزعجته .

على أن الرجل أحس في النهاية بالبرد يتسلل إلى عظامه، فاعتدل ينزع عنه بقية ملابسه، ويرتدي منامته الكستور خضراء الخطوط، ودلف إلى فراشه يسحب عليه غطاءه الثقيل، وبعد لحظة، امتدت أصابعه تضغط الكمثراية الصغيرة تحت وسادته .

وساد الظلام .

ولم يعد يرى غير بصيص ضعيف لنور الشارع الخلفي، كان يتطفل من فرجات درفة النافذة الخشبية لينطبع على جدار

t.me/qurssan

الحجرة المقابل في خطوط متوازية باهتة الضياء .

وأخذت عيناه تحدقان في الخطوط المتوازية، فإذا بها وكأنها سطور لوح كبير تناديه أن يتفحصها ويقرأ معانيها. وانساب مع ذكرياته.. يحلق معها في ثنايا ماضيه البعيد .

كيف قادته قدماه من بلدته محلة روح إلى حيث استقر مع أبيه، المدرس بالثانوي، وأمه الحنون كريمة المحتد، في القاهرة، لقد حدث هذا منذ عشرين عامًا على ما يذكر، حينما كانت سنه سبع سنوات على وجه التقريب . وفي القاهرة نشأ في حي الحلمية، حيث سكن والداه في مسكن متواضع، في شبه عزلة عن الناس، وتعلم في مدرسة الحي الابتدائية، ثم في مدرسته الثانوية، ثم التحق بالجامعة. ولكن أمه توفيت بعد مرض طال بها، وهي لا تزال شابة يانعة، ولم تمر أعوام أربعة أخرى حتى لحقها أبوه محزونًا على فراقها .

ووجد نفسه وحيدًا في بلد متسع غريب عنه، وخنقته في المبدأ حجرات المسكن الثلاث الخاوية، إلا إن جارهم عاصم أفندي البحيري، وكان يمتُّ بصلة قرابة بعيدة لأبيه، ضمه إلى أسرته المكونة منه ومن زوجته المتصابية دلال هانم، وابنهما رؤوف، وابنتهما الطفلة نعمات، وقد وجد بين أفراد هذه الأسرة الصغيرة تعويضًا ليس بالقليل عن فقده لوالديه .

وبصفة خاصة، فقد كان رؤوف البحيري له نعم الأخ ونعم الرفيق المخلص في صداقته .

وهكذا تولى عاصم أفندي رعايته طيلة العامين المتبقيين على تخرجه في الجامعة، حتى حصل في نهايتهما على ليسانس الحقوق، والتحق بعمل صحفي في مجلة «فصول» المصرية .

وأطلق الرجل آهة عميقة وهو يحرك جسده قليلًا في فراشه، مريحًا عنقه على الوسادة اللينة، فقد تذكر كيف بدأ يرى الدنيا تتفتح له وهو يزاول، إلى جانب عمله في المجلة، القيام بتأليف بعض القصص القصيرة، حيث لاقت قصة أو قصتان من قصصه

t.me/qurssan

ذيوعًا لدى نشرها، كما أدى نشر أول مجموعة قصصية كاملة له إلى أن أصبح اسم «كامل أحمد بهنسي» . وهذا هو اسمه . معروفًا بعض الشيء في الأوساط الأدبية والصحفية .

وبدأ يكوِّن له جمهورًا من القراء غالبيتهم من النشء الحديث، جيل الثورة على الأوضاع القديمة البالية التي كان يدأب على السخرية منها كلما سنحت له الفرصة، وجيل الثورة على النفوذ الأجنبي المستبد والذي كان يأبى الخضوع لسيطرته بأبسط تفكير لديه، فكان ينال منه ويكيل له التجريح بقلمه وبلسانه كلما تيسر له ذلك .

وافترَّ ثغره عن ابتسامة راضية، زاد انفراجها وهي تستتر بظلام الحجرة حين وصل بتفكيره إلى ظروف مجيئه لمدينة حلوان، ضاحية الأسر العريقة وأرباب المعاشات .

لقد ألح عليه رؤوف بن عاصم أفندي البحيري، والذي يعمل خبيرًا في المغناطيسية الأرضية بمرصد حلوان، أكثر من مرة في الحضور إلى المدينة الهادئة، ولو لبعض الوقت يكتب خلاله شيئًا .

ووافق على فكرة رؤوف، فقد كانت تراوده رغبة قديمة في أن يكتب بحثًا تاريخيًا عن «تاريخ الفلك في مصر»، على أنه فضل أن يستأجر حجرة في نفس المدينة لمدة شهر قابل للتجديد بدلًا من السفر يوميًا بين القاهرة وحلوان، حتى يتفرغ لعمله كُلِّيَّة، وحتى ينتهي منه بأسرع ما يستطيع .

وعلى حين غرة، غامت الابتسامة من وجهه وهو يراقب خطوط النور المتسللة من فرجات الدرفة الخشبية، وتصلب ظهره حتى عنقه، وأحس أنه موشك على الاختناق حينما وصل بمخيلته إلى أحداث نفس الليلة، فقد عاد وبرز أمام حدقتيه مرأى العربة والخيل المجنونة .

فدفن رأسه في الوسادة يبعد عنه شبحًا مبهمًا يغلفه مزيج من الحقيقة والغموض .

t.me/qurssan

وضغط على مشاعره يقودها قسرًا إلى نوم قلق معذب تملؤه خيالات متداخلة، بينها عجلات خشبية عملاقة ظلت تدور.. وتدور وهي تصارع أمواج البحر السوداء بالغة العلو، تحت ضربات العاصفة المنطلقة في ذروتها .

وتحت لسعات سوط سائق العربة وهي تفرقع في دوي الرعود .

t.me/qurssan

2

أخذت السيارة «اللوري» العتيقة تصعد الجبل وأجزاؤها الصدئة تئن من تحتها، بينما راح نصفها الخلفي، وقد كُسِيَ بالقماش الأخضر السميك وحُوِّل إلى ما يشبه الحافلة، يتمايل في رجرجة عنيفة .

وانطبعت أشعة الشمس القوية على وجهه وهو يطل من مؤخرة السيارة المكشوفة، كانت السيارة تجتاز في هذه اللحظة نفس البقعة التي وقعت فيها أحداث الأمس، وانطلقت عيناه تقيسان مدى انحدار الهوة، إنها أعمق مما كان يتصور، بل إنه لم يرها في مثل هذا العمق والاتساع من قبل، مع أنه كان يتطلع إليها كل يوم. وأفاق من تأملاته والسيارة تقف أمام مبنى المرصد، ويغادرها موظفوه ليبدأوا يومهم الطويل مع أجهزته الدقيقة بحثًا وراء أسرار الكون .

وتوجه بدوره يصعد السلم إلى حيث أوجدوا له مكتبًا مؤقتًا بالطابق الثاني، ولكنه توقف عن الصعود قبل أن يبلغ منتصفه ليعود فيهبط درجاته في عجلة إلى الخارج، وعبَر الحديقة المتسعة إلى حيث الكشك الحجري المنفرد، والذي يكون حجرة واحدة تلاصق أقصى سور المرصد غربًا .

وحين لمحه الحارس النوبي، هب يستقبله ببشاشة وترحاب فبادر يحييه :

. صباح الخير يا عم نور .

وأجاب الحارس أسمر القسمات وهو يجذبه إلى داخل الكوخ ويُجلسه على طرف دكة خشبية يتخذها فراشًا :

. صباح الخير يا أستاذ .

. قل لي يا عم نور .

. نعم يا أستاذ .

t.me/qurssan

. هل تذكر البارحة، حينما غادرتك ليلًا؟

وأومأ الحارس برأسه :

. بالطبع .

وسأله :

. أتذكر يا عم نور متى كان ذلك؟

وانفرجت أسارير الحارس :

. لقد ذهبت في ساعة متأخرة... بعد منتصف الليل .

سرته الإجابة ...

. حسن.. وأنت أردت مصاحبتي لبعض الطريق ولكني رفضت .

أجاب الحارس وهو يهز رأسه موافقًا :

. وقلت لي إنك... إنك تفضل الوحدة .

. هذا صحيح... ثم تركتك ومشيت في طريقي... أليس كذلك؟

واعتدل الحارس كمن فهم شيئًا كان غائبًا عنه، وهمس :

. قل لي يا أستاذ كامل... هل فُقد منك شيء بالأمس؟

أجابه شاردًا :

ـ لا.. أبدًا.. فقط أريد أن أسألك عن العربة التي صعدت إلى المرصد بعد مغادرتي له بفترة وجيزة .

وقطب الحارس جبينه :

. أي عربة؟

. العربة الضخمة التي كان يجرها زوج من الخيول القوية .

وقال الحارس وهو يشيح بوجهه :

t.me/qurssan

. أعوذ بالله... آسف... لم أرَ أي عربة ...

. ولكنها صعدت أمامي.. وحتى.. كادت تدهمني .

وتغيرت سحنة الحارس فأصبحت مخيفة :

. ربما خُيل إليك ذلك يا سيدي.. من كثرة الإرهاق في العمل أو اختلط عليك الأمر من حلكة الظلام.. ألم أحذرك ألا تسير وحدك في ساعات الليل المتأخرة؟

وأحس كامل أن الحارس النوبي العجوز يراوغه، فقال بحدة :

. بلى، لقد مرت بي العربة فعلًا .

وأصرَّ الحارس :

. قلت لك يا أستاذ إنني طوال خدمتي في هذا المكان لم أرَ ما يريب ...

ثم أضاف وهو يتثاءب في افتعال :

. وأرجو ألا تؤاخذني.. فإنني جد متعب في هذه الآونة.. بعد نوبة حراستي للمرصد خلال الليل بأكمله.. لقد حان موعد نومي .

واستلقى ببطء على دكته الخشبية وأدار له ظهره، وهو يستعيذ بالله ويتمتم ببعض الأدعية في كلمات غير واضحة، إلى أن تعالى غطيطه .

واضطر كامل في النهاية إلى ترك الكشك الحجري، وقد ازدادت علامات الاستفهام والتساؤل في أعماق رأسه حدة وإبهامًا .

*

أشارت ساعة معصمه، وهو يتطلع إليها بطريقة آلية، إلى الثانية عشرة والنصف ظهرًا، فتوقف عن الكتابة ورفع رأسه من بين أكوام المراجع العربية والإفرنجية المتراصة حوله، وراح يشد قامته ويمد في ذراعيه وساقيه بعد أن كادت تتيبس من طول جلوسه .

t.me/qurssan

لقد طواه الوقت سريعًا دون أن يلحظ مروره، فقد استغرقته زحمة البحث في الكتب والمؤلفات الفلكية ومراجعة خرائط الرصد وحركات النجوم، وخاصة تلك القوائم بالغة الدقة التي كان قدماء المصريين يرصدون بها مسار «الإلهة الشمس» في طيات السماء .

واستحوذت هذه القوائم القديمة على إعجابه حقًّا .

وحين عاد كامل ينظر في ساعته، وجدها قد بلغت الواحدة، إذن فقد حان موعد ذهاب صاحبه رؤوف إلى مبنى المرصد المغناطيسي، الذي يتطرف إلى الشمال من مبنى المرصد الرئيسي، للكشف على مؤشرات أجهزة الزلازل وتغيير لوحاتها، وهو عمل يكرره في مثل هذه الساعة كل يوم بصفة دورية .

ولما كان قد أحس برغبة ملحة في تحريك عضلاته وإراحتها برهة من جلسته المتواصلة المنحنية على مكتبه، فقد غادر حجرته واتجه إلى المرصد المغناطيسي، وهناك وجد رؤوف كما توقع، منكبًّا على قراءة إحدى لوحات أجهزة «السيزموجراف» لرصد الزلازل .

تطلع رؤوف إلى القادم، وقال في اهتمام يمتزج بالدهشة :

. تصور، لقد وقع بالأمس زلزال متوسط في منطقتنا هذه، دون أن نشعر بحدوثه .

وتساءل كامل :

. ولكن ألا تبتعد حلوان عن المناطق التقليدية المعروفة للزلازل؟

. إن أقرب حزام للزلازل هو الحزام الأفريقي-الآسيوي، الممتد من وسط أوروبا وشمال حوض البحر الأبيض المتوسط غربًا إلى قلب آسيا شرقًا، والبلاد المصرية ولله الحمد تخرج بأكملها عن نطاقه.. وهي سالمة من شرور أي زلزال مدمر .

. إذن ما أمر الزلزال الذي سجلته أجهزتك؟

t.me/qurssan

ضحك رؤوف وهو يضع لوحة جديدة على صفحة جهاز «السيزموجراف»، وقال وهو يومئ تجاه الشمال الغربي بيده :

ـ إن مصدره بعيد عنا، يبدو أنه وقع في دائرة مركزها شمال يوغوسلافيا .

. وهل تراه يُحدث خسائر؟

. لم نتأكد بعد، سوف نعرف على كل حال خلال ساعات حقيقة ما حدث بالضبط، وإن كنت أرجح أنه زلزال من النوع المتوسط كما ذكرت لك .

. آمل ألا تكون هناك خسائر .

واعتدل رؤوف ونظر إلى صديقه، وقال وهو يغمز له بعينه :

. المهم الآن، كيف حال الكتابة معك؟

. لا بأس .

. هل أنجزت شيئًا اليوم؟

. لقد انتهيت من الجزء الخاص بفلك قدماء المصريين، ووقفت عند «مدرسة الإسكندرية القديمة ».

تساءل رؤوف :

. والعلماء العرب؟

. لم أبدأ في دراستهم بعد .

. أرجو أن تُعنى بدورهم يا كامل في مؤلَّفك عن الفلك في مصر، لأنه دور حيوي .

وقال كامل وهو يغتصب ابتسامة :

. بالطبع سأهتم بالعلماء العرب الاهتمام اللائق بمكانتهم العظيمة .

وبينما أخرج رؤوف دفترًا كبيرًا أخذ يسجل عليه بعض الأرقام،

t.me/qurssan

تشاغل كامل بتفحص دولاب زجاجي رُصت على رفوفه نماذج مختلفة من الأحجار، وقد وُضعت أمام كل قطعة من الحجر بطاقة صغيرة تبين نوع الحجارة، واسمها اللاتيني، وتاريخ، ومكان العثور عليها، وقطع كامل فترة الصمت القصيرة، فهمس وهو مولٍّ ظهره لصاحبه يتطلع إلى الأحجار المتراصة من خلف زجاج الدولاب :

ـ قل لي يا رؤوف، ما شأن هذه العربة التي تصل إلى المرصد مساءً في بعض الأيام؟

وردد رؤوف وهو لا يزال يكتب :

. عربة تصل إلى المرصد.. مساءً؟ !

استدار كامل :

. أجل، عربة تشبه الصندوق المستطيل.. وهي بدون نوافذ عدا باب خلفي، ويجرها زوج من الخيول .

. ماذا تحمل العربة؟

. وكيف لي أن أعرف وأنا لم أشاهدها إلا للحظات وهي تندفع من طيات الضباب رأسًا إليَّ، وتوشك أن تدهمني ..

وتوقف رؤوف عن الكتابة ورفع حاجبيه مدهوشًا :

. ماذا تقول؟

كرر كامل في بساطة :

. كادت هذه العربة تقتلني .

. متى؟

. مساء الأمس .

. في أي ساعة؟

. لدى عودتي إلى مسكني، حوالي الواحدة بعد منتصف الليل .

t.me/qurssan

. أين حدث هذا بالضبط؟ وكيف؟

أجاب كامل وهو يشيح بوجهه إلى سقف الحجرة محاولًا تجميع ملامح الصورة البغيضة التي يود ألا يراها مرة ثانية :

. على وجه التقريب، كنت قد قطعت معظم طريق المرصد، وأصبحت على مقربة من خزان المياه الضخم، حينما انفرجت طيات الضباب عن هذه العربة ترتقي الطريق في اتجاهي .

وفي كلمات مقتضبة، راح لسان كامل يعيش مخاطرة الأمس وهو يرويها لصاحبه في صوت متهدج منفعل النبرات، وتساءل رؤوف في النهاية :

. ولماذا لم تخطرني بما حدث لك يا كامل بمجرد حضورنا؟

ـ أردت أن أتعرف أولًا على سائق العربة لألقي عليه درسًا في القيادة حتى لا يعاود النوم، ويترك لجياده العنان في فوضى وإهمال، ولكنْ لم أعثر للسائق ولا للعربة على أثر، وهأنت أيضًا تنفي علمك بوجودهما .

ـ ذلك لأن معلوماتي قد تكون قاصرة، فإنني كما تعرف أسكن القاهرة لا حلوان، ولا أمكث بالمرصد سوى ساعات العمل الرسمية فحسب. هل سألت أحدًا ممن يتأخرون بالمرصد ليلًا، عم نور مثلًا؟

. لقد سألته .

. وبماذا أجاب؟

. نفى علمه بوجود أي عربة تأتي للمرصد .

. عجبًا !

وأضاف كامل وهو ينقر بأصابعه على زجاج الدولاب :

. ولكنْ يُخيل إليَّ أنه لم يكن صادقًا معي، لقد حاول أن يخفي شيئًا يعرفه .

t.me/qurssan

. يخفي ماذا؟

وقال كامل في ضيق :

. لا أدري يا رؤوف، إن الأمر يحيطه كثير من الغموض حتى أكاد أظن بنفسي المرض في النهاية .

ووقف رؤوف، وقال وهو يربت على ظهر صاحبه ويقوده من ذراعه إلى خارج مبنى المرصد المغناطيسي :

. أيًا كان الأمر، فلا تجعله يشغلك لهذه الدرجة، والمهم الآن أنك نجوت من التجربة القاسية، وهي لن تتكرر لأنني لن أدعك بعد الآن تبقى في المرصد حتى حلول الظلام .

. معك حق يا رؤوف، سأبكر في العودة لمسكني ابتداء من اليوم .

وقال رؤوف وهما يبتعدان عن المبنى :

. بل إنك ستغادر المرصد اليوم في تمام الثانية معي .

. ولِمَ؟

وتوقف رؤوف عن السير مازحًا، وقال وهو يتصنع الغضب :

. ألا تريد أن أبيت معك الليلة في مسكنك؟

وصاح كامل :

. بالله.. أتقول صدقًا؟

. بالطبع .

. إذن فسنخرج معًا طوال الليل.. سنقضي وقتًا طيبًا .

. على شرط ألا نسهر.. حتى يمكننا أن نستيقظ في الصباح الباكر .

وهمس كامل مستغربًا :

. ولكن غدًا الجمعة.. عطلة .

t.me/qurssan

. وهل نسيت اتفاقنا السابق؟

. حول ماذا؟

وعاد رؤوف يضحك :

. المشوار .

ورد كامل بسرعة :

. مشوار «الست خضرة».. آه الذي اتفقنا عليه منذ أيام.. لقد كدت أنسى .

. كيف وقد استقر رأينا على أن أذهب أنا لإحضار الدواء ..

وقال كامل مكملًا :

. وأرافقك أنا لرؤية السوق الكبيرة التي تقام صباح كل يوم جمعة في حلوان ويسمونها «سوق الست خضرة» فإنني متشوق لرؤياها .

وفي رفقة الصديق الوفي تناسى كامل حادثة العربة التي كانت تشغله، وراح يمضي بقية يومه في سعادة صافية .

t.me/qurssan

3

حينما سمع لأول مرة باسم «الست خضرة»، تخيله على الفور مكانًا متسعًا ظليلًا تكسوه الخضرة أينما وقع البصر، وتحيط به الأشجار الباسقة، وتنتشر في أرجائه أحواض الزهور وجداول المياه. ولكنه أصيب بالخيبة عندما وصل إليه في النهاية، هو وصاحبه، فوجده لا يزيد على مجرد بقعة جرداء متربة في مساحة ملعب عادي للكرة، امتدت بين مجموعتين من الحمامات الكبريتية، إحداهما للسيدات والأخرى للرجال، وتقع في أقصى المدينة من ناحية الجنوب الغربي. وكان يميز المكان بصفة عامة شيئان: الضوضاء الشديدة التي ملأت آذانهما حتى قبل أن يَلِجا «سوق الست خضرة»، ورائحة المياه الكبريتية النفاذة التي استقبلت أنفيهما في نفحة قوية منفرة. وكان مصدر المياه محدودًا.. يتفجر في مجراه الطبيعي من باطن أرض حلوان التي اشتهرت بمياه ينابيعها الكبريتية والمعدنية، أما مصدر الضوضاء فقد كان يختلف بالمرة، فهو متحرك.. متداخل.. منتشر.. يتوه وسط المئات المتراصة من الآدميين والماشية والدواجن متباينة الأنواع والأحجام، وعدا عشر إلى خمس عشرة من الخيام الشبيهة بالحوانيت، فقد تراصت الجموع المختلفة في حلقات، تعرض ما جاءت خصيصًا لبيعه في العراء وعلى الأرض مباشرة .

وكان يباع كل ما يخطر على بال في هذه السوق التي تُعقد صبيحة كل يوم جمعة في مكان «الست خضرة»، وقد استمد اسم «الست خضرة» وصفه هذا، ذائع الصيت في حلوان وما يجاورها من قرى ومزارع، بسبب تسرب المياه الكبريتية من خلال جدران مباني الحمامات المقامة في المنطقة، وانسيابها على الأرض في جداول وبرك صغيرة متفرقة، تكوَّن العفن الأخضر حولها .

وكان سبب مجيئهما في الأصل البحث عن دواء، فقد كان عاصم أفندي والد رؤوف يعاني منذ أكثر من ثمانية أعوام من داء تكوُّن الحصى في إحدى كليتيه، وكان المرض يعذبه ويسبب له قلقًا دائمًا في معيشته، وقد قرر الأطباء مؤخرًا أن يجروا له جراحة

t.me/qurssan

لاستخراج سبع حصوات كبيرة، أظهرت الأشعة استحالة خروجها عن طريق مجرى البول بواسطة العقاقير الطبية. ولكن عاصم أفندي أحجم، وقرر ألا يجري الجراحة قبل أن يجرب كل دواء يسمع به، ولو يكون من الوصفات البلدية، ومنذ حوالي الشهر تقريبًا جلب له أحد معارفه نوعًا من المساحيق مُر المذاق، وطلب إليه أن يتناوله ثلاث مرات يوميًا لمدة أسبوعين .

وحدثت المعجزة فعلًا بعد ثمانية أعوام من العناء، فنزلت إحدى الحصوات السبع مصحوبة بنوبة من المغص والدماء، وعرفوا في النهاية أن مصدر المسحوق هو عطار مجهول، كل ما يُعرف عنه أن اسمه «أبو الدهب» لوجود سِن ذهبية أو أكثر بفمه، وكان أبو الدهب هذا يبيع عطارته في «سوق الست خضرة ».

وعلى ضوء هذه المعلومات، كان الاتفاق بين كامل ورؤوف، ثم كان التوجه في صباح الجمعة الباكر إلى السوق قاصدين إليها من شارع عبد الله مباشرة .

وخلال تجوالهما بين كتل البشر والدواب وأكداس البضائع والخضر والفاكهة، كان يُخيل إلى كامل أن الكثير من وجوه الأهالي التي يراها تسعى مثلهما مألوفة لديه، وإن لم يكن يعرف غالبيتهم، فإذا رأى من يعرفه منهم فإنه كان يحييه برفع يده أو الابتسام وهو يتبع خطى صاحبه رؤوف، الذي أخذ بدوره يستحث السؤال عن مكان أبو الدهب العطار .

وقالت امرأة تبيع الجبن الحلوم :

. أبو الدهب؟ أظن يا بك أنه لم يأتِ إلى السوق اليوم .

ولكن شيخًا بجوارها كان يقوم بفرد بضاعته من الحصير البلدي قال مؤكدًا :

. بل لقد حضر توًّا معي .

وسأله رؤوف :

. وأين أجده؟

t.me/qurssan

. ربما تعثر عليه يا بني يفترش مكانًا في ظل إحدى هذه الخيام كعادته، إما خلفها أو عند أحد جانبيها .

وتابعا سيرهما، وقد سبقتهما بضع دجاجات شاردة، بينما أخذت تتكاثف رائحة الدواب المختلطة برائحة كبريت مياه العيون، ودارا حول أكثر من خيمة وسألا أكثر من شخص، حتى عثرا أخيرًا على أبو الدهب. كان رجلًا طويل القامة، نحيفًا، بارز العظام، يبدو أنه لم يتخطَّ عقده الرابع، وكان يجلس القرفصاء على ما يشبه السجادة، وقد تراصت أمامه مجموعة من العلب الصفيح الصدئة مدون عليها بخط رديء ما تحتويه من الأعشاب، كما كانت هناك مجموعة أخرى من الزجاجات ضمت سوائل قاتمة، ومجموعة ثالثة من الصناديق الخشبية تحوي أنواعًا متباينة من البخور، والبذور، والأخشاب، وأوراق الشجر، والمساحيق .

وجلس رؤوف على حافة أحد الصناديق الخشبية يتجاذب مع أبو الدهب حديثًا عابرًا حول العطارة وفوائدها، وكيف أنها أساس الطب القديم، في حين أخذ العطار ينتقي الأعشاب المطلوبة في مهارة ويقوم بوزنها ثم دقِّها ثم خلطها حسب نسب معروفة لديه .

ووقف كامل يراقبهما عن كثب ويراقب في نفس الوقت الجموع المتزاحمة حولهم، والتي كانت تتزايد أعدادها كلما أوغل النهار في التقدم، واسترعت انتباهه فتاة وقفت على مقربة تشتري بعض الخضر، كانت ترتدي ثوبًا بسيطًا يميل إلى الزرقة، وكانت تحمل على ذراعها اليسرى حقيبة من القماش امتلأت لنصفها ببعض مقتنيات السوق، أما يدها اليمنى الطليقة فكانت تقبض على كيس للنقود ومنديل .. وبدت الفتاة عادية في حسنها وفي ردائها ومظهرها، ولكن شيئًا مبهمًا في نظراتها شده إليها بعنف دون أن يدري لذلك سببًا .

كانت البائعة تلف لها ما اشترته من خضر، وكانت هي تفتح كيس نقودها وتعطيها منه، ولكن نظراتها لم تكن مركزة لا على البائعة

t.me/qurssan

ولا على كيس النقود، وإنما كانت تتسلل إلى بعيد، وقد ارتسم فيها القلق والخوف بصورة واضحة .

وتتبع نظرات الفتاة حتى وجدها تستقر على رجلين وقفا متقابلين على مقربة منها، وهما يمسكان ببطة أو إوزة بينهما وقد انتصب أولهما يقبض على نصل حاد يذبحها به، ولكن ...

هل يبعث مرأى الذبيحة الصغيرة كل هذا الخوف في فتاة تعدت العشرين من عمرها؟ أو أن هناك مشهدًا آخر أليمًا ذكَّرها به مرأى الدماء؟

وأحس في أعماقه أنه يرجح الدافع الثاني، وأحس في أعماقه كذلك نوعًا من الإشفاق يربطه بالفتاة منذ اللحظة الأولى التي وقعت عليها عيناه .

وترك صاحبه في انشغاله مع أبو الدهب وتوجه ببطء يزاحم الناس نحو الفتاة، حتى إذا ما حاذاها راح يختلس إليها النظر، فوجدها فتاة في مقتبل العمر، لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها، أما قسمات وجهها فقد بدت دقيقة حلوة يرتسم فيها النقاء، إلا إن بشرتها العاجية كان يشيع فيها الاصفرار، وكأنها لا تتعرض لأشعة الشمس إلا نادرًا. وتقدم يهمس لها في بساطة وهو يتفحص شعرها المسترسل في ضفيرة واحدة مدلاة خلف ظهرها إلى خصرها :

. أهناك ما يضايقك يا آنسة؟

ولم تُعره انتباهها فقد ظل منظر رأس الداجنة المفصول عن بقية جسمها مستحوذًا على كل مشاعرها.. بدت مشدودة.. مسمَّرة، مشرئبة على طرفي قدميها.. غير شاعرة بأي حركة تدور حولها .

واستدار كامل ليواجهها فبدا له جانب وجهها باهتًا جامد القسمات، فمد أصابعه يلمس يدها برفق وهو يبتسم لها :

. يا آنسة.. هل تَشْكين ألمًا؟ أأنت مريضة؟

على أنها أجفلت من لمسته، واستدارت إليه فى عصبية لتحملق

t.me/qurssan

في وجهه بنظرات يائسة .

وكرر مشجعًا :

. هل ترغبين في أي مساعدة؟

وأوشكت أن تجيبه عن سؤاله بالإيجاب، لكنها بغتة أغمضت عينيها.. وأولته ظهرها.. واندفعت تسرع الخطى في شبه عَدْو.. ووجد نفسه يتبعها بدوره، وقد سيطر عليه إحساس قوي بأن هذه الإنسانة في حاجة ملحة إلى معونته، أما نوع هذه المعونة وكيف يمنحها إياها وما مدى تقبلها لها، فهذه أمور لم تكن موضع بحثه وهو يتعجل الخطى بدوره في أثرها .

وقادهما الممر الضيق من الأجساد البشرية المتراصة على الجانبين إلى حيث ألقيت الذبيحة المختلجة، وكادت قدمها الصغيرة تطأ بركة الدماء المتخلفة حينما اعتصرت قواها لتكف عن الخطو في اللحظة المناسبة، ورفعت ذراعيها إلى أعلى لتحفظ توازنها فسقط منديلها وكيس نقودها، وكادت هي نفسها تسقط إلا إنها تحاملت وحفظت توازنها لتواصل اندفاعها أمامًا تلاحقها إحدى الأذرع بكيس النقود، فتلقفته في عجلة، وامتدت إليها ذراع كامل بالمنديل، ولكنها كانت قد قفزت بعيدًا تواصل فرارها الغريب .

وسمع كامل رؤوف يناديه في هذه اللحظة، ثم أقبل عليه يمسك بلفة الدواء تحت إبطه :

. أين كنت مختفيًا يا رجل؟

ولكن كامل جذب صاحبه من ذراعه يديره في اتجاه الفتاة وهو يتبعها ببصره :

. انظر يا رؤوف إلى الفتاة .

وتساءل رؤوف وهو يحاول التحديق في اتجاه عينَي صاحبه :

. أيهن؟

t.me/qurssan

. هذه التي تعدو هناك.. التي ترتدي الثوب الأزرق.. هل لمحتها؟

. الفتاة ذات الضفيرة؟

وتابع في انفعال وهو يزيد من إحكام قبضته على ذراع رؤوف :

ـ والآن.. ألا ترى هذه العربة ذات الجوادين التي اعتلت الفتاة مقدمتها بجوار السائق؟

. إني أراها .

. إنها العربة التي حدَّثتك عنها بالأمس .

. أحقًّا.. لم يقع عليها بصري من قبل .

ـ إنها نفس العربة التي صعدت الجبل إلى المرصد.. وكادت تتسبب في هلاكي .

واختفت العربة براكبيها في ثنية أحد الشوارع الجانبية .

واستدار الصديقان يأخذان طريق العودة، وقد تلاشت كل رغبة لديهما في رؤية المزيد من معروضات «سوق الست خضرة» مع أنهما لم يريا كل خفاياها، ولم يشتريا سوى دواء السيد عاصم أفندي الذي يُنزل الحصى من الكلى .

وفي طريق العودة.. وخلال يوم إجازته، وقد أمضاه مع صديقه على قهوة «لوانيدا» أمام محطة السكة الحديد حتى الظهيرة، ثم وهما يتناولان أكلة الكباب بسلطة الطحينة في حجرته، وبعدها في سينما «الكازينو» حيث أمضيا بقية المساء في مشاهدة فيلمين: أحدهما عربي، والآخر إفرنجي، بل وحتى خلال نومه المؤرق وفي دوامة أحلامه، كانت تدور أسئلة صارخة في رأسه.. تدوي.. وتدوي في إصرار .

تُرى ما سر هذه الفتاة التي ترتدي الثوب الأزرق؟ ولماذا أجفلت لمرأى ذبيحة عادية تُذبح مثلها عشرات في كل سوق؟ ولماذا لم تجبه حينما خاطبها؟ هل هي خرساء؟ لا يبدو ذلك عليها، فقد وضح من حركاتها أنها سمعته وهو يوجه إليها كلماته.. ثم ما

t.me/qurssan

علاقتها بالعربة، وأصحاب العربة، هل هي صاحبة العربة مثلًا؟

غير أنه كان يستبعد هذا الخاطر كلما طاف برأسه، وبرز على خواطره الأخرى، فقد كانت بالرغم من نبل قسمات وجهها تبدو في حركاتها الآلية.. مسلوبة الإرادة كالمنومة.. أشبه بالعاملة الأجيرة لا صاحبة العمل .

t.me/qurssan

4

يتكوَّن مبنى المرصد الرئيسي من طابقين متماثلين، يضم كلٌّ منهما صفين من الحجرات المتقابلة تفصل بينهما ردهة متسعة، وعدد الحجرات في كل طابق أربع عشرة حجرة، خمس منها تطل على تلال المقطم الممتد شرقًا، تقابلها خمس حجرات أخرى تطل على الجهة الغربية حيث تقبع مدينة حلوان، في حين تستقر حجرتان عند كل طرف من طرفي الردهة شمالًا وجنوبًا. وقد خُصصت حجرات الطابق الأسفل لأقسام الفلك العام والطبيعة الفلكية، وبها المنظار الزوالي ونخبة من الساعات الدقيقة لتعيين الزمن، وكذلك خُصص جانب منها للتصوير الفوتوغرافي بآلاته لالتقاط لوحات للأجرام السماوية، كما توجد بهذا الطابق حجرة الاتصال اللاسلكي التي يتم عن طريقها اتصال المرصد بالأجهزة الخارجية، وبخاصة مطار ألماظة والموانئ المصرية .

أما الطابق الأعلى فقد ضمت حجراته الإدارة والمكتبة ومخزن الخرائط وأقسام الأرصاد الجوية، وفيها البارومتر العياري والأجهزة المسجِّلة للضغط الجوي ودرجات الحرارة والرطوبة ومقاييس الأمطار، إلى جانب جهاز «الراديوسوند» لرصد سرعة الرياح واتجاهاتها .

ويوجد في واجهة مبنى المرصد برج الرصد العالي، وهو برج مربع الشكل يرتفع بمقدار أربعة طوابق أعلاها مسطح، مُحاط بسور حديدي مُقامة بداخله سارية يُثبت عليها العَلم في المناسبات وأجهزة خاصة بالرياح، وأهمها مؤشر اتجاه الريح، كما يوجد جناح منفرد يحتوي على ست حجرات يبرز من المبنى الرئيسي ويمتد في اتجاه الجنوب، وهو يشبه الاستراحة ويخصَّص لأغراض المبيت وتناول الطعام .

كذلك هناك مبنيان مستقلان يقعان متجاورين على أحد التلال إلى الشمال من المبنى الرئيسي، أولهما مبنى القبة الدائرية، التي تحوي المنظار الاستوائي العاكس الذي يقوم بتعيين مواقع السدائم والمذنبات والكواكب السيارة على صفحة السماء مع

t.me/qurssan

تصـــويرها فوتوغـــرافيًا. وأمـــا المبنـــى الثـــاني فـــهو المرصـــد المغناطيسـي، ويحـوي المسـجلات الآليـة لمركبـات المغناطيسـية الأرضية، كما يحتوي على آلات «السيزموجراف» لرصد الزلازل .

وكان مكتب كامل موضوعًا في حجرة المكتبة، وهي الثالثة إلى اليسار في الجناح المطل على الجهة الشرقية بالطابق الثاني .

وجلس كامل إلى مكتبه بمجرد وصوله في الصباح الباكر، وكان يحس قلقًا وعزوفًا عن الكتابة على غير عادته. وحين قدم له أحد السعاة القهوة التي طلبها، راح يرشفها ببطء وهو لاهٍ عن أي طعم أو لون لها وإنما كانت أفكاره تدور حول الفتاة، والعربة، والقدَر الذي جمعهما معًا برغم التناقض الواضح بينهما، على الأقل كما يراهما في مخيلته. فقد كانت العربة، في صورتها المثيرة وهي تهم بالانقضاض عليه، تمثل على لوحة عقله الباطن شرًّا غامضًا لا يدري مصدره، وإنما هو يبرز من حلكة الليل، فهو من الظلام وإلى الظلام تعود علاقته. أما هي، الفتاة النحيفة، هيفاء الجسد، ذات الضفيرة والثوب الأزرق البسيط، فقد أبت مخيلته أن تربط بينها وبين العربة وأصحاب العربة في إطار واحد .

ولا بد أن في الأمر شيئًا ما قد التبس عليه، فربما لم تكن هذه العربة هي نفس العربة المشؤومة وإنما تشبهها فحسب، خاصة وقد وقفت في مكانٍ منزوٍ خارج السوق، فلم يتأكد من معالم شكلها. وربما كانت الفتاة صاحبة العربة فعلًا، ولكنها ليست على علم بتصرفات السائق في غيابها، أو ربما كانت الفتاة تعرف السائق معرفة عادية، وقد طلبت إليه أن يوصلها إلى سكنها وهو في طريقه إلى عمله أو بيته .

واستراح لاكتشاف الخاطر الأخير .

فاستدار بكرسيه يواجه الحائط خلفه بطريقة فكهة، ومد ساقيه يريحهما بوضعهما فوق سلة المهملات، وبدأ يصفر بفمه لحنًا شعبيًّا، ووضع كلتا يديه في جيبي سترته في حركة غير مقصودة، ولكنه توقف عن الصفير قبل أن يكمل بقية اللحن، وأخرج يسراه فإذا بمنديل الفتاة عالق بين أصابعه.. وتذكَّر كيف

t.me/qurssan

سقط منها المنديل خلال عَدوها نحو العربة، وكيف التقطه هو .

وقرَّب المنديل يفحصه، كان من قماش أبيض رقيق، يحمل أحد أركانه تطريزًا أزرق لحرف الزاي بالإفرنجية، وأدنى المنديل من أنفه.. فتسللت إليه رائحة عطر مميز .

وأحس حنينًا لصاحبة العطر .

وود لو دخلت عليه في هذه اللحظة وتطلعت إليه بوجهها الحزين، ونظراتها القلقة.. ولكن الذي دخل الحجرة وقطع عليه حبل تصوراته كان أحد الموظفين، شوقي عباس، مدير المكتبة وواحدة من الشخصيات عالية الثقافة التي ألِفها بسرعة في المرصد. فقد كان شوقي، إلى جانب إجادته لعدد من اللغات الأجنبية، ذا خيال شاعري خصيب، يعشق قرض الشعر وقراءة الآداب العربية والغربية القديمة، ويغرم بالاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية، وموسيقى الفالس، وهي نفس الهوايات المحببة أيضًا إليه .

سأله شوقي بصوته الخافت على الدوام :

. ألا ترغب في الصعود معي الآن إلى البرج.. فإنني، بدلًا من نشأت الغائب اليوم لمرضه، صاعدٌ لأخذ قياس الريح .

. الحقيقة، إنني طالما وددت أن ألقي نظرة على المنطقة من فوق البرج .

. إذن هيا بنا .

وراحا يصعدان الدرجات الحديدية الدائرية المعلقة خارج المبنى مربع الشكل، والتي تصعد إليه من جانبه الشرقي، وقال شوقي وهو يتقدم كامل في الصعود :

. بالمناسبة.. فإننا سنشهد منظرًا طريفًا من أعلى.. سوف يطلقون بالونًا ضخمًا للأرصاد .

- لقد حدثني رؤوف عن هذه البالونات، ولكني لم أشاهدها

t.me/qurssan

إطلاقًا .

. إننا نطلق واحدًا منها كل خمسة أيام تقريبًا .

وعاد الاثنان يرتقيان الدرجات الحديدية حتى بلغا نهايتها وأصبحا في قمة البرج. وكانت الشمس قد بدأت في اعتلاء السماء فوق رأسيهما، وبالرغم من برودة الهواء الذي لفحهما فقد أحسا بحرارتها المباشرة. وراقب كامل زميله وهو يملأ خانات كراسته الصفراء بدرجات هبوب الريح ودرجات اتجاهها. ثم اتكأ بمرفقيه على سور البرج الحديدي، واستدار بوجهه يراقب الأفق البعيد حيث ظهر خط لامع رفيع في أقصاه: نهر النيل، بمياهه الفضية المتلألئة تحت أشعة الشمس، نهر الحياة الذي تتدفق مياهه عبر الزمن، صانعة الخلود وصانعة الوجود على ضفتيه. ومنذ طفرت الحياة، وتطورت، وتنفس الإنسان أولى نسماتها، وهو يتصيد كل ما حوله من كائنات، ويضع قدميه في كل بقعة يمكن تصورها على ظهر الكرة الأرضية وسط فضاء الكون الصامت اللانهائي، وحلوان هي إحدى مستعمرات الإنسان العديدة على كوكب الأرض .

وهمس كامل لشوقي الذي يقف بجواره ربما سابحًا في أشعاره :

. أتعرف يا أستاذ شوقي؟

. نعم؟

. إنني أتصور من نقطة مراقبتي هذه، أن حلوان، وبجوارها طرة، والمعادي، وغيرها من المدن في مصر، بل وكافة مدن العالم، إنما هي لا تزيد على كونها صورة ضخمة من مجتمعات النمل .

وتساءل شوقي وهو يستوعب الكلمات :

. مجتمع النمل؟ !

. أجل.. أفواج تجيء وراء أفواج، وكلها تسعى وتبني وتعيش، ولكن ما الهدف في النهاية؟

t.me/qurssan

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. ماذا تقصد؟

ـ حسن.. إن الهدف حسبما أرى لا يزيد على عدد من السطور تسجل فيما يسمونه تاريخًا عن الأعمال البارزة للبعض من أبناء هذه المجتمعات، مجتمعات النمل، بينما تتوارى الغالبية العظمى في الظلال ويطويها الزمن كما طوى قبلها الألوف، وسيطوي بعدها الألوف .

. على الأقل حسب قولك.. فإن البعض يميزون .

وصاح كامل بانفعال :

. ولِمَ لا نقول إن هذا التاريخ لا يزيد على بضع وريقات باهتة؟ مهما سُطر عليها ومهما حوت، فمصيرها في النهاية أن تتآكل.. تتلاشى.. تذهب إلى العدم.. ونحن نضحك على أنفسنا بالكتابة فيه .

وقال شوقي وهو يراقب سحابة عابرة تظللهما :

ـ الحياة يا أستاذ كامل مثل هذه السحابة العابرة.. هي رحلة، طالت أو قصرت، محصورة بين ميلاد.. وموت.. فكيف سنمضي هذه الرحلة إذا لم نخفف وطأتها على أنفسنا؟ مثلًا نجعلها تلتف حول شيء مهم .

وتطلع كامل بدوره إلى السحابة العالية :

. أنا معك.. ولكنْ ألا ترى رأيي في أن فرص هذه الحياة قليلة، وسجل التاريخ، لو سلمنا بأهميته، فإنه صعب المنال .

. ليكن.. البعض يصل للسجل فيكتب فيه اسمه وأعماله، والبعض الآخر، أو هي الغالبية العظمى، تتلذذ بقراءة المكتوب بين الصفحات .

وهمس كامل لنفسه جادًا :

. أنا شخصيًا لا أومن بجدوى هذا السجل.. غير مقتنع بفائدته ما دامت الحياة مجرد سحابة عابرة تنتهي بالفناء، وأي كلمات

t.me/qurssan

تُكتب في أي سجل، مهما علا شأنه، لن تعيد مَن ذهب بأي حال من الأحوال، ولو أن هناك إحساسًا في صدري يقودني إلى الاعتقاد بأنني لن أرضى عن نفسي إلا لو ملأت على الأقل صفحة من صفحاته .

. حتى لو كان مصير هذه الصفحة مثل مثيلاتها إلى العدم؟

. أظن حتى لو كان مصيرها العدم !

وتعالت بعض الأصوات من أسفل .

كان موظفو المرصد يطلقون البالون الضخم المملوء بغاز الأيدروجين، ورأى الواقفان أعلى البرج البالون وهو يرتقي نحوهما ببطء.. حتى إذا حاذاهما لمع لمعانًا شديدًا، وكأنه صفحة مرآة تعكس الأشعة الذهبية، ثم انحرف فجأة في اتجاه الجبل تدفعه الرياح القوية، وراح يرتفع بسرعة حتى أصبح مجرد نقطة لامعة تقودها تيارات الهواء العليا .

واستدار الرجلان وتهيآ ليهبطا من قمة البرج .

وتوقف كامل عند بداية السلم الحديدي، وسأل رفيقه، وهو يشير بإصبعه إلى بقعة بعيدة يلمحها لأول مرة تتضح من مكانه المرتفع نحو الشمال الشرقي :

. أكوخٌ هذا الذي يقع هناك؟

وتساءل شوقي في شيء من التصنع :

. أين؟

. هذا المتواري خلف التل المنحدر .

أجاب شوقي بجفاء وهو يدفعه للنزول :

. هذه فيلَّا الدكتور حليم .

ولكن كامل لم يتزحزح :

t.me/qurssan

. تقول فيلَّا.. في الجبل؟

وعاد شوقي يدفع كامل للنزول وقد نفد صبره :

. دعك منها.. ولنهبط فقد تأخرنا .

ولكن كامل لم يستجب له وإنما تابع :

. إنني لم أسمع بوجودها ولم أرها من قبل .

وتطايرت ربطة عنقه في الهواء الذي بدأ يشتد في هذه الأثناء، فأضاف هامسًا في تعجب، وهو يمسك الربطة المتطايرة بيده، بينما عيناه تحاولان أن تتكشفا أكثر مما تريان من ملامح الفيلَّا البعيدة، المختفي معظم بنائها وراء تلٍّ عالٍ منحدر، وقد بدا ظهرها مثبتًا في الجبل .

. فيلَّا.. هناك.. وسط التلال الجرداء.. وحولها الوديان الموحشة الملأى بالذئاب والحشرات السامة.. تقول من صاحبها؟

. الدكتور حليم .

. أطبيب هو؟

. أجل .

. طبيب في ماذا؟

. أسمعهم يقولون إنه طبيب باطني .

ـ منذ متى يسكن هذه الفيلَّا؟ ثم لماذا بالله اختار هذه البقعة النائية جدًّا لبنائها؟

وأحس شوقي ضيقًا متزايدًا من الأسئلة حول الدكتور صاحب الفيلَّا، فقد آلى على نفسه منذ أمد بعيد، أسوة بزملائه في المرصد، ألا يخوض في أي حديث عن الفيلَّا أو صاحبها. صحيح أنه لم يكن يدري لذلك سببًا واضحًا، ولكن مثل بقية الزملاء كان يوقن في أغواره أنه بذلك يتجنب متاعب وأضرارًا هو في غنى عنها. وأنقذه طلب التلفون له، فهبط مسرعًا، تاركًا كامل في قمة

t.me/qurssan

البرج يقف وحده مع أفكاره المتصارعة، وقد أُثيرَ فضوله لأقصى الحدود .

وتطلع كامل يعاود مراقبة الشجرات التي بدت ظاهرة حول فيلَّا الدكتور حليم، ثم ذلك السياج الذي يحيطها وقد زاد في غرابة منظرها وسط ما يلفها من مرتفعات ومنخفضات عارية خاوية لا تطؤها قدم إنسان. وحاول من مكانه أن يقيس المسافة بين المرصد والفيلَّا، ورجح أنها قد تقارب الكيلو والنصف أو تزيد قليلًا، ولمح طريقًا ملتويًا غير ممهد يخرج من وراء مبنى المرصد ليختفي بعيدًا بالقرب من الفيلَّا، ولم يكن قد شاهد هذا الطريق الخلفي من قبل .

وهز كامل رأسه في اقتناع وهو يقبض على السور الحديدي بيد ويمسك ربطة عنقه بيده الأخرى، فقد بدأت ومضات جديدة تزيل الغشاوة من أمام عينيه، وأحس وهو يهبط السلم أنه موشك على كشف النقاب عن الكثير من الأسئلة المحيرة التي شغلته مؤخرًا .

إن حادثة العربة حقيقة واقعة لا جدال فيها .

ولكن العربة لم تكن، في تلك الليلة، صاعدة إلى المرصد وإنما كانت آخذة طريقها إلى ما وراء المرصد، إلى الفيلَّا الغامضة، وهناك شيء آخر توصل إليه: إن الجميع يتحاشون الكلام عن الدكتور حليم، شيء يرهبونه يجعلهم يحجمون عن تناول سيرته. لقد أحس ذلك في حديثه مع عم نور الحارس النوبي وهو يتظاهر بالنعاس، وأحسه في نظرات شوقي عباس القلقة، وأحسه في أكثر من لقاء مع أكثر من زميل، حينما كان يتناول في أحاديثه معهم موضوع العربة ذات الجوادين التي صعدت الجبل في أعماق الليل، وكادت تتسبب في قتله .

ولكنْ هل كان صديقه رؤوف يتهرب بدوره من أسئلته حول العربة، وحول الدكتور؟ وكان رد رؤوف على هذا الاتهام حينما قابله بعد نزوله من البرج في حجرة المكتبة :

. إن معلوماتي عن هذا الطبيب لا تزيد عما يُتداول همسًا بين

t.me/qurssan

أهالي حلوان .

وصاح كامل :

. آه.. إذن فهناك ما يُتداول همسًا عن الرجل .

. هناك فعلًا بعض الشائعات تدور حوله .

. في هذه الحالة عليك يا رؤوف أن تخبرني بكل ما تعرفه، ولنبدأ بذكر الحقائق .

وأخرج رؤوف علبة لفائفه حيث يقف قبالة النافذة في حجرة المكتبة، ويتناول لفافتين منها أشعل إحداهما لكامل والثانية لنفسه. ثم سحب نفَسًا طويلًا من لفافته، وبدأ يتكلم وهو يحدق عبر النافذة إلى التلال المترامية أمامه شرقًا، وإلى حيث تستقر خلف أحدها فيلَّا الدكتور حليم، وإن كان لا يراها مباشرة من مكانه الواطئ .

. الدكتور حليم طبيب في الأمراض الباطنية، وجراح، وباحث في نفس الوقت، وهو صاحب مستشفى خاص يحمل اسمه ويقوم في بناء منعزل في طرف مدينة حلوان الجنوبي الشرقي، بجوار العزبة المسماة بـ«العزبة البحرية ».

. وعيادته؟

. أظن أنها في نفس المستشفى .

. وماذا عن عمله كطبيب، عن علاقته بالناس؟

وقال رؤوف وهو يمد يده خارج النافذة ينفض رماد لفافته :

. هو كطبيب موفق لأقصى الحدود، وأنا أعرف كثيرين من أهالي حلوان قام بعلاجهم أو أجرى لهم جراحات عاجلة، وكان بارعًا سواء في العلاج أم في الجراحة، بشهادة الجميع .

. هكذا !

. والأكثر من هذا أن له شعبية بين الفقراء لا تدانيها شعبية أي

t.me/qürssan

طبيب آخر في حلوان، فهو في أغلب الأحيان لا يتقاضى أجرًا عن علاجه، بل إنه إذا وجد مريضه بالغ الفقر، فإنه يسهم من جيبه في نفقات علاجه .

. أثريٌ هو؟

. ليس بالدرجة التي تتصورها .

. مدهش .

. على أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أنه الجراح الوحيد بالمدينة .

وعلق كامل :

. وهذا يعطيه الحق في فرض الأتعاب التي تروقه نظير إجرائه للجراحات ...

لكن رؤوف قاطعه بحدة :

. أبدًا، إنه ليس من الطراز الذي تظنه، خاصة في مهنته .

وتساءل كامل في حيرة، وهو يطفئ ما تبقى من لفافته بقذفها بعيدًا من خلال النافذة :

. إذن من أي طراز هو؟

ولم يُجب رؤوف مباشرة، وإنما توجه إلى مكتب كامل، وتناول منفضة اللفائف الفضية من عليه، وراح يطفئ لفافته على حافتها ببطء، بينما رفع رأسه في مواجهة صاحبه، والمنفضة لا تزال في يده .

قال :

. الدكتور حليم، فيما يختص بعمله كطبيب، رجل من طراز ممتاز، ولكنه فيما يختص ببقية حياته، أو قل بالذات فيما يختص بمعيشته في «فيلّا الجبل » كما يطلقون عليها، فهو من طراز غامض.. مريب.. لا أحد يعرف عن حياته ومعيشته الثانية حقيقة واحدة مؤكدة.. وإنما كل ما يُتداول في هذا الخصوص مجرد

t.me/qurssan

شائعات وأقاصيص، لا تكاد تميز أيها الصادق وأيها المختلق .

. وماذا يقول زائروه عنه؟

. ليس له زوار .

. ألم يرَ فيلَّته أحد؟

. حسب علمي لم يرها أحد .

. ولكنَّ.. أليس لديه خدم؟

ـ أظن لديه اثنان أو ثلاثة من أبناء الصعيد وهم لا يختلطون بأهالي المدينة .

وقطب كامل جبينه قائلًا :

. لنعد إلى الشائعات.. أخبِرني ماذا تقول؟

وأعاد رؤوف منفضة اللفائف إلى مكانها، ثم سار إلى النافذة يعاود التحديق من ورائها :

. لا أستطيع أن أخبرك على وجه الدقة.. ولكنهم يقولون إنه يقوم بتجارب مثيرة في معملٍ له بهذه الفيلَّا، ويقولون إنه يحظر الاقتراب من فيلَّته على أي مخلوق .

. أي نوع من التجارب يجريه؟

. لا علم لديَّ .

. حسن.. وماذا أيضًا؟

. ويقولون كذلك إن أرواحًا شريرة تحوم ليلًا حول الفيلَّا .

وقلب كامل شفتيه وهو يهمس :

. بدأنا في الهراء .

. ربما.. ولكن أحد أصدقائي، وهو من أهالي المدينة، ويقطن في أقصى طرفها الشرقي أسفل الجبل المشيد عليه المرصد، أكد لي

t.me/qurssan

أنـه وسكان المنطقة بجـواره يسمعون فـي بعض الليـالي ساكنة الريح صرخات بشعة تتعالى من اتجاه فيلًا الدكتور حليم .

. وصديقك سمع بنفسه هذه الصرخات؟

. لقد سمعها أكثر من مرة .

. غريب أمرها حقًا، هيه، استمر يا رؤوف.. وماذا أيضًا؟

. لا شيء، هذا كل ما عندي، وأما العربة والفتاة فلم أسمع عنهما من قبل .

وهمس كامل :

. إنني أصدقك .

وغادر رؤوف الحجرة، وبقي كامل يحدق من خلف النافذة في اتجاه الجبل، وقد تراقص أمام عينيه سؤال كبير: تُرى ما هو سر الدكتور حليم؟

t.me/qurssan

5

وقفت السيدة البدينة أمام باب الحجرة المغلق تصلح من هندامها قبل أن تمد يدها وتطرقه برفق، وجاءها صوته خافتًا يأذن لها بالدخول، ففتحت الباب ودخلت، حاملة الصينية النحاسية يتوسطها كوب ساخن من القهوة الممزوجة باللبن .

ووجدته بالداخل يجلس إلى المنضدة وقد قربها من النافذة المطلة على بداية طريق المرصد، وكان لا يزال مرتديًا منامته وعليها صدرية قطنية مقلمة . ولاحظت السيدة رزمة من الورق الأبيض العريض تقبع على المنضدة في متناول يده، كما لاحظت أن معظم سطورها قد ملئت بخطه الرفيع العَجِل، في حين استقرت بجانب الرزمة منفضةُ اللفائف ومجموعة من الكتب والكراسات وُضع فوق أحدها قلم الحبر الأحمر الذي تعوَّد على الكتابة به .

واقتربت السيدة البدينة، باشَّة القسمات، من المنضدة، وأفسحت عليها مكانًا بين الكتب، وضعت فيه الكوب .

سألها كامل بينما شُغلت عيناه بالتحديق في اتجاه طريق المرصد الصاعد إلى الجبل :

. ما هذا؟

أجابته :

. كوب قهوة باللبن .

فالتفت إليها قائلًا :

. أظن أنني لم ...

ولكنها قاطعته في لهجة حانية رقيقة :

. أرجوك تشرب.. إنه يقويك ويبعث الدفء في بدنك.. ثم أنت لم تتناول شيئًا من عشاء الأمس .

t.me/qurssan

. لم أكن جائعًا .

. والإفطار الذي أرسلته لك منذ قليل مع الخادم.. لقد أعدته دون أن تمسه .

. ما زلت لا أحس بأي رغبة في الأكل .

عادت تحنو عليه :

. ولكنك بالتأكيد مرهق يا أستاذ بعد سهرك الليل بطوله.. فمنذ عودتك من عملك ظهر أمس ومعك حقيبة أوراقك وأنت لم تتوقف عن الكتابة.. لم تُغير هذه الجلسة .

وكاد لسانه يفضحه فيقول لها إنه لم يكن يكتب شيئًا، وإن كلمة واحدة لم يسطرها منذ غادر المرصد بالأمس وحتى هذه اللحظة من صباح اليوم التالي، وإنه إنما كان طوال هذا الوقت غارقًا في لجة أفكاره.. بعيدًا.. في الجبل .

على أنه اكتفى بالتطلع إليها في امتنان وتمتم وهو يتناول الكوب الدافئ بين كلتا يديه :

. أشكر لكِ اهتمامك يا ست فردوس .

ردت ببساطة :

. علام؟ إنك يا أستاذ مثل واحد من أبنائي .

فشكرها للمرة الثانية ثم رشف رشفة كبيرة من المزيج الساخن، وعاد يتفحص معالم الطريق الصاعد في استغراق عميق، وكأنه يدرس كل ذرة أسفلت امتدت بعرضه، وكل حجر كبر أو صغر برز من ثناياه، وكل نبتة برية تطفلت على أيٍّ من جانبيه، ويحاول تخيُّل عدد الأقدام التي وطئت أديمه، ومجموعات السيارات والعربات التي سارت عبره منذ إنشائه.. ومن داخل نفق بعيد تناهى إلى سمعه صوتها يكرر سؤالًا :

. أذاهب أنت اليوم إلى المرصد.. أم أنك في إجازة؟

t.me/qurssan

. سأذهب بعد قليل .

. حسن.. لو احتجت شيئًا قبل خروجك فنادِني .

ولكنه لم يكن محتاجًا لأكثر من مغادرتها الحجرة وتركِه وحده، مع دنيا تخيلاته .

وحين خلا إلى نفسه عقب خروجها تناول من علبته لفافة أشعلها وجلس يدخنها في حركة آلية .

وسرعان ما تسلل بمخيلته إلى فيلَّا الدكتور حليم في محاولة ليرى ما تضم جدرانها وما يدور بين هذه الجدران، ولكنه بالرغم من الجهد الذي بذله فشل حتى في تخيُّل سحنة الدكتور صاحب الفيلَّا. فقط شيء واحد كان يلح في فرض وجوده عليه هو وجه الفتاة، وإن ظل مجرد صورة جامدة.. باهتة التفاصيل.. فإنه لم يسمع صوتها بعد، ولم يتمكن من تفحُّص ملامح وجهها عن قرب، وبالذات لم يتبين لون عينيها.. وفيما عدا نظرات القلق والخوف وطريقتها الشاذة في الهرب، فلم يكن يعرف عنها سوى أن أول حرف من اسمها ربما كان حرف «ز».

وأقبلت سيارة المرصد الحافلة من أعلى الطريق وشاهد رؤوف يجلس في مقصورتها الأمامية بجوار السائق، ولمحه رؤوف بدوره فلوح له بيده يحييه حتى إذا ما توقفت السيارة قفز منها، وتوجه إلى حيث أسفل النافذة ورفع رأسه إلى أعلى ليسأله في صوت عالٍ :

. ما الذي شغلك عن الحضور اليوم يا كامل؟

فبادر وهو يطل عليه :

. ألا تصعد أولًا؟

غير أن رؤوف ظل واقفًا مكانه، وقال :

. بل قل لي.. هل أنت بخير؟

. بخير .

t.me/qurssan

. إذن لماذا لم تحضر؟

ولم يمهله كامل ليسترسل في جملته وإنما ألح عليه في الصعود، وحين دخل رؤوف الحجرة ابتدره بقوله :

. قل لي.. أأنت مرتبط بمواعيد مهمة الليلة في القاهرة؟

وأجاب رؤوف وهو يسحب كرسيًا ويجلس عليه :

. كنت أنوي شراء بعض الملابس الداخلية في المساء .

. يمكنك تأجيل ذلك للغد لأني أود منك أن تمكث معي الليلة.. هنا .

وحملق رؤوف :

. أبيت في حلوان؟

. ما المانع؟

. والدي قد يعتريه القلق لعدم عودتي .

. اتصل به تلفونيًا وتعلل بأي عذر.. مثل.. مثل مرضي أنا .

. ولكن ...

اقترب كامل وهمس في عاطفة :

. أرجوك يا رؤوف .

ولمح رؤوف المنفضة المتخمة بأنصاف اللفائف المُطفأة فيما يبدو بعصبية.. فتساءل وهو ينظر إليها ويومئ في نفس الوقت برأسه تجاه الجبل :

. أبسبب الفتاة؟

همس كامل :

ـ لا أدري.. فقط أحتاجك وأريدك بجواري بصورة ملحة .. لا

t.me/qurssan

تنسَ .. إن موعدي الليلة مع الأستاذ رشاد ليشرح لي عمل منظار الرصد وطريقة استخدامه في فحص وتصوير الأجرام السماوية.. أرأيت.. لا بد لي من رفيق.. ثم لا تنسَ.. فربما قابلَتْنا ونحن عائدان ليلًا.. العربة .

*

يقع مبنى القبة الدائرية على بُعد ثلاثة أرباع الكيلو من المبنى الرئيسي للمرصد في اتجاه الشمال، ويأخذ شكل دائرة كاملة تعلو بارتفاع طابقين يتكون أسفلهما من حجرة مستديرة ذات جدران حجرية تضم عدة مكاتب ودورة للمياه ولها سبع نوافذ متباعدة وباب وحيد يفتح تجاه الجنوب وتبرز أمامه سلمات عشر .

ومن داخل الحجرة السفلى يمتد سلم خشبي إلى الحجرة العليا والتي تمثل بدورها نصف كرة هائلة من خشب البلوط السميك، قمتها في أعلى، بينما ترتكز في أسفل على قاعدة من القضبان الحديدية تتحرك عليها بواسطة عجلات حديدية ضخمة، تدار بإدارة تروس قوية، بحيث يمكن انفراج نصف هذه الكرة عن الجدران على الجبهة المراد رصدها عن طريق المنظار الاستوائي العاكس الذي يقبع في منتصف الحجرة العلوية .

جلس كامل على المقعد المنحني إلى الخلف يراقب من خلال عين المنظار . الذي يبلغ قُطر مرآته 30 بوصة . وجه القمر، وقد استقر المنظار في اتجاهه مباشرة عبر نصف الكرة المفتوح في هذه الساعة المتأخرة من الليل، في حين وقف بجواره الأستاذ رشاد، وهو رجل رَبْعُ القامة، أحمر شعر الرأس، كثيف الشارب، بارز الذقن، يبدو عليه اللهاث قليلًا في كلامه الذي يأكل أواخره، ويشغل منصب أستاذ للفلك بمرصد حلوان .

وبينما أخذ الأستاذ يشرح لكامل ما يراه بالمنظار من تضاريس التابع الوحيد لكوكب الأرض، اتكأ رؤوف على حافة الجدار الخشبي المفتوح وظهره يواجه السماء المرصعة بالنجوم، ينصت للشرح العلمي الذي استمع إليه أكثر من مرة من قبل، وينفث دخان لفافته في هدوء .

t.me/qurssan

وانساب صوت الأستاذ وإصبعه يشير في اتجاه القمر، الذي بدا مطلًا عليهم بقسماته الحلوة ساخرًا من طول مشاهدته وكثرة تصويره وقياس أبعاده دون أن ينالوه .

. وبالتأكيد فإن القمر هو الجرم السماوي الذي يحظى أكثر من غيره باهتمام كافة البشر على ظهر كوكبنا الأرضي على اختلاف حضاراتهم، فهو محور أحاديثهم وأشعارهم وكتاباتهم على مر العصور.. ولعل أقرب كلمة مديح في وصف جمال امرأة أنها «زي القمر ».

وضحك رشاد من أعماقه وهو يقول :

ـ ولكنْ لو علمت هذه المرأة بحقيقة القمر الذي يشَبهونها به لفزعت.. فهو مجرد كوكب تابع للأرض التي تكبره بخمسين ضعفًا. وهو مظلم.. بارد.. خالٍ من أي أثر للماء والأكسجين، وبالتالي فهو خالٍ من الحياة في كل صورها .

وتساءل كامل، وقد بعُد صوت الدكتور وكاد يتلاشى بعد أن شُد بحواسه إلى الوجه المضيء الذي يطالعه والذي غطى ضياؤه عين المنظار.. تُرى أحقًا هذه الكرة السحرية المضيئة هي في حقيقة أمرها مظلمة وكئيبة وأشد قسوة في بردها من الجليد القطبي؟ وتذكَّر كامل أن ما يُرى من ضياء القمر إنْ هو إلا انعكاس لأشعة الشمس عليه.. ليكن.. فهو بالرغم من ذلك يحمل ملامح تريح العين حين تنظر إليها.. ملامح لا شك فيها الكثير من الحسن والملاحة.. وهي تحمل بعض الشبه من ملامح أخرى لا ينساها.. وبدأ فعلًا يشاهد صورة مألوفة لديه تملأ عين المنظار وتواجهه في حزن.. وفي ضراعة.. وأنار ضياء الصورة جنبات قلبه.. فأثرت على خفقاته وألهبتها .

غير أن كامل اضطر للعودة إلى واقع الحجرة على صوت الأستاذ وهو يحييه ويستأذن من رؤوف في الانصراف .

وغمغم رؤوف بعد برهة، معاتبًا كامل حين خرج من تحت المنظار وأقبل نحوه حيث يقف لدى الفتحة المتسعة في الجدار

t.me/qurssan

الخشبي :

. ما هكذا تعامله.. لا أحسبه إلا تاركنا وقد تأثر من سلوكك معه .

وتساءل كامل :

. عمن تتكلم؟

. الأستاذ رشاد .

. أأغضبته في شيء؟

فقال رؤوف ثائرًا :

. لقد انصرفت عن الإنصات لحديثه ولا أدري في ماذا.. في الوقت الذي كرس فيه الرجل ليلته ليبيت في المرصد من أجل أن يشرح لك ما قد يعينك في مؤلَّفك الذي تقوم بإعداده .

. أهكذا !

. بالطبع هكذا.. إنه أستاذ كبير في مادته وكونه يمكث معك بعضًا من وقته يُعتبر تنازلًا منه .

وطأطأ كامل برأسه اعترافًا بذنبه :

. فعلًا .

بينما استطرد صديقه وقد هدأت ثائرته بعض الشيء :

. ثم إن انصرافك عن كلامه يسيء إليه كعالم .

قال كامل :

. ويسيء إليَّ أيضًا.. ولكن الأمر حدث برغمي فقد استحوذ عليَّ مرأى القمر بتفاصيله التي أراها عن قرب لأول مرة في حياتي .

وتغلبت العاطفة على مشاعر رؤوف فاقترب يهمس لكامل :

. أعلم أن ما بدر منك لا بد أن يكون قد صدر عن غير قصد، لذلك آمل أن تتدارك فتعتذر إليه في الغد .

t.me/qurssan

. ولِمَ لا نلحق به في الاستراحة فأعتذر له قبل أن ينام؟

ولفحتهما أخيرًا نسمات باردة هبت عليهما وهما يهبطان درجات السلم الخارجية، بعد أن أغلق رؤوف بابها بالقفل وامتحنه أكثر من مرة .

وقابلهما الجبل صامتًا.. موحشًا.. قارس البرد.. ومع أن القمر كان يرسل ضوءه قويًا على صفحة التلال المترامية وعلى قممها المتناثرة هنا وهناك، إلا إن الجوانب المظلمة لقمم التلال كانت تزيد من رهبة الطريق خلال سيرهما متلاصقين يستحثان الخطى إلى المرصد.. وقطع كامل الصمت يسأل رؤوف، وهو يدفئ يديه بحكهما معًا :

. لم تخبرني يا رؤوف.. هل بدأ والدك في استعمال مسحوق أبو الدهب؟

. أجل.. منذ أحضرته إليه .

وقال وخطواتهما تطرق الحصى :

. وكيف حاله؟

أجاب رؤوف :

. بدأ يعاني مغصًا شديدًا منذ صباح الأمس على ما أذكر.. وإن أخبروني اليوم حينما اتصلت بهم تلفونيًا بأنه قد هدأ قليلًا بعد أخذه لبعض المسكنات .

. يبدو أنها علامات على قرب نزول الحصوة .

فأجاب رؤوف :

. ربما.. أو قد تكون ...

ولكن بقية الكلمات تجمدت في حلقه، فقد مزقت سكون الليل في هذه الأثناء صرخة طويلة حادة أقبل صداها من اتجاه فيلًا الدكتور حليم، صرخة تمثل أبشع آيات الرعب .

t.me/qurssan

على أن السكون سرعان ما عاد يخيم من جديد، وقد تسمرا في مكانهما .

وتمتم كامل :

. هذا صوت الأستاذ رشاد .

واعترض رؤوف همسًا :

. مستحيل !

ولم يُضف أحدهما كلمة وإنما انطلقا يعدوان في اتجاه استراحة المرصد. وحين بلغاها لاهثَين، وجدا المكان كله مظلمًا صامتًا، وتوالت طرقاتهما حتى أيقظا المشرف على الاستراحة، على أنهما حين تفقدا معه حجرة الأستاذ رشاد، ولم يكن سواه ينزل بالاستراحة في هذه الليلة، وجداها خالية، لم يُمَس فراشها .

وفي عجلة اشترك مع الرجال الثلاثة في البحث عن الأستاذ المفقود عاملان من عمال المرصد أيقظتهما الجلبة.. كما انضم إليهم عم نور الحارس النوبي. وطال التجوال بالفوانيس بين جنبات الجبل، حتى عثروا عليه أخيرًا، ملقى في أخدود واطئ يبعد عن مبنى المرصد الرئيسي في اتجاه فيلَّا الدكتور حليم، المختفية عن الأعين وراء التل المنحني .

واقترب الصديقان مسرعين من جثمان الأستاذ، الذي حُمل إلى أعلى الأخدود وأُرقد على الأرض. كان الرجل ينزف بغزارة من جرح غائر في رأسه، وقد بدا في حالة يرثى لها من التمزق، واختلج جسده بقسوة ثم بصق كمية من الدم الأسود وهو يئن في حشرجة أليمة. وهمس أحد الرجال :

. لقد انحرف في سيره فسقط في الهوة دون أن يراها .

وأضاف رجل آخر :

. ويبدو أنه ظل يتقلب في سقطته لفترة طويلة حتى تمزقت ملابسه على هذه الصورة المفزعة .

t.me/qurssan

ولكن كامل لاحظ شيئًا غريبًا وسط التعليقات المختلفة التي سمعها، فقد كانت نظرات الرجل المحتضر مثبتة في قوةٍ بالرغم من وهن صاحبها، في اتجاه فيلًا الجبل.. نظرات يائسة كأنها قد تحجرت على الهول بعينه .

t.me/qurssan

بعد أن استمر التحقيق قرابة أسبوع بأكمله، تم خلاله تشريح الجثة ومعاينة مكان سقوطها وسؤال الذين عثروا عليها، أصدر وكيل نيابة حلوان قراره بحفظ التحقيق لعدم توفر الأركان الجنائية. واعتبر أن رشاد مدحت، أستاذ الفلك في مرصد حلوان، قد وقعت وفاته قضاء وقدرًا. وذلك نتيجة لسقوطه المفاجئ في أخدود بالجبل خلال سيره في طريق خطأ .

ولم تُعجب كامل هذه النتيجة .

لقد كان يحس في أعماقه أن هناك حلقة مفقودة في وفاة أستاذ الفلك تحمل في طياتها ما هو أكثر من مجرد قضاء وقدر، فحسب معلوماته كان الأستاذ رشاد من العاملين القدامى بالمرصد، حيث أمضى به ثمانية أعوام رئيسًا لقسم الفلك، لذلك فهو، دون شك، على دراية تامة بمسالك الجبل في البقعة المحيطة بالمرصد والمباني الملحقة به، وأولها القبة الدائرية التي تضم مكتبه. ولا بد أنه قد سبق له سلوك الطريق بين القبة الدائرية والمرصد الرئيسي ليلًا عشرات المرات، ثم إنه اشتهر بنظره الحاد في مراقبة الأجرام السماوية من خلال المنظار، كما أنه رجل رياضي يمتاز برشاقة بدنه وقوته، كذلك فإن القمر ليلة الحادث كان في عنفوان تألقه وضيائه. فهل يُعقل بعد ذلك جميعه أن يضل الطريق فيسير هذه المسافة الطويلة في اتجاه فيلًا الدكتور حليم بالجبل دون أن يدري، ثم يسقط في الأخدود دون أن ينتبه؟ !

وأيضًا فقد تردد لأول مرة خلال التحقيق ذِكر حادثة وقعت منذ خمسة أعوام لأحد موظفي المرصد، وراح ضحيتها في ظروف مماثلة. فقد عُثر على جثة هذا الموظف بعد مرور أيام على وفاته، ملقاة في أحد الأودية القصِية المتناثرة بالجبل .

وقف كامل يتطلع من خلف نافذة المكتبة في اتجاه فيلًا الدكتور حليم بالجبل، وقد قبض على حافتها بكلتا يديه وكأنه يتحفز

t.me/qurssan

للقفز منها إلى الخارج، وكانت عيناه مسلطتين في تحدٍّ وإصرار كبيرين. إن مفتاح الكثير من الأسرار المبهمة التي جرت في الآونة الأخيرة يكمن هناك.. خلف هذه التلال الممتدة شرقًا.. وبداخل جدران معينة بالذات .

وتذكَّر كامل نظرات الرجل المحتضر.. وراح يسأل نفسه: تُرى لماذا ظلت عيناه مثبتتين في إصرار نحو الفيلَّا اللعينة.. وحتى اختفى منهما بريق الحياة؟ وقاده تفكيره فجأة في اتجاه جديد: هل ضل الأستاذ رشاد طريقه على الجبل حقًّا؟ أو تراه كان متجهًا بالفعل إلى الفيلَّا لكشف أسرارها التي، ولا بد، كانت تثير فضوله كعالم يجري وراء المجهول، فلما اكتشف سكان الفيلَّا فضوله لمعرفة أسرارهم قتلوه بإلقائه إلى قاع الأخدود، تمامًا كما سبق وفعلوا منذ خمسة أعوام مضت مع الموظف التعس الذي أُلقيت تبعة موته كذلك على القضاء والقدر؟

وعلا صوت كامل محدثًا نفسه في عصبية :

. إذن فهناك بالتأكيد ما يدور بين جدران هذه الفيلَّا، ويحرص سكانها على إخفائه عن أعين الغرباء حرصًا شديدًا يبلغ حد ارتكاب الجريمة .

وتوقف شوقي عباس، وكان يجلس قبالته في الحجرة، عن كتابة الخطاب الذي يسجله على الآلة الكاتبة، ونظر إلى كامل في دهشة وسأله :

. أكنت توجه إليَّ كلامًا؟

. نعم.. لا أبدًا .

وعاد شوقي يكمل خطابه وهو يتعجب في أعماقه من غرابة أطوار رفيقه الجديدة بالحجرة، في حين توجه كامل ليجلس إلى مكتبه ليكمل تبييض الجزء التالي من مقالته عن تاريخ الفلك في مصر، الجزء الخاص بالعلماء العرب الذين أخذ عنهم الغرب. ونجحت الأحرف المتشابكة في اجتذابه بالفعل، فقد كانت الجهود التى بذلها علماء العرب فى مجالات علم الفلك منذ أيام

t.me/qurssan

الجاهلية إلى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي جهودًا أصيلة رائعة، حفلت بالدراسات والبحوث والنظريات المبتكرة، وحفلت بالأجهزة الدقيقة المخترعة، وعلى رأسها الأسطرلاب .

ومع تحرير العرب للإسكندرية وإجلاء الرومان عنها في خلافة عمر بن الخطاب عام 641م، تحولت الثقافة فيها إلى اتجاهات جديدة، على رأسها: تحريم الإسلام لعبادة الكواكب، وتوجيه دراسات الفلك إلى الغرض العلمي البحت وإلى الكشف عن مظاهر القدرة الإلهية .

وابتداء من عام 978م، تربع على عرش الفلك في مصر أبو الحسن بن يونس المصري، الذي وضعه بعض المؤرخين على رأس علماء العرب في هذا الميدان. فقد ظلت جداوله الشهيرة، المسماة «الزيج الحاكمي»، محتلة الصدارة فيما يختص برصد الكواكب في الشرق والغرب على السواء طوال قرنين من الزمان .

وأقبل رؤوف يتسلل في هدوء.. ولمس كتف صاحبه لمسة خفيفة :

. أرى يا كامل أن تكتفي بهذا القدر من الكتابة فقد حان موعد الانصراف.. بل فات .

وتوقف كامل عن الكتابة، وفي حركة غريزية نظر في ساعته ثم تطلع في اتجاه مكتب شوقي عباس حيث كان يجلس إلى الآلة الكاتبة، ولكن رؤوف بادره :

ـ لقد قابلت شوقي وهو يهبط السلم في طريقه للخارج.. أما الساعة الآن فهي الثانية .

. هكذا بسرعة؟

. يبدو أن الكتابة قد ألهتك عن مرور الوقت .

. صدقت.. فقد أنجزت اليوم الشيء الكثير منها .

t.me/qurssan

. هل أتممت كتابة القسم الخاص بفلكيِّ مصر؟

وأجاب كامل وقد قفز بدوره وجلس في السيارة بجوار رؤوف :

. لقد بدأت.. ولم أنتهِ بعد .

. وما تعليقك على أعمالهم؟

قال في يقين :

. لا شك أنها ضخمة.. وشيقة .

واهتز الجالسون بالسيارة إثر مرورها على ثغرة في الطريق نتجت عن تآكل أسفلته، ثم عاد الجالسون يستردون أنفاسهم بعد أن استقرت السيارة في مسيرها، وإن صاحبتها أنَّات خافتة راحت تتصاعد من هيكلها القديم .. وتابع رؤوف وهو يتأرجح مع تأرجح السيارة :

. وهل كتبت شيئًا عن أبي ريحان محمد بن أحمد البيروني؟

أجاب كامل وهو يتشبث بمقعده ليحفظ توازنه :

. بالطبع .

قال رؤوف مزهوًّا :

. لديَّ كتاب عن حياته وأعماله.. وقد قرأته فأعجبتني مؤلفاته في علم الفلك .

وأمَّن كامل على كلام صاحبه :

ـ من الثابت فعلًا أن لدينا علماء كبارًا في الفلك والتنجيم والرياضيات .

وتهيأ السائق للتوقف قبالة مسكن كامل لكنه هتف به :

. بل استمِر في طريقك إلى ميدان المحطة يا شندي، فإنني أزمع النزول هناك .

t.me/qurssan

وأمام المحطة غادر الاثنان السيارة، وحتى يحين موعد قيام القطار المفتخر الذي لا يتوقف إلا بمحطة المعادي في طريقه من حلوان لباب اللوق، وقف الصديقان ليحتسي كلٌ منهما زجاجة من المياه الغازية، وتساءل رؤوف :

. هل هناك أخبار جديدة عن الفتاة؟

فأجاب كامل بعد أن تناول جرعة كبيرة من السائل البرتقالي الذي تضمه زجاجته :

. أبدًا .

. ولا العربة؟

. ولا أثر للعربة .

مطَّ رؤوف شفتيه :

. ظننت أنك ستقلب الدنيا رأسًا على عقب.. على الأقل من أجل لقائها مرة أخرى .

وهمس كامل وقد أثيرت مشاعره برغمه فلم يحاول إخفاءها :

ـ لا أخفي عليك فإنني جد مشغول بأمرها.. أكثر من انشغالي بحادثة العربة .

. هذا واضح .

واسترسل كامل :

. وأحس لهفة تتزايد بمرور الوقت على رؤياها .

قال رؤوف ساخرًا، وهو يعيد الزجاجة الفارغة للبائع :

. ولِمَ لا تذهب إليها لتراها؟

. أين؟

ابتسم رؤوف :

t.me/qurssan

. في فيلَّا والدها أو عمها.. بالجبل .

كرر كامل الكلمات :

. بفيلَّا والدها أو عمها بالجبل.. أجل.. لماذا لا أحاول.. ولكن أهي هناك حقًّا؟

تضايق رؤوف من استجابة صديقه للمزحة التي أطلقها على غير قصد، فقال مستدركًا، وهو يقبض على ذراع كامل :

. إياك أن تصدق وتذهب إليهم بقدميك.. فمن يعلم ربما أصابوك بسوء .

على أن كامل ظل متشبثًا بالفكرة الطارئة، وقد وجد في تنفيذها الحل المنشود والإجابة عن كثير من الأسئلة التي كانت تدور في رأسه دون أن تجد الجواب. وحين دوى جرس المحطة، وودع صديقه بإحدى عربات القطار وغادر المبنى العتيق، المزدحم بالناس، آخذًا طريقه إلى السوق، فإنه كان يردد في أعماقه باقتناع كبير أن الحل الوحيد لرؤية «ز» هو أن يذهب إلى هناك.. إلى حيث تستقر الجدران الداكنة في حضن الجبل.. بعيدًا عن أعين الرقباء.. فإما أن يجدها، وإما أن يبدأ البحث عنها من جديد في مكان آخر .

*

كانت ساعة معصمه تشير، تحت ضوء القمر الساطع، إلى الحادية عشرة والنصف مساءً، وهو يأخذ طريقه في خطوات ثابتة مبتعدًا عن مبنى المرصد في اتجاه تلال المقطم الشرقية. ولم يكن يسير في خط مباشر إلى الفيلَّا.. وإنما انحرف في سيره باتجاهٍ يميل إلى الشمال الشرقي قليلًا، بحيث يصل في خط منحنٍ إلى أعلى التلال المطلة على الفيلَّا شمالًا، فإذا ما اطمأن لهدوء المكان هبط إليه يتفقده .

وفيما عدا عواء الذئاب عن بُعد، فقد كان الجو رائعًا، وكان منظر التلال تحت أشعة القمر ساحرًا، وعلى عكس الأيام السابقة، لم

t.me/qurssan

يكن مرأى الجوانب المظلمة في الجبل يثير كآبته، وإنما كان يرى فيها مواطن أمن قد يلجأ إلى أحدها إذا ما دعته الحاجة للاختباء فرارًا من مطارديه. وكان كامل يرتدي ملابس خفيفة، وقد استعاض عن المعطف بارتداء صدريتين ثقيلتين فوق قميصه الصوفي، كما تلفَّح بكوفية من وبر الجمل المخلوط بالحرير، وانتعل حذاء ثقيلًا من ذوي الرقبة، وسلح نفسه بمطواة حادة وعصاة قصيرة من الخيزران .

وبعد مسيرة نصف الساعة تقريبًا، وبعد أن تسلق تلَّين أو ثلاثة، وجد عينيه تطلان في النهاية على الفيلَّا القابعة في أسفل دون أن تبدو منها بادرة حياة .

وبدا شكل الفيلَّا، وقد اتضحت معظم جوانبها تحت ضوء القمر، مختلفًا عما كان يراه منها عن بُعد. كانت تتكون من طابق واحد يضم عددًا كبيرًا من الحجرات لا يمكن تبيُّنه من الخارج، وكانت الفيلَّا بكاملها تلتصق في سفح الجبل وكأنها تلتمس حمايته من الخلف. وعدا مجموعة من الحظائر المتراصة على طابور طويل امتد بطول جانب الفيلَّا الشمالي، ومجموعة متناثرة من أشجار الكافور، والجازورينا العالية، وبعض الأشجار الأخرى الأقل ارتفاعًا امتدت في أنحائها الجنوبية، فلم تكن الحديقة المتسعة التي يحدها سياج حديدي خفيض تحوي سوى بضعة أحواض مربعة للزهور، تُركت في غير عناية، وممر عريض من البواكي تشابكت عليه أفرع نوعٍ من المتسلَّقات يمتد إلى منتصف المسافة من البوابة الوحيدة بالسياج إلى باب الفيلَّا مباشرة .

وفي سكونٍ هبط كامل من أعلى الجبل .

ووقف خارج السياج، فيما يجاور الحظائر، يراقب الحديقة من خلال قضبانه حادة الأطراف، ثم استجمع قواه وتسلق السياج، وقفز ليصبح إلى جانبه الآخر وسط أحد أحواض الزهور. على أن قدميه ما كادتا تستقران على الأرض حتى أحس حركاتٍ غير عادية تدور في خفوت داخل الحظائر، تبعتها همهمة اختلطت بما يشبه النباح والصفير الحاد. وأسرع كامل باللجوء إلى الطرف

t.me/qurssan

الآخر من الحديقة مخافة أن تجتذب الأصوات المتصاعدة من الحظائر سكان الفيلّا، فيكتشفوا وجوده .

لكن الصمت عاد يخيم من جديد، حتى التقطت أذناه صوتًا مكتومًا لامرأة تنتحب، فدار مع جدران الفيلّا المظلمة نحو الجنوب، ولاحظ شعاع ضوء رفيعًا يتسلل عبر إحدى النوافذ لينطبع على ساق شجرة مقابلة .

أهي الفتاة ذات الضفيرة التي تبكي؟ وتعالت في هذه اللحظة طرقتان على باب الحجرة المختفية معالمها عن بصره، فتوقف النحيب، وأحس بحركة عَجْلى خافتة، كأن المرأة تكفكف دموعها .

وهفهف صوت رقيق يهمس :

. مَن؟

وسمع إجابة بعيدة :

. أنا حليم.. افتحي .

وشب كامل على قدميه وقد غلبه الفضول ليتبين معالم الشخص القادم، ولكنْ لم تكن هناك ولو فرجة يسيرة في الستارة السميكة المسدلة من الداخل. اللهم سوى الفتحة الصغيرة العلوية يتسلل منها شعاع الضوء إلى الخارج، والتي لا يمكنه الوصول إليها للنظر من خلالها .

وتعالت خطوات لِقَدم دقيقة، وفُتح الباب ليزداد صوت الرجل القادم علوًّا :

ـ ألم ترتدِ ثياب العمل بعد يا زين.. لقد أوشكت العربة على القدوم .

إذن فهي نفس الفتاة ـ التي قابلها في «سوق الست خضرة» ـ فاسمها يبدأ بحرف «ز».

وسمع القادم يتكلم في لهجة جافة بعد أن تبين آثار البكاء في

t.me/qurssan

عينيها على ما يبدو :

. أكنتِ تبكين ثانية؟

ولم تُجبه مباشرة، وإنما قالت بعد برهة في ضراعة :

. لقد وعدتني يا عمي بعدم إشراكي في تجربة أخرى .

إذن فالدكتور حليم عم الفتاة كذلك .

وأجاب الدكتور وقد خفف من لهجته قليلًا :

ـ آسف يا عزيزتي فلم أجد بعد من يحل محلك في تسجيل تجاربي .

وتضرعت مرة أخرى :

. أرجوك يا عمي .

فقال :

. إنني جاد في البحث.. وقد وعدتك بإعفائك بمجرد العثور عليه .

وأحس كامل على حين غرة بكل ذرة في كيانه تتحفز للنضال، فقد تسلل إلى أذنيه في هذه اللحظة صوت انطبع حادًا في ذاكرته، يُقبل في جلبة من اتجاه المرصد.. إنها العربة .

بينما اتضح صوت ثالث من وراء النافذة يعلن في خضوع :

. لقد أقبلت العربة يا دكتور .

وسرعان ما اكتسب صوت الدكتور حليم لهجة آمرة، تعوَّد صاحبها على أن يطيعه الآخرون :

. سوف أتركك يا زين لأشرف على تفريغ حمولة العربة.. على أن تلحقيني بثياب العمل في المعمل على الفور .

ولم ينتظر كامل لسماع المزيد، فاندفع يبحث لنفسه عن مكان مستتر يختبئ فيه، ويراقب منه قدوم العربة في نفس الوقت.

t.me/qurssan

وفُتح باب الفيلّا في هذه الأثناء، وخرج منه رجل قصير في جلباب أبيض أسرع خلال ممر البواكي، ثم خلال فسحة الأرض المكشوفة أمامه، حتى وصل إلى البوابة الضخمة في السياج وفتحها للعربة القادمة .

مرت العربة من البوابة وهي تثير زوبعة من الأتربة، حتى وقفت دفعة واحدة مولية جزءها الخلفي لمواجهة الممر الظليل. وكزَّ كامل على أسنانه: أجل إنها نفس العربة ومقيد إليها نفس الجوادين، ويقودها نفس السائق، وإن تراءى له هذه المرة في ذروة نشاطه . وفتح السائق الباب الخلفي للعربة، ثم تعاون هو والرجل القصير في حمل صندوق مستطيل تبين كامل معالمه تحت أشعة القمر، فإذا به يشبه التابوت. وسار الرجلان بحملهما الثقيل في بطء تحت البواكي، باكية بعد أخرى، إلى أن وصلا إلى باب الفيلّا الذي كان يرتفع بحوالي ست درجات .

وشاهد كامل شخصًا متوسط الطول ينتصب عند فتحة الباب، ولسطوع الضوء من الداخل فيما وراء ظهر الرجل، لذلك فقد بدا وجهه مظلمًا فلم تتضح معالمه، وإن استنتج كامل من وقفته المتصلبة الواثقة أنه لا بد أن يكون هو الدكتور حليم بعينه، خاصة وأنه كان يشرف على صعود الرجلين درجات السلم بالتابوت في يقظة وحرص شديدين، حتى اختفى ثلاثتهم، وبرفقتهم ذلك التابوت، بداخل الفيلّا، تاركين بابها مفتوحًا على مصراعيه .

وكان الإغراء أكثر مما تحتمله أعصابه التي أثقلها الفضول. إنها فرصة ثمينة أُتيحت له ليرى ما يدور بالداخل.. وليرى الفتاة عن كثب.. ووجد قدميه تقودانه، وقد فقدَ سيطرته عليهما، إلى الباب، ليتسلل منه إلى ردهة بالغة الصغر، يضيئها فانوس معلق. ولكنْ بغتةً أصابته ضربة عنيفة على مؤخرة رأسه، فسقط غائبًا عن الوعي .

وخلال نصف ساعة تالية، أُخرج جسده الساكن من الفيلّا وحُمِّل على مقدمة العربة، بجوار السائق الذي انتصب يُلهب ظهرَي

t.me/qurssan

جواديـه بسـوطه الطويـل، فـانطلقا يسـابقان الـريح عبـر بوابـة السياج. ولم يستمر الجوادان في عَدْوهما المحموم طويلًا، فما كـادا يقتربـان مـن مشـارف المرصـد الخلفيـة، حتـى توقفـا همـا والعربـة دفعـة واحـدة فـي احتكـاك شديد على حصى وأحجار الطريق أثار عاصفة من الأتربة. وهبط السائق من العربة وحمل الجسـد علـى كتفـه وسـار بضع خطوات حتى اقترب من حافة الجبل، ثم ألقى به إلى الأخدود المظلم تحته، وهو يطلق ضحكة عالية مجنونة .

ثم عاد فقفز إلى العربة، واستدار بها ثانية في اتجاه فيلَّا الجبل .

t.me/qurssan

7

انكمش الحارس النوبي وراء التبة البارزة في نهاية السور الشمالي للمرصد، يحتمي من لسعات الريح التي راحت تزأر بطول قمم الجبل في دفعات متلاحقة، وكأنها موجات بحر صاخب تتكسر على شاطئ عنيد .

ودفع الحارس العجوز باللفافة القصيرة التي لفها بيده إلى فمه، يأخذ منها نفَسًا عميقًا، علّه يدفئ صدره وقد تسلل البرد القارس في أنحائه فأخذ يلهث ولم يبذل أي مجهود، اللهم إلا حمل هذه البندقية فوق ساقيه المتيبستين، ومقاومة النعاس الذي بدأ يداعبه من طول السهر .

بالرغم من وجود القمر معلقًا صغيرًا في الأفق الغربي، وبالرغم من اتضاح أولى لمسات الفجر الوليد من وراء التلال في الأفق الشرقي، فإن الضباب المخيم في هذه الساعة المبكرة من اليوم التالي أطلق غشاوة ثقيلة على عينَي الحارس الناعستين، فلم يلحظ الشبح الزاحف على بُعد أمتار يسيرة من مجلسه .

على أن حواسه تيقظت فجأة، فراح يرهف السمع في عصبية حين تناهى إليه صوت أنين مكتوم، مصحوب بتكسر حبات الرمل تحت وطأة شيء ثقيل يمر عليها .

. مَن هناك؟

ولم يُجب أحد نداء الحارس، فقط توقف صوت تكسُّر حبات الرمل، وتوقف الأنين، وعاد الحارس يكرر صياحه وقد استقر إصبعه على زناد البندقية :

. مَن الذي يسير هناك؟

ومن بين سحابة الضباب المنتشرة، طالعته الصورة الغريبة والتقطت أذناه الهمسات الواهنة .

. أنا كامل يا عم نور .

t.me/qurssan

وتساءل الحارس بدهشة :

. ماذا تفعل هنا يا أستاذ كامل في مثل هذه الساعة من الفجر؟

وأجابه الجسد المترنح :

. لقد ضللت الطريق.. في الجبل .

. ولكنك جريح.. أرى جبهتك وذراعك تدميان.. بالله ماذا حدث لك يا سيدي؟

. سقطت في حفرة عميقة.. هوة .

. أين؟

ولوح كامل بذراعه في صعوبة تجاه الشمال وهو يقول :

. لا أدري.. في مكان ما هناك .

وأحس الحارس بمبلغ ضعف الرجل الواقف قبالته، فقال له وهو يحتضنه ويهم باقتياده نحو مبنى المرصد :

. المهم الآن أن تستريح قليلًا وتضمد جراحك.. هيا إلى المرصد .

على أن كامل أصر على مواصلة السير دون توانٍ إلى حيث يسكن، بالقرب من نهاية طريق المرصد، غير آبهٍ لاعتراض الحارس ولا لإصابته وشدة تعبه .

وخلال ساعة من الزمان تمكن من الوصول برفقة عم نور إلى البيت، ودون أن يلحظهما أحد استطاعا التسلل إلى حجرته في سكون .

*

تُرى هل للشر علامات تسبقه وتدل على قرب حدوثه.. علامات مادية كانت.. أو روحية؟

علامات يستطيع الإنسان بأحاسيسه أن يراها ويلمسها.. مثلما تحس جماعات الطير الهاربة قرب هبوب العاصفة، أو مثلما ترى

t.me/qurssan

حيوانات الغاب ما ينبئها بقرب وقوع هزة أرضية؟

هل للشر علامات، ولتكن غامضة.. مبهمة.. ولكنها تشير في إصرار إلى أن شيئًا كئيبًا.. سوف يقع؟ وتساءل كامل وهو في فراشه: كم من الوقت استغرق في النوم حتى أيقظه الحلم البغيض، ذلك الحلم الذي أحس خلاله بالعجز وقلة الحيلة بصورة قاسية لم يألفها في واقعه؟

وماذا كان في مقدوره أن يفعل لإنقاذ الفتاة من يدَي الدكتور حليم الفولاذيتين وهما تطبقان على عنقها البضة وتعتصرانها حتى تصير هشيمًا، بينما هو مقيد بهذه السلاسل الغلاظ الثقيلة إلى الجدار؟ ماذا كان في مقدوره أن يفعل ليَحُول دون قتلها، وكل حركة تصدر منه كانت تزيد من انغماس القيد اللعين في جسده وقدميه؟

وود لو يصرخ في طلب النجدة فتُردد جنبات الجبل صدى صرخاته، ولكنْ حتى الصرخات احتبست في حلقه وكادت تخنقه .

ووسط صراعه اليائس مع قيده.. والصرخات المختنقة تسد الهواء إلى رئتيه.. استيقظ أخيرًا وكل خلية في جسده ترتجف.. واحتواه انقباض مبهم .

وحين فتح عينيه ووجد الحجرة تسبح في الظلام، عاد يحاول تقدير الوقت الذي استغرقه في النوم، ومد أصابعه ينير الأباجورة، ولكن النور أبى أن ينتشر عن طريقها .

ولا يدري كامل كيف سمعت السيدة فردوس نداءه الخافت لتُقبل مسرعة حاملة إليه لمبة الجاز وهي تقول مفسرة :

. إن الكهرباء مقطوعة عن المنطقة منذ ساعة تقريبًا .

واستفسر بينما هي تعلق اللمبة على مسمار بالجدار :

. كم الساعة الآن يا ست فردوس؟

t.me/qurssan

. لقد غربت الشمس منذ دقائق قليلة .

. إذن فقد نمت ما يزيد على إحدى عشرة ساعة .

قالت وكأنها تصور شيئًا مألوفًا :

. يبدو أنك يا أستاذ كامل قد سهرت الليلة الماضية.. في الكتابة.. أكثر من اللازم .

أجاب مؤمِّنًا بسرعة :

. فعلًا.. ظللت أكتب حتى الفجر .

وتركته السيدة لتُعد شيئًا يأكله، تركته وحده وسط الضوء الخافت، ويبدو أن تيارًا خفيفًا من الهواء المتسرب قد مر باللمبة، فتململت ذبالة الضوء ببطء.. وتحركت معها الظلال باتساع الجدران الباهتة.. وخُيل له كأن المكان يعج بالأشباح المتطلعة إليه في سخرية، وبدا له أن الجو الثقيل الذي يحيطه ملائم تمامًا لوقوع ما هو غامض.. ومثير.. وصح ما توقعه سريعًا .

. بالباب زائر يريد رؤياك يا أستاذ كامل .

وتساءل في قلق :

. مَن؟

. شخص لم أره من قبل .

. ما اسمه؟

وتعالى صوت قوي يحتويه الظلام من خلف السيدة :

. أنا دكتور حليم .

وساد الصمت.. وتجمدت الحركة.. ومرت دقيقتان طويلتان .

وانسحبت السيدة في سكون، على حين تقدم الدكتور بهدوء إلى الداخل، وغادر كامل الفراش، ثم خطا خطوتين ومد يده يزيد من ضوء اللمبة. ووقف الرجلان متقابلين خلال دقيقة أخرى، يتفرس

t.me/qurssan

كلٌ منهما في الآخر بحدة تحت الضوء المصفر المباشر، واتضحت ملامح الدكتور كآخِر ما كان يظن كامل .

كان وجهه مستديرًا مكتنزًا يميل إلى الحمرة، وكانت عيناه نفاذتين، وجبهته عريضة وأنفه انسيابيًّا شامخًا، وأما فمه فكان يكوِّن خطًّا رفيعًا لا شفتين له .

والغريب أن رأسه إلى عنقه لم تكن به شعرة واحدة نامية، لا حواجب ولا رموش ولا شارب، اللهم سوى خط رفيع من الزغب الأشيب امتد خلفًا فيما بين أذنيه .

كما بدت هناك آثار حروق طفيفة حول عينه اليسرى وجزء من جبهته وأذنه بامتدادها، على أن الصلعة.. وآثار الحروق.. لم تكن لتخفي وسامة الرجل وتناسق قامته.. ولم تكن لتقلل من عمق الكبرياء ولمعان الذكاء المشعين من حدقتيه .

إذن فهذه هي صورة الدكتور حليم على حقيقتها .

ويبدو أن الرجل قد لاحظ تركيز نظرات كامل على آثار الحروق بوجهه، فقال وهو يشير إليها :

. هذه الحروق حدثت منذ عشرين سنة.. نتيجة لانفجار كمية من الغازات خلال تجربة كنت أجريها بمعملي .

ولم يعثر كامل على كلمات مناسبة فتمتم :

. إنها ليست واضحة .

ولكن الدكتور تجاهل كلماته وتابع :

. ومن يومها لم ينبت الشعر في رأسي ووجهي قَطُ.. كان تأثير الانفجار قويًّا على بصيلات الشعر .

ثم سكت فعاد الصمت يخيم من جديد، وأراد كامل أن يخرج من جموده فلوح بيده مشيرًا إلى أحد المقاعد، وقال :

. آه.. نسيت أن أطلب منك الجلوس.. تفضل يا دكتور .

t.me/qurssan

. شكرًا.. أفضل الوقوف .

وهمس كامل وقد استعاد سيطرته على أعصابه :

. كما تريد .

أشاح الدكتور برأسه إلى الوراء وتقدم ليتفحص محتويات الحجرة :

. بالطبع أنت تتساءل الآن، يا أستاذ كامل، عن الغرض الكامن وراء زيارتي المفاجئة هذه لك .

. فعلًا.. إنه نفس ما يجول بخاطري .

وتابع الدكتور :

. آه.. بديع.. إن السبب بسيط. لقد رأيت أن أضع حدًّا لما يدور بين كلينا في الخفاء.. لا سيما وكلٌّ منا يحتاج للآخر .

وكرر كامل الكلمات :

. ما يدور في الخفاء.. ماذا تعني؟

استدار الدكتور يواجه كامل ويشير إليه بإصبعه :

. ألم تحاول استقاء المعلومات عن أعمالي ومعيشتي.. ألم تتتبع أخباري.. حتى أصبحت تعرف عني الكثير من قبل أن نلتقي؟

. أظن ذلك .

. تعجبني صراحتك.. وأنا أيضًا فعلت نفس الشيء حيالك حينما علمت بتنسمك أخباري .

. لم أكن أعرف أنك ورائي .

وقطب الدكتور جبينه :

. ما المانع؟ تمامًا كما كنت أنت ورائي .

. وكيف عرفت؟

t.me/qurssan

ابتسم الدكتور :

. آه.. لي طريقتي الخاصة لمعرفة ما يدور حولي.. ثم إنني طبيب باحث.. وطبيعة عملي تثير فضول الكثير من المتطفلين .

وانحنى الدكتور وركز نظراته على كامل في سخرية وهو يضيف ببطء :

. وقد يحاول أحد المتطفلين أن يتسلل إلى مسكني بالجبل لمعرفة المزيد.. ومثل هذا الشخص يلقى ترحيبًا خاصًا يليق به .

فهم كامل ما يرمي إليه الدكتور حليم، فبادر يسأله في خبث وهو ينفث دخان لفافته في وجهه :

. ترحيب من أي نوع؟

ورد الدكتور بسرعة وكأنه ينفي ما يشينه :

. يسلَّم للبوليس فورًا .

. أو يُبعد عن المنطقة بطريقةٍ ما؟

. بل إنني أكتفي بتسليم المتطفلين إلى البوليس.. ومن أجل ذلك لا بد أن تكون لي عيون يقظة وآذان مرهفة وأذرع قادرة على الاستجابة.. أليس كذلك؟

. وهل بحوثك من الخطورة يا دكتور بحيث تستدعي كل هذه السرية؟

. إنها ليست سرية بقدر ما هو تفرغ وانقطاع من أجل هدف سامٍ.. وأنا لا أخفي عليك أن بحوثي وتجاربي بالفعل بالغة الأهمية.. ومن أجلها بالذات أتيت إليك .

ووقف كامل يقدم لفافة لضيفه الغامض، الذي اعتذر بأنه يدخن البايب فقط، فاكتفى بإشعال واحدة لنفسه واستدار يسأل الدكتور فجأة :

t.me/qurssan

. والآن ماذا تريد مني بالضبط يا دكتور حليم؟

أجاب الدكتور حليم ببساطة :

. أريدك أن تعمل معي .

وفوجئ كامل مفاجأة ضخمة :

. معك أنت؟

. ولِمَ لا؟

. في ماذا؟

. فيما أجريه من بحوث .

واقترب الدكتور من كامل وجذب كرسيًا من الخيزران جلس عليه قبالته :

. اسمع يا أستاذ كامل.. إن بحوثي وتجاربي ودراساتي تحتاج على دقتها وتسلسلها إلى تسجيل واعٍ وأمين.. وقد كنت أقوم بأداء هذه المهمة بنفسي، حتى حدث ذلك الانفجار في المعمل، فأثر على أعصاب يدي اليمنى فضعفت قدرتها على الكتابة.. ومن يومها أصبحت ابنة أخي هي البديلة لي في كتابة هذه التقارير.. غير أن ابنة أخي تعاني بدورها في الآونة الأخيرة انهيارًا جسمانيًا يجعل الكتابة بالنسبة إليها عملًا شاقًا يرهقها.. ولقد بحثت طويلًا عمن يغني عن كلينا.. فلم أجد أمامي من هو أصلح منك.. فهل تقبل العمل معي؟

. أنا؟

. أجل أنت.. وسأعطيك المرتب الذي تطلبه .

وقف كامل وقال وهو يلوح بكلتا ذراعيه :

. إن المادة لا تهمني يا دكتور.. ولكني أتساءل: ما الذي جعلك تختارني أنا بالذات؟

t.me/qurssan

وانتصب الدكتور بدوره :

. لأنك تضم مزايا عديدة.. فأولًا أنت لست من أهالي حلوان ولا مصالح لك فيها.. وثانيًا أنت صحفي.. وأديب.. لا ينقصك الفضول ولا تعوزك القدرة على الكتابة.. ثم أيضًا هناك ميزة أخرى مهمة فيك .

. ما هي؟

. الطموح.. فقد قرأت لك بعض كتاباتك وآخرها رواية «الأبواب السبعة».. وهي كلها دون استثناء تتميز بطموح أبطالها وقدرتهم على تحقيق طموحهم .

وضحك كامل ساخرًا :

. بقي أن تضيف إلى مميزاتي الشجاعة.. والذكاء .

. هما فعلًا لا ينقصانك .

واستشاط كامل غضبًا فصاح يُسكت ضيفه بنظرة قاسية :

. كفى.. أرجوك يا دكتور.. إنني لست ممن تخدعهم الكلمات المعسولة .

ولكن الدكتور همس في براءة :

ـ ولِمَ أخدعك.. إنني أرى فيك حقًّا كل هذه المميزات.. ولذلك أعرض عليك العمل معي وبالمرتب الذي تقدره أنت .

. ولكني لست ...

وقاطعه الدكتور في أدب :

. لا.. لا أريد أن تصدر حكمك الآن.. إنني أمهلك يومًا كاملًا حتى مساء الغد لتفكر خلاله بحرية قبل أن تصدر قرارك النهائي.. وآمل أن يكون هذا القرار بالعمل معي .

وراقت الفكرة لكامل :

t.me/qurssan

. سيكون لديك قراري في مثل هذه الساعة من مساء الغد .

. هل أرسل أحدًا من طرفي إليك في المرصد؟

. لا داعي.. سأجيئك إلى الفيلَّا بنفسي .

ودخلت السيدة فردوس حاملة صينيتها الفضية وعليها قدحان من الشاي بالنعناع قدمتهما لهما. وأمسك الدكتور بالقدح وراح يستمتع بشم الرائحة المتصاعدة منه فترة، ثم تناول جرعة كبيرة من الشراب الساخن وقال وهو يبتسم :

. بقي شيء يا أستاذ كامل أود أن أصارحك به .

رشف كامل بدوره رشفة من قدحه :

. خيرًا؟

. إنني أشترط للعمل معي شرطًا واحدًا .

. ما هو؟

. أريد منك إقامة دائمة في فيلَّا الجبل، فيلَّتي، لحين أن أنتهي من بحوثي القائم بها حاليًا، حتى تتفرغ لعملك كُلِّيَّة.. ثم إنني حريص على ألا يطلع أحد سواك على أسراري وإن كانت لا تحوي ما أخافه .

وقلب كامل شفتيه :

. إذن فأنت لا تثق بي .

وأسقط الدكتور قدح الشاي فوق طبقه بصوت عالٍ :

. لا دخل للثقة هنا يا عزيزي.. فلو لم أثق بك لما طلبت التعامل معك.. وأنا فقط ألتزم بمبدأ الحرص في كافة أعمالي.. خاصة العمل الكبير الذي يحتويني هذه الأيام .

. معنى ذلك أنني قد أضطر إلى الإقامة معك عامًا بأكمله أو عامين أو ما يزيد .

t.me/qurssan

. لا، اطمئن يا أستاذ كامل فإن الأمر لن يطول كما تتصور.. فإن بحوثي في نهايتها .

ورد كامل باقتضاب :

. فهمت.. إذن سأضع هذا الشرط في اعتباري .

ويبدو أن الدكتور حليم قد لاحظ ضيق مضيفه وتبرمه من الشرط الذي قيده به، فاقترب منه وهمس له في حنوٍّ لا يتفق مع مظهره الجاد :

ـ سوف تقنعك الأيام يا أستاذ كامل بأهمية أفكاري بالنسبة للجنس البشري.. بأسره .

. أرجو ذلك .

ودون أن يسمع كامل أي صوت انتصب الدكتور بغتة وأرهف سمعه ليقول في عجلة :

. هذا نفير السيارة التي استأجرتها.. لقد عاد السائق ليقلني إلى الفيلّا.. أستأذنك يا أستاذ كامل في الذهاب .

. هكذا بسرعة قبل أن تضاء الكهرباء؟

وعاد الجمود يغزو وجه الدكتور الوسيم :

. لا داعي.. إنني متعوِّد على أضواء الفوانيس والشموع. فيلّتي لا تضاء بالكهرباء .

. آسف.. لم أكن أدري .

. لا عليك.. والآن إلى الغد وسأكون في انتظارك .

. إلى الغد .

ومن غير أن يتصافحا، غادر الدكتور الحجرة واختفى في الممر المظلم. وخلال دقائق تالية.. وبدون انتظار.. سطع في الحجرة ضوء الكهرباء القوي.. فهل انتهت مهمة الظلام بذهاب الدكتور

t.me/qurssan

صاحب فيلّا الجبل؟ وهل كان حلول الظلام طوال فترة تواجده نذيرًا مستترًا على وجود الشر؟

نحّى كامل هذه الخواطر البعيدة عن المنطق، فقد كانت الكهرباء مقطوعة عن المدينة بأسرها، وليس ما حدث سوى مجرد مصادفة .

وقدمت السيدة فردوس تدعوه هذه المرة لتناول طعامه في حجرة المائدة الداخلية، وخلال ربع ساعة انتهى من تناوله بشهية ضافية، وفي نشاط زائد عاد إلى حجرته يبحث عن شيء بين كتبه، وعثر أخيرًا على الكراسة الضخمة التي كان يبحث عنها، وفتح أولى صفحاتها، وكتب بقلمه الأحمر وبخط كبير :

مذكراتي في فيلّا الدكتور حليم

t.me/qurssan

القسم الثاني

الترويض

1

الجمعة 19 يناير 1951

حين اتخذت قراري، في ساعة متأخرة من مساء الأمس، بأن أعمل مع الدكتور حليم، كنت أعرف أنني، بهذا القرار، أخالف كل تفكير سليم ينأى بي عن موطن أكيد للخطر.

صحيح أنني رياضي متناسق البدن، وأُجيد إلى حدٍّ ما النزال بالمصارعة اليابانية «الجودو»، ولكن ماذا تفيد قوتي أمام دهاء الدكتور حليم وكثرة مساعديه؟

على أن علمي بوجود أي نوع من الأخطار لم يكن ليثنيني عن اتخاذ قراري بانتهاز هذه الفرصة لأكون على مقربة من الدكتور الغامض، حتى أطَّلع على أسراره وأُشبع فضولي الصحفي بحقيقة تجاربه، ولأمد يد العون إلى ربيبته، التي ما زلت أحس بأنها تعيش حياة مهددة داخل المسكن الشاذ الراقد في الجبل. ولكن من هو الدكتور حليم الذي أراني مسوقًا إلى تياره بكل جوارحي؟ من هو الدكتور الذي لا ينبت الشعر في وجهه حتى رموش عينيه؟ أهو محتال خطير يتستر تحت رداء الطب وخلف ما يملك من نفوذ وجاه وصِلات مريبة بكبار القوم في المدينة؟ أم تراه أفَّاقًا أراد استغلالي على صورة من الصور لم تتكشف بعد لي؟ أهو حقًّا، كما يدعي وكما بدا لي في شرود نظراته وكبرياء قسماته، عالمًا عبقريًّا ستهز أفكاره الدنيا عما قريب؟

من هو حليم صبرون الإنسان البشر وليس الطبيب الباحث؟ لقد استطعت أن أجمع عنه بعض الحقائق من شتات ما سمعت، فعرفت أنه سليل إحدى الأسر الألبانية الفقيرة، وقد هاجر والداه منذ أكثر من ربع قرن إلى مصر.. وبموتهما، تربى الصغير حليم في كنف أحد الباشوات من أثرياء الإسكندرية حتى كبر وتزوج من

t.me/qurssan

ابنة الباشا.. ثم سافر معها إلى أوروبا لاستكمال دراسة الطب التي تعلق بها.. ولكن الزوجة ماتت بالخارج في ظروف مريبة، وحين عاد حليم إلى مصر ليزاول مهنته في الإسكندرية، فوجئ الناس بالباشا يلحق بالابنة في ظروف أكثر غموضًا، بعد أن ترك وريثًا وحيدًا لكل أملاكه في الثغر، هو حليم صبرون .

هذه هي القصة، فهل أحداثها صادقة؟ وهل صحيح أن الدكتور آثر أن يترك الإسكندرية ليستقر بمكان آخر، أكثر انزواء وأكثر بُعدًا عن العيون، فاختار مدينة حلوان الحمامات، المشتى الراقد في حضن الجبل، وتصرف في أملاكه التي ورثها ليتمكن من بناء فيلّته الغريبة في جبل حلوان، حتى يتوارى فيها ويزاول نشاطه العلمي أو الإجرامي؟

لا أدري .

هكذا راحت الأفكار تزدحم في رأسي، وأنا أحاول جاهدًا تهيئة ذهني للمهمة الصعبة القادمة، على أن أفكاري سرعان ما كانت تتشتت أو تكف عن الانطلاق كُلِّيَّة إزاء جذوة الحماس الدافقة التي كانت تصهرني داخلها. وحين نقلتُ مفاجأة حضور الدكتور حليم لمقابلتي بمسكني إلى صديقي رؤوف، عندما تقابلنا صبيحة اليوم في المرصد كالمعتاد، ظل ينصت إلى حديثي في صمت، حتى وصلت في نهايته إلى القرار الذي اتخذته بالعمل مع الدكتور حليم.. وحينئذ ظهر الامتعاض على وجهه، وهمس في كآبة قاسية وهو يمط شفتيه :

. خمنت أنك ستفعل هذا بالرغم من كل اعتبار .

وأسرعت أغيِّر وجهة الحديث :

. أليست فرصة ذهبية؟

لكنه قاطعني :

. لتعرف أسراره.. هه؟

. أجل .

t.me/qurssan

. أو ليقضي هو عليك.. قبل أن يجتذب أنظارًا أخرى نحوه .

قلت بانفعال :

. سأكون حريصًا بالطبع .

فتمتم في ضيق :

. أرجو ذلك .

. وسأرتب لقاء معك مرة كل أسبوع أو أسبوعين.. ولو خلسة .

. كيف؟

وسألت نفسي: أجل كيف يتم ذلك؟ ولكني قلت لرؤوف :

. سأتسلل في أعماق الليل إلى المرصد.. وأترك لك رسالة مع عم نور .

وعاد يسألني :

. وعملك.. مؤلَّفك الذي تُعده.. هل ستتوقف عن الكتابة فيه؟

وأجبته :

. أجل.. فترة ما فحسب.. وقد أخطرتهم هنا بتغيبي لمدة شهر يمتد إلى سنة .

وتطلع رؤوف إليَّ ببطء، وحدق في عينيَّ بعاطفة جياشة، وبدا وقد غلبه التأثر وهو يقول :

. أتمنى لك التوفيق .

واحتضنته وأنا لا أعرف لماذا أفعل ذلك، فزاد تشبثه بي وأخذ يردد :

. ليحفظك الله يا كامل.. ليحفظك الله من كل مكروه .

بينما رحت بدوري أشكره في حرارة .

t.me/qurssan

والآن، وأنا آخذ طريقي إلى فيلّا الجبل في نهاية الأمر، وقدماي تطآن الحصى، مُسنن الحواف، وهما تنأيان بي بعيدًا عن المرصد، وبالتالي عن المدينة الراقدة أسفله، وحقيبة ملابسي الخفيفة تتدلى من يدي اليسرى، وفوقها معطفي الصوفي تكاد أطرافه تلامس الأرض، بينما امتد أمامي ظل عملاق زاحف يسبقني في سيري ويزداد طولًا كلما قاربت الشمس على المغيب وراء الأفق من خلفي ...

الآن، وأنا ألهث كلما تسلقت جزءًا صاعدًا من الدرب شديد الوعورة، أو اندفعت برغمي، أُوشك على العَدْو مع جزء آخر منحدر منه ...

فإن كلمات رؤوف لا تزال تطن في أذني.. عميقة.. مغلوبة على أمرها .

«خمنت أنك ستفعل هذا بالرغم من كل اعتبار ».

أجل، ما كان هناك شيء، مهما عظم، ليمنعني من اللقاء به، ولو لم تَسِر قدماي نهارًا في اتجاه فيلّته، لسارتا عشرات المرات ليلًا في نفس الاتجاه، حتى يُتاح لي إجلاء ما تضمه جدرانها كالحة الطلاء من أسرار دفينة لا يعلم كنهها إلا الله .

ثم هفهف حولي دعاء رؤوف، يأتيني خافتًا مع نسمات الهواء الباردة التي بدأت تهب وتدفعني شرقًا في طريقي: ليحفظك الله من كل مكروه يا كامل .

ولا أدري ما الذي دفعني في هذه اللحظة للتوقف عن المسير.. والتطلع خلفي نحو الشمس وقد قاربت على المغيب.. كانت صفحة السماء محمرة في لون الدم.. وقد تمركز الاحمرار بادئًا من حول صفارة البيض، هائلة الحجم، وهي تشرع في الاختفاء، تستعجل الرقاد بعد يوم حافل بالسعي في أعماق الفضاء، ولم تكن هناك أي سحابات ظاهرة .

لا شيء سوى اللون الأحمر القاني، يرسم اللوحة الحية الممتدة أمام بصري.. وظللت أتأمل المنظر بضع دقائق وأنا غارق فيه بكل

t.me/qurssan

حواسي، لأعود بعدها أقطع ما تبقى لي من طريق في سرعة ونشاط كبيرين. وخلال ربع ساعة وجدتني أقف أخيرًا في مواجهة البوابة الضخمة التي تتوسط السياج الحديدي مدبب الأطراف .

كان أحدهم في جلباب أبيض فضفاض يقف في انتظاري أمام البوابة، وانحنى الرجل نصف انحناءة دون أن يبدو على وجهه الأسمر، وبه آثار من مرض الجدري، أيُّ تعبير .

وقال في أدب :

. حضرتك الأستاذ كامل؟

. أجل .

فمد يده وتناول مني الحقيبة والمعطف، وفمه يؤكد: «سأحملهما أنا»، ثم أضاف، وقد أومأ إلى ممر البواكي برأسه :

. من هنا.. أرجو أن تتبعني .

ولم ينطق بعد ذلك بحرف وهو يتقدمني إلى الفيلَّا، ثم وهو يقودني إلى حجرة صغيرة تجاور المدخل، على أنه أشار إلى كرسي من الجلد بداخلها إشارة واضحة تعني أنه يطلب مني الجلوس عليه .

وما كدت أستدير إليه بعد أن جلست حتى كان قد اختفى ومعه حقيبتي ومعطفي .

وتشاغلت بتفحص الحجرة. كانت مربعة وصغيرة، وكانت جدرانها الأربعة مغطاة بأرفف خشبية امتدت فيما يقارب السقف، وقد اكتظت بالكتب التي بدا معظمها بلغات أجنبية. وفيما عدا الأرفف وبها الكتب، لم تكن الحجرة تضم سوى كرسيين من الجلد وسلم خشبي مما يستعمل لجلب الكتب والجلوس على قمته لتفحصها .

وانتقيت كتابًا، كان بالألمانية وأنا لا أعرف هذه اللغة، غير أنني

t.me/qurssan

استطعت أن أفهم، من تفحصي لرسومات الكتاب ومن قراءتي لبعض الملاحظات، المكتوبة بالعربية وأحيانًا بالإنجليزية على هوامشه، أنه يتناول موضوع الصواريخ والقنابل الطائرة التي كان الألمان يقذفون بها الجزيرة البريطانية إبان الثلث الأخير من الحرب العالمية الثانية .

والتقطت الكتاب المجاور، ووجدته مكتوبًا بنفس اللغة ويطرق نفس الموضوع، وهكذا اتضح لي أن مجموعة الكتب على هذا الرف تتناول بأكملها الحديث عن الصواريخ والقذائف الطائرة والموجهة، وكان بعضها مكتوبًا كذلك بالإنجليزية أو الفرنسية. وكانت هناك مجموعة أخرى من الكتب عن الغازات السائلة والغازات عالية التبريد، ومجموعة ثالثة عن حضارة المصريين القدماء، استرعى نظري من بينها كتاب ضخم بالفرنسية عن أسرار التحنيط لدى الفراعنة. وفي الرفوف المقابلة وجدت مجموعة كاملة من دوائر المعارف البريطانية والفرنسية والأمريكية، ودائرة المعارف الإسلامية، والعديد من القواميس العربية القديمة والحديثة. وأطلقت آهة من أعماق صدري وأنا أحس شعورًا بالألفة والود إزاء هذه الكتب الثمينة المتراصة حولي، والتي جمعت خلاصة منتقاة بعناية من الدراسات العلمية الجادة في شتى مجالات الحياة .

وسمعت صوتًا رزينًا يتعالى ورائي :

. هل أعجبتك هذه الكتب يا سيدي؟

واستدرت وأنا أجيب سائلي تلقائيًا قبل أن أتبينه :

. بالتأكيد.. مجموعة عظيمة .

ولكني بغتُّ إذ رأيت أمامي الرجل القصير الممتلئ الذي سبق لي رؤياه ليلًا وهو يحمل التابوت مع سائق العربة. وحيّاني الرجل في نصف انحناءة، وتابع وهو يتطلع بنظراته إلى الأرض في خجل مصطنع لا يتناسب مع مسحة الإجرام المنطبعة على وجهه :

t.me/qurssan

. لقد كلفني الدكتور بالاعتذار لسيادتك وإبداء أسفه على عدم تمكنه من استقبالك شخصيًا.. فقد طرأت ظروف اضطرته إلى السفر سريعًا.. وسوف يبيت الليلة بالخارج.. وسيسعده أن يلقاك غدًا صباحًا .

وقلت، وأنا أتطلع في تردد تجاه الباب :

. حسن.. لا بأس .

لكنه أضاف بسرعة وهو يرمش بعينه في حركة لاإرادية :

. ولقد أمر الدكتور بتهيئة حجرة خاصة لك يا سيدي.. هي مُعدة الآن تمامًا وفيها حقيبتك ومعطفك.. فهلَّا تفضلت بتفقدها؟

ولكني لم أتحرك، وإنما رحت أتفرس في وجهه متفحصًا إياه ببرود، فابتسم كاشفًا عن صفين من الأسنان السوداء من كثرة التدخين، وقال وهو يعاود الانحناء :

. نسيت أن أقدم نفسي.. خادمك مرزوق.. رئيس أعمال الدكتور .

لكني لم أدعه يسترسل في صفاقته، التي لم أستسغها الآن ولا فيما بعد مطلقًا، وقلت أقاطعه :

. أرجوك، قدني إلى الحجرة .

وصمت، وقد بان عليه الضيق والحرج من سلوكي، ولكنه استدار فجأة وتقدمني يفتح بابًا جانبيًا :

. تفضل .

تقدمت، وكانت هذه حجرة متسعة للجلوس ذات أثاث فخم قديم الطراز يبدو أنها لا تستعمل إطلاقًا، وعبر حجرة الجلوس مررنا صامتَين إلى باب آخر، فتحه لي في صعوبة وهو يقول :

. حجرتك الخاصة .

ودخلت الحجرة المعتمة، ودخل مرزوق ورائي ثم أغلق الباب خلفه فزادت عتامتها، على أن عينيَّ ما كادتا تتعودان الضوء

t.me/qurssan

الخـافت، حتـى أحسـست أن الحجـرة قـد هُيـئت بمهارة لتوفـر لشـاغلها سـبل الراحـة الممكنة. فقد ضمت فراشًا متسعًا نظيفًا، ودولابًا عريضًا للملابس، كما شغل ركنًا فيها مكتب زُود بأدوات الكتابـة، تجـاوره أريكة وأمامها منضدة ذات رف إضافي أسفل مسطحها العلوي .

وتقدم الرجل الذي لقب نفسه بـ«رئيس أعمال الدكتور » ، وهو . كما يبدو لي . تفخيم لاسم «رئيس الخدم»، تقدم إلى باب على يسار الداخل من حجرة الجلوس التي مررنا بها وفتحه، فظهرت قبة السماء المرصعة ببعض لوامع النجوم وبخيط أحمر متخلف من أشعة الغروب .

قـال الرجل وهو يطوي أجزاء الباب إلى الخـارج، فتخف عتمة الضوء بالحجرة قليلًا :

. هذه الشرفة تصل فيما بين حجرتك وحجرة الجلوس.. وهي تطل على القسم الشمالي من الحديقة .

وعاد الرجل يشعل عودًا من الثقاب أنار به لمبة الجاز الموضوعة على المكتب، ثم التفت إليّ وأنا جالس على حافة الفراش أراقبه، وقال لي في حركة مسرحية تهدف إلى إثارتي، وضياء اللمبة ينير نصف وجهه كأنه يحترق :

. أرجو ألا تنزعج يا سيدي إذا سمعت ليلًا نباح الكلاب يتعالى من أنحـاء الحـديقة.. إنـها فعلًا شرسة ولكنها بعيـدة لا تستطيع أن تصل إلى شرفتك .

ابتسمت في وجهه وقلت :

ـ أشـكر لـك تحـذيرك.. وأنـا أعـرف كيف أحمي نفسي جيـدًا من الوحوش ومن غيرها .

وترك الرجل علبة الثقاب على المكتب دون أنه يعقب على كلامي، ثم اتجه إلى الباب الثالث في الحجرة، وهو يواجه باب الشرفة، وفتحه قائلًا :

t.me/qurssan

. أتسمح لحظة من فضلك؟

وتقدمت إلى حيث يقف، فأشار إلى ممشى يمتد خارجها :

. هذا الممشى يقود يمينًا إلى حجرة الجلوس والمكتبة والمدخل العمومي.. أما يسارًا من هنا.. فهو يقودك في نهايته، لو انعطفت ثانية إلى اليسار، إلى دورة المياه، فالحمام .

وكررت :

. دورة المياه.. والحمام؟

. أجل.. وإذا احتجت شيئًا فيمكنك أن تفتح الباب وتنادي عليَّ .

. فهمت.. أشكرك .

وقال وهو يهم بتركي :

. أهناك ما تريده أو ترغب في الاستفسار عنه قبل أن أتركك يا سيدي؟ لقد أوصانا الدكتور بتحقيق رغباتك على الفور.. إننا جميعًا في خدمتك .

وكدت أسأله عن بقية سكان الفيلَّا، وهل توجد بينهم فتاة ذات أوصاف معينة ولها ضفيرة طويلة مثلًا تتدلى من رأسها؟ ولماذا لم أرها بعدُ مع أنني واثق من وجودها؟ على أنني بالطبع أمسكت عن التفوه بما يجول بخاطري واكتفيت بشكره وسؤاله عن حقيبة ملابسي، فأشار إلى أنها والمعطف موضوعان بداخل الدولاب، ثم أغلق الباب خلفه وانصرف، لأصبح وحيدًا في إحدى حجرات فيلَّا الجبل .. وعثرت على الحقيبة في الدولاب، وحين فتحتها، عرفت أنها قد فُتشت ولكنني لم أهتم للأمر. وحين انتهيت من ترتيب حاجياتي، تفقدت المكتب، وسرني أنني وجدت به كل ما قد أحتاجه من لوازم الكتابة، وكذلك وجدت في درج المكتب الأوسط كراسة ضخمة ذات ورق أزرق مصقول وجلدة مخملية، خمنت أنها لا بد قد أُعدت لتدوين أعمال الدكتور وتجاربه، نفس العمل الجديد الذي سأقوم بأدائه والذي حضرت إلى فيلَّا الجبل خصيصًا من أجله .

t.me/qurssan

ارتديت منامتي، وانتعلت خفًا رقيقًا، وخرجت إلى الشرفة أستنشق الهواء بالرغم من برودته. وحين اتكأت على سور الشرفة الحجري الأملس، رأيت في مواجهتي، على بُعد حوالي الخمسين مترًا، صفًا من حظائر الحيوانات التي لا شك أن الدكتور يُجري عليها تجاربه، وهي تتجسم مظلمة، كئيبة، لا يتضح ما بداخلها، ومن ورائها بدا السياج الحديدي، مجرد خطوط سوداء مدببة، وامتدت فيما وراء السور ظلال الجبل الشاهقة كالمردة أو الآلهة الوثنية. واتخذت شبه اضطجاع لأريح جسدي على كرسي عثرت عليه .

هأنذا أخيرًا، على بُعد بضع أقدام من كنوز الدكتور حليم.. عصارة عقله ورحيق أفكاره .

هأنذا، موشك على إجلاء أسراره التي لن يلم بها أحد من خارج عالم هذه الفيلَّا سواي.. ولو عرفها الناس، فلن يكون ذلك إلا عن طريقي .. ومن خلال سطور قلمي.. التي تقودها عيناي الفاحصتان وذهني الحاضر المتقد.. وسوف تكون حتمًا أسرارًا خطيرة.. ومثيرة.. وجديدة كل الجدة.. وإلا ما أحاطها الغموض بمثل هذا العنف، وإلا ما اتخذ الدكتور في سبيل كتمانها كل هذه الحيطة، وكل هذه التدابير .

وسمعت طرقات على باب الممشى، ودخل مرزوق يستأذنني في إحضار العشاء إليَّ .

وتساءلت :

. العشاء.. في مثل هذه الساعة المبكرة؟

أجاب :

. عادةً.. فإن مواعيد الطعام مبكرة هنا .

وهممت بالوقوف لأتبعه، ولكنه أفهمني أن الطعام سيُجلب إلى الحجرة، ثم أفسح مكانًا ليدخل الرجل الأول الذي استقبلني لدى البوابة الخارجية، وكان يحمل صينية خشبية، وضعها ثم أسرع

t.me/qurssan

الاثنان بالانسحاب .

ووجدت الطعام عاديًا، يحتوي على طبق من الحساء باللحم المسلوق وقليل من الخضر وأرز بالشعرية وسلطة بجوارها قطعة من الجبن وخبز وأربع برتقالات، ودورق به ماء .

وجلست أتناوله في صمت، وقد وجدته شهيًا فأتيت على معظمه، ثم تناولت برتقالة، وبينما أنا أقتسمها بسكين إلى نصفين، إذا بشعور عميق يتملكني بأن أحدًا يراقبني .

ورفعت رأسي ببطء .

كان وجهها الصغير هناك.. يتطلع إليَّ من بين زهرات ذهبية مدلاة، في فضول وتفحص كاملين .

وتسمرت أصابعي على البرتقالة والسكين في منتصفها، ورحت أحدق في وجهها الحلو، وضفيرتها تتدلى في رفق بجوار عنقها لتستقر فوق نهديها .

وأحسست في نظراتها الحنان .

وتركت نصفَي البرتقالة يسقطان مني لأقف وأقترب من سور الشرفة، وقد رحت أهمس وقلبي يدق بعنف يكاد يقفز خارج ضلوعي :

. زين.. زين .

وتسلل إلى أذني صوتها الموسيقي يكلمني لأول مرة :

. نعم؟

. اقتربي.. أرجوكِ.. أريد أن أكلمكِ .

وتلفتت حولها في فزع ثم همست :

. لا أستطيع .

وقلت وأنا أهم بتخطي السور :

t.me/qurssan

لكنها رفعت ذراعيها في توسل، كأنها تردني عن القفز من أعلى، وقد امتقع وجهها :

. لا لا.. أتوسل إليك ليس الآن .

وخرجت مني صيحة خافتة :

. ولِمَ يا زين؟ لِمَ؟

لكنـي كنـت أكلم الزهـرات المهتزة، فقـد اختفـى الوجـه ومعـه الضفيرة كُلِّيَّة، وكأنهما تبخرا في الهواء .

وظللت لفترة طويلة لا أحول عينيَّ عن المكان الذي ظهرت فيه، تتأرجح مشاعري بين حلاوة الحلم ومرارة اليقظة من طياته، حتى ولا بعد أن حضر عبده لاستعادة الصينية الفارغة، فلم أحول عينيَّ عن الزهرات الذهبية المعلقة .

إلـى أن سـمعت فجأة حركات مسرعة أسفل الشرفة، مصحوبة بزمجرة غضبى وأنفاس عالية متلاحقة، ومِلت برأسي أتفحص الظـلام، وحـين شاهدت العيون العديدة اللامعة كجمرات النار، عرفت أن الكلاب قد أُطلقت. فهل زين هي التي أطلقتها؟

هل هذا الملاك الرقيق كالنسيم هو القائد المُسيِّر لهذه الوحوش المخيفة؟

أزعجني الخاطر كثيرًا.. وأُرِّقت بسببه طويلًا.. ولكنني لم أنجح فـي إقصـائه عنـي، بـالرغم مـن جمـيع محـاولاتي، حتـى غلبنـي النعاس في ساعة متأخرة من الليل الساكن الثقيل، الرابض في حضن الجبل .

t.me/qurssan

2

السبت 20 يناير 1951

استيقظت في حجرتي الجديدة مبكرًا على خلاف عادتي. كانت الحجرة تسبح في ضوء الفجر الندي، وقد بدت أكثر أناقة واتساعًا عما كانت عليه في المساء، حتى كدت أنسى أنها تقع في قلب الجبل، وأنها تنأى كُلِّيَّة عن كل صلة بالعمران .

وكان السكون يخيم على المكان، تقطعه بين الحين والحين زقزقة عصفور أو نقرات طائر آخر على فرع شجرة دانية. وفتحت باب الشرفة ليطالعني منظر ساحر.. كانت هامات الأشجار بامتداد الحديقة تكاد تتوه معالمها وسط غلالة رقيقة من دخن الضباب المتحرك.. بينما كُسيت قمم التلال على امتداد البصر بقلنسوات أرجوانية تضيئها الأشعة التي لم يتضح مصدرها بعد.. أما السماء فقد مُلئت بنقاط دقيقة متراصة من السحب الوردية الشاهقة، بدت وكأنها عذارى الوادي يسبحن في النهر المقدس .

وعدت أرهف السمع، ولكنْ لم تكن هناك أدنى حركة حولي، فكلاب الحراسة لم يكن لها أثر في الحديقة، وحظائر الحيوانات بدت خاوية، خالية من سكانها، والفيلَّا بحجراتها لم يكن يُسمع منها صوت، ولا خطو قدم عابرة، حتى العصفور الذي كان ينقر في فرع الشجرة تركها وطار بعيدًا لدى خروجي إلى الشرفة .

وخيل إليَّ أن المساحة كلها حولي أصبحت جزءًا معتمًا من الجبل، وأحسست صداعًا، ورغبة تعاودني إلى النوم، ولكني لم أرد أن أحرم نفسي من الاستمتاع بالجلوس في الشرفة. فاتجهت إلى الحجرة وفتحت باب الممشى، وأخذت طريقي عبره إلى المكتبة. وسمعت بابًا يُفتح ورائي في مكان ما، على أنني حين استدرت لم أجد أحدًا ظاهرًا. وبعد أن انتقيت كتابًا من المكتبة، وبينما أنا في طريق عودتي إلى حجرتي عبر نفس الممشى، فُتح باب آخر، وحين استدرت لم ألمح أحدًا للمرة الثانية .

t.me/qurssan

جلست في الشرفة على الكرسي وبدلًا من فتح الكتاب وجدتني أفكر.. تُرى هل أنا موضوع تحت المراقبة؟ ولكن أليس هذا موقفًا طبيعيًا يقفونه حيالي، وأنا الوافد الدخيل على دنياهم؟

واستغرقت في قراءة الكتاب الذي جلبته من المكتبة، كان يتحدث عن العصور الجيولوجية والدهور السحيقة بالغة القدم، وقد وجدت فيه خطوطًا كثيرة بالرصاص تحت معظم سطور الفصل الذي يتناول العصر الجليدي الأعظم، وكيف غزا الجليد الكرة الأرضية منذ ما يزيد على مليون سنة، فامتد إلى أوروبا وكندا وإلى ما يُعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية والكثير من جهات آسيا حتى الهيمالايا، ثم كيف انحسر الجليد عن هذه الأماكن بعد ألوف السنين، تاركًا وراءه ثلاجات هائلة دفنت في أعماقها ملايين الأشجار والنباتات وملايين الرخويات والأسماك والحيوانات، مثل فيل الماموث والخرتيت ذي الفراء وغيرهما من المنقرضات .

ومرت ساعة أو ما يزيد وأنا أقرأ في الكتاب بشغف، قبل أن يطرق مرزوق الباب ويحييني في كلمات مقتضبة، ثم يفسح الطريق لصينية الإفطار. فلم أتمالك نفسي من سؤاله عن الدكتور، فأجابني في كلمتين بأنه لم يحضر بعد .

وقد شغلت وقتي بعد ذلك في ترتيب ملابسي وحاجياتي القليلة بالحجرة، وحلقت ذقني، وأخذت أنظم أدواتي لإعداد التسجيل الخاص بأعمال الدكتور حليم .

وكنت، منذ استيقظت، تتملكني رغبة شديدة في تفقد حجرات الفيلّا وتفقد الحديقة والحظائر وأخذ فكرة عن المنطقة بأكملها، على أنني كبحت جماح رغبتي هذه، واعتكفت بحجرتي أكمل قراءة الكتاب الذي استعرته من المكتبة دون إذن، بعد أن أحكمت إغلاق زجاج باب الشرفة على أثر هبوب ريح قوية حملت الجو بالأتربة وجعلته أكثر برودة. وكنت قد وصلت في قراءتي إلى صفحة عُلِّمت كل سطورها بالقلم الرصاص، ومُلئت جوانبها بالتعليقات المكتوبة بخط بالغ الدقة. ووجدت هذه الصفحة

t.me/qurssan

تتكلم عن حيوانات فيلة الماموث التي عُثر عليها مدفونة في أعماق الثلاجات الهائلة التي تركتها العصور الجيولوجية البعيدة، وقد عُثر على بعض هذه الفيلة الضخمة وهي لا تزال محتفظة بكامل هيئتها وسط ركام الثلج الذي قضى عليها، كما وُجد لحم هذه الفيلة، وهي بالغة القدم، محفوظًا حفظًا تامًّا. بخاصية تبريد نموذجية. حتى إن أناسًا أكلوا لحم ماموث تراوح عمره بين 12 ألفًا إلى 17 ألف عام، فوجدوا أن اللحم، بالرغم من إيغاله في القدم، ظل مبقيًا على جميع خواصه من نضارة وطعم مستساغ ولون محمر طازج حتى أيامنا هذه.

وفي عام 1901، اكتشفت إحدى البعثات السوفيتية واحدًا من فيلة الماموث الشهيرة مجمَّدًا على شاطئ نهر في سيبيريا.

وفي عام 1918، اكتشفت بعثة أخرى في مكان قريب على شاطئ نفس النهر السيبيري فيلًا آخر من أفيال الماموث، وقد روى أكثر من شاهد عيان من أفراد البعثة أن الفيل، بعد إخراج جثته من حفرة الجليد ببضع ساعات، تحركت أطرافه بطريقة تشنجية أفزعت المحيطين به وقتئذ، مما يبدو أنه قد عاد إلى هذا الحيوان ما يشبه الحياة للحظات نتيجة لسريان الدفء فيه بعد أن حُفظ جيدًا عبر أجيال في ثرى الجليد المدهش.

وحوالي الساعة الواحدة ظهرًا، طرق مرزوق الباب للمرة الثانية يخبرني بأن الدكتور حليم في انتظاري على مائدة الغداء.

ودخلت القاعة الرئيسية الكبرى في فيلّا الجبل، وهي قاعة مستطيلة تبلغ مساحتها مساحة حجرتين ضخمتين متجاورتين، ومدخلها يبدأ بعقد كبير من الممشى في مواجهة مدخل الفيلّا، ووجدت القاعة مقسمة إلى نصفين، أقربهما يشغله ركن صغير للجلوس تتوسطه مدفأة حائطية على يمين الداخل، وثاني القسمين، وهو الأبعد، يضم حجرة كاملة للمائدة صُنعت من خشب الأرو.

وكان الدكتور حليم يقف لدى دخولي معطيًا إياي ظهره وهو يواجه المدفأة، وقد اتكأ على حافتها بطول ذراعه، يحدق في

t.me/qurssan

النيران المشتعلة باستغراق شديد. وحين أحس بمقدمي استدار وعيناه شاردتان، ولما حييته رد في اقتضاب، ثم أشار إلى المائدة الحافلة والمعدة لثلاثة أشخاص في الطرف الآخر من القاعة قائلًا :

. تفضل .

وجلس الدكتور على رأس المائدة لدى طرفها الأيمن وجلست أنا على يساره، وبدا وجهه عن قرب ممتقعًا متعبًا، وكأنه لم يذق طعم النوم لعدة ليالٍ، وحدق في وجهي برهة قبل أن يقول ببطء :

. أرجو أن تكون حجرتك مريحة يا أستاذ كامل .

أجبته في تودد :

. هي مناسبة جدًا .

وبدا أنه لم يسمع إجابتي :

. وكيف أمضيت ليلتك؟

. لقد أُرِّقت فترة من الليل بسبب تغيير المكان ليس إلا .

فسلط عليَّ نظراته الشاردة وهو يتمتم :

. سوف نتدارك مسألة الأرق مستقبلًا .

ثم رفع عينيه يتطلع فيما ورائي، ونظرت في اتجاههما، كانت زين تقف تحت عقد آخر للقاعة في رداء أبيض ناصع، تحيطها هالة من نور إلهي.. وكان جسدها لدنًا رشيقًا.. كما أن وجنتيها كانتا شاحبتين، وفمها كان يرسم خطًا حزينًا يخفي فيما يبدو الكثير من الألم .

وترددت قليلًا قبل أن تتقدم في خطوات رقيقة نحو المائدة لتأخذ مكانها قبالتي .

وقدم الدكتور كلًا منا للآخر :

t.me/qurssan

إليَّ .

ولكنه لم يُشِر مطلقًا إلى صلة القرابة التي تربطهما، وإن فهمت أنا فيما بعد منها أنه عمٌّ لها. وقمت أحييها في نصف انحناءة من رأسي، في حين علقت هي نظراتها عليَّ لأقرأ فيها قلقًا وضراعة مستترين. وفهمت أنها لا تريد مني الإشارة إلى سابق لقائي بها، فابتسمت أطمئنها، فأراحت أهدابها تشكرني في صمت. وخلال تناول الطعام، لم نتبادل ثلاثتنا سوى كلمات عابرة حتى انتهينا منه، وحينئذ قال لي الدكتور وأنا أهمُّ بالوقوف :

. أظن أن الوقت قد حان لنبدأ الحديث معًا.. أليس كذلك؟

فأجبته :

. إنني في انتظارك يا دكتور منذ الأمس .

قال وهو يشير إلى الكرسيين الجلديين أمام المدفأة، بينما أخذ اتجاهه نحوهما يتقدمني في تراخٍ :

. إذن فما رأيك في قدح من القهوة الثقيلة ونحن نتحدث هناك؟

قلت موافقًا :

. لا بأس .

فالتفت إلى زين قائلًا :

. عليكِ أن تعدي من أجلنا قدحين مضبوطين يا زين.. ولا تنسَي أن ترسلي إليَّ دوائي مع مرزوق.. العلبة ذات الأقراص البنية .

وهمست زين كلمتها الوحيدة منذ جلست :

. حاضر يا عمي .

عدنا إلى الطرف الأول من القاعة وجلسنا متقابلين أمام المدفأة، في حين أقبل مرزوق يحمل علبة الدواء وكوبًا من الماء. وتناول

t.me/qurssan

الدكتور العلبة، وقال بعد أن أخذ منها قرصين ابتلعهما معًا :

. أقراص منشطة.. تساعدني على استعادة حيويتي .

بعدئذ انحنى الدكتور حليم إلى الأمام ومد يديه يدفئهما أمام النيران القوية، وقد أغلق عينيه وأرخى جسده في شبه إغفاءة قصيرة .

ومـرت عشـر دقـائق رأيتـه فـي نـهايتها يـنزل يـديه فـي هـدوء ويريحهما على ركبتيه، ثم فتح عينيه.. وشد قامته.. واستدار بوجهه فـي مواجـهتي.. ورأيت إنسانًا مختلفًا.. يتطلع إليَّ فـي حيوية كاملة، بينما تشع عيناه بومضات الذكاء والذهن الحاضر المركز .

سألني وعلى شفتيه ابتسامة غامضة :

. قل لي يا أستاذ كامل.. ألم تتمنَّ، ولو مرة في حياتك، أن يمتد بك العمر.. فتعيش بحيث ترى أحداث عام 2100 أو 2300 مثلًا؟

وتعجبت من سؤاله فقلت :

. إلى ماذا ترمي؟

لكنه عاد يلح عليَّ :

. بل أجبني أولًا. هل تمنيت مثل هذه الأمنية؟

قلت وأنا أحاول أن أستشف غرضه من السؤال :

. دون شك، لا أحد يرفض فرصة كهذه لو أتيحت له .

فقال بسرعة :

. أنت حذر في إجابتك.. هه.. لا بأس، أما أنا فقد كانت هذه أولى أمنياتي.. منذ حداثتي.. بل ربما لم أتجه إلى دراسة الطب إلا من أجـل إشباع فضولي حـول هـذه الأمنيـة.. هـذا الحلـم الخالـد.. حلمي.. وحلمك.. وحلم البشرية منذ وجد آدم وحواء على ظهر الكرة الأرضية .

t.me/qurssan

قلت :

. فعلًا إن محاولات إطالة الحياة متكررة ومستمرة إلى وقتنا هذا .

بينما استرسل هو :

. وقد درست أنا معظم ما اتخذه الأقدمون وما أجراه العلماء من خطوات في مجالات إطالة الحياة البشرية لأكبر قدر ممكن من السنين.. وكانت تبهرني هذه الخطوات إلا إنها لم تشبع فضولي قَطُّ .

قلت وأنا أراقب أصابعه المتقلصة على ذراعَي الكرسي الجلدي :

. إذن لقد اتجهَت دراستك الأكاديمية هذه الوجهة .

ولكنه قاطعني :

ـ أبدًا.. لقد تخرجت في الجامعة المصرية طبيبًا باطنيًا.. ثم حصلت فيما بعد على دكتوراه في جراحة الأعصاب من جامعة «كمبردج» بلندن.. هذه هي دراستي الأكاديمية الرئيسية، وهي كما ترى عادية.. ولكن قراءاتي ومشاهداتي وبعض تجاربي التي أجريتها بالخارج على نطاق ضيق، والتي أجريها بمصر منذ ما يزيد على عشر سنوات على نطاق أوسع، تختلف بالمرة عن دراستي الأكاديمية.. التقليدية .

وتقدم عبده في هذه الأثناء حاملًا قدحَي القهوة التي صنعتها زين، فتناولت قدحًا بينما تناول الدكتور القدح الثاني، وسألته بعد أن أخذت رشفة كبيرة بشغف :

. هل أستطيع القول بأنك تقوم بقراءاتك وتجاربك على سبيل الهواية؟

ـ بل يستحسن أن تصفها بما هو أكثر من مجرد هواية.. سمِّها تعلقًا.. جنونًا .

. ألهذه الدرجة؟

t.me/qurssan

قال جادًا :

. بل لأكثر من ذلك .

وتناول سيخًا حديديًا راح يقلب به جمرات الفحم داخل المدفأة وهو يسترسل في الكلام :

ـ لقد اطلعت على الوصفات السحرية بالأعشاب والسوائل والمعادن وغيرها، التي كان يعدها الأقدمون بغرض إطالة الحياة، من عهد قدماء المصريين إلى العصور الوسطى، إلى مبدأ القرن الثامن عشر.. وأظن أنك ولا بد قد قرأت شيئًا عنها .

قلت :

. إن قراءاتي لم تتعدَّ محاولات نفرتيتي.. وكليوباترا.. لتجديد شبابهما .

وتابع، بعد أن ترك السيخ الحديدي جانبًا وعاد يدفئ يديه أمام النيران :

ـ تمامًا.. وفي أوائل القرن الحالي، استُخدم نقل غدد وخصي الحيوانات في تجديد الشباب وإطالة الحياة، وقد درست كل ما جرى من تجارب في هذا المجال.. كما درست محاولات أساطين الطب والجراحة لإعادة الحياة وإطالتها عن طريق المبضع .

سألته :

. تقصد تجارب نقل الأعضاء من الأموات إلى الأحياء؟

ـ أجل.. تجارب نقل أجزاء من القلوب والكلى والشرايين والأطراف من أشخاص ماتوا ثم إعادة زرعها في الأحياء.. وتجارب زراعة رؤوس كاملة لكلاب أو قردة في حيوانات أخرى.. كل هذا وغيره، درسته ووعيته.. بل وقد لا تصدق أنني درست محاولات إطالة الحياة بواسطة تنظيم تناول أغذية معينة لفترات طويلة.. مثل: اللبن الزبادي.. واللبن الرايب.. والفواكه والغلة المنقوعة والعسل الأسود .

t.me/qurssan

ثم أردف وهو يبتسم :

. وأظنك قد لاحظت أنني أطبق ما يشبه ذلك على مائدتي .

فابتسمت بدوري :

. لقد كانت سلطة الزبادي شهية .

لكنه بدلًا من الاسترسال انتصب واقفًا، وتوجه إلى رفٍّ قريب معلق على الحائط، وتناول مِن عليه علبة خشبية مستطيلة مُطعمة بالصدف، نفخ ما عليها من غبار خفيف، ثم استدار نحوي وتقدم يفتح العلبة ويدنيها مني، فلمحتها مقسمة إلى قسمين من الداخل، أحدهما مبطن بالقطيفة السوداء وقد رصت فيه ثلاثة غلايين بديعة الصنع، في حين ظل القسم الآخر دون تبطين وقد ملئ لمنتصفه بنوع راقٍ من التبغ، الإنجليزي على ما أعتقد، وصلت رائحته العطرة إلى أنفي .

وعرض عليَّ العلبة وهو يقول في اعتزاز :

. هلَّا اخترت واحدًا منها.. وملأته لتدخن .

لكني قلت معتذرًا :

. أشكرك.. إنها قوية وأنا أفضل عليها اللفائف .

قلتها وأنا أقرن القول بالفعل، فقد تناولت لفافة من علبتي، في حين اكتفى هو بأن تمتم :

. كما تشاء .

ثم التقط أحد الغلايين وملأه بالتبغ بعناية وصبر، وأخيرًا أشعله وراح يجذب من مبسمه المنحني أنفاسًا شرهة، دلت على مبلغ شغفه بتدخينه. وبعد مرور بضع دقائق من التدخين المستمر، رأيته من خلال السحابة المصطنعة، قوية الرائحة، يمسك الغليون مقلوبًا في يده وقد وجه مبسمه نحوي، ويقول :

. وكما بينت لك.. فإنني على كثرة ما قرأت وما رأيت وعلى كثرة

t.me/qurssan

ما قمت بإجرائه من بحوث، فإن شيئًا منها لم يُشبع فضولي.. لم أقتنع بإمكانية أن يؤدي أحدها الغرض المنشود من ورائها، وهو إطالة الحياة .

وعاد يشعل الغليون من جديد، ثم همس :

. حتى سافرت إلى أوروبا.. إلى أحد المصايف السويسرية على جبال الألب، وتُسمى زيورخ وتقع على الطريق المؤدي إلى ممر «سان جوتار» وهو واحدة من القمم الألبية الشهيرة.. فهناك، وفي مشارف قرية ريفية مجاورة لا يحضرني اسمها في هذه الآونة، عثرت على ضالتي منذ حوالي 10 سنوات.. أجل دون عناء ودون بحث، عثرت فجأة على المفتاح الذي قادني إلى السر العظيم .

بـدأت أحـس شـيئًا قـويًا يشـدني إلـى كلمـات الرجـل، فلاحقتـه بسؤالي :

. وما الذي حدث هناك؟

وبدا كأنه سُرَّ لاهتمامي بحديثه :

. آه سأقول لك.. كنا ثلاثة من الأصدقاء: البروفسور «إيماك» وهو طبـيب نمسـاوي تخصـص فـي أمـراض القلب، والدكتور «جـان» مساعده وهو طبيب فرنسي.. وأنا.. وكنا . بعد عمل شاق . في عطلـة لمـدة يومين، قررنا أن نمضيها فـي التزحلق على الجليـد فوق سفوح هذه المنطقة من جبال الألب السويسرية.. وخرجنا في صبيحة اليوم الأول بعد أن حملنا معدات التزحلق فتسلقنا إلى قمة الجبل.. ومن القمة بدأنا في التزحلق انحدارًا مع السفح إلى حيث تستقر القرية على بُعد ميلين.. ولما كنت لا أزال مبتدئًا في رياضة التزحلق، فقد لازمت البروفسور في هبوطه البطيء وأنا أتتبع إرشاداته وخطاه، أما الدكتور «جان» فقد انطلق في فورة الشباب وحماسته يسبقنا بمسافة كبيرة .

وتـوقف الـدكتور حليم عـن الكـلام، ونفـض الغليون على حافة المدفأة، ثم التفت إليَّ وقال وهو يتوخى إحاطة تعبيرات وجهه ويديه بأكبر قدر من الإثارة :

t.me/qurssan

. وفي ثوانٍ حدث ما ظنناه فاجعة في مبدأ الأمر.. انهار جزء من الجبل الجليدي وابتلع في طياته الطبيب الشاب.. وحين وصلنا، البروفسور وأنا، إلى بقعة الانهيار لم نعثر على أي أثر له.. على أن فرقة الإنقاذ استطاعت في ظهيرة اليوم التالي، أي بعد مرور أكثر من أربع وعشرين ساعة، أن تُخرج جثة الطبيب الشاب من تحت ركام الجليد.. وكانت مجمَّدة مخشبة .. لا أثر فيها للحياة .

قلت وأنا أشعل لفافة أخرى :

ـ حادث فظيع.. بالطبع قد أثر عليكما أنت والبروفسور موت رفيقكما .

وكف الدكتور عن إشعال الغليون بعد أن ملأه بالتبغ للمرة الثانية، وقال لي في تحدٍّ :

. لكن رفيقنا لم يكن قد مات حتى تلك اللحظة .

دهشت :

. ماذا تقول؟ كيف؟

. من المنطق ألا يظل جثمان مجمَّدًا لمدة يوم كامل إلا ويكون صاحبه قد شبع موتًا! ولكن الذي حدث فعلًا كان مغايرًا.. محيرًا .

سألته بانفعال :

. وماذا بعدئذ؟

قال :

. بعد إخراج جثة الطبيب الشاب من تحت الجليد وإحضارها إلى القرية بحوالي نصف ساعة، تصادف وقوفي قبالتها، ربما رغبة في وداع صاحبها وداعًا أخيرًا.. وبينما أنا أتأمل وجه «جان» دقيق التقاطيع، والذي كان يتفجر بالحيوية قبل تجمده، إذا بي ألاحظ شيئًا مبهمًا.. بدا لي وقتئذ بعيدًا عن التصديق لأقصى الحدود.. هل حقًا تحركت أهداب الطبيب المسجى أمامي دون

t.me/qurssan

حياة؟ وعدت أحدق من جديد في شك كبير.. وللمرة الثانية لاحظت حركة طفيفة في جفنيه.. ولم أنتظر لحظة أخرى، فسرعان ما أعلمت البروفسور بالنبأ، وسرعان ما أجرينا إسعافات التدفئة لجسده والدفعات الكهربائية لقلبه.. وماذا أقول لك.. لقد عاد الطبيب «جان» إلى الحياة بعد ساعتين من المحاولات المتواصلة لإنقاذه .

تمتمت في كثير من الحيرة :

. وهذا الطبيب، أهو عائش للآن؟

قال بلامبالاة :

ـ لقد مات بعد إعادته للحياة بيومين.. مات متأثرًا من إصابة داخلية في قفصه الصدري اكتشفناها مؤخرًا.. ولكن المهم في الموضوع ليس حياته أو مماته.. المهم أن نسأل أنفسنا ...

وهنا سارعت بالإجابة بدلًا منه :

. كيف قُدر لهذا الإنسان أن يعيش بعد أن تجمد جسده تمامًا لمدة تزيد على أربع وعشرين ساعة؟

حدق الدكتور حليم في وجهي بإعجاب :

. رائع.. هذا هو السؤال .

. والجواب؟

قال :

. آه.. قبل الحادث بيوم واحد كنا، كما قلت لك، نقوم بعمل شاق.. كان البروفسور يُجري تجربة على عقار معين يقاوم تصلب الشرايين.. عقار يُحقن في الوريد ليَسري في الدم فيصل إلى جدران الأوعية الدموية من الداخل ويخفف من حدة الإصابة بها .

تساءلت بصبر نافد :

t.me/qurssan

. وما علاقة ذلك بسؤالنا؟

فابتسم، كاشفًا عن فم دقيق بالغ الوسامة، ثم أردف :

. صبرك يا أستاذ كامل.. لقد قرر «جان» في اليوم السابق لبداية إجازتنا أن يجرب العقار على نفسه.. وبالفعل، تناول المحقن ودفع بالسائل الوردي إلى داخل وريده، قبل أن يعترض البروفسور على قراره الجريء .

قلت في ذهول :

. إذن فالعقار.. هو ...

قاطعني :

ـ أجل.. كان العقار هو السبب، فقد حول الدماء إلى قوام لزج ثقيل يكمن داخل أوردة الجسم وشراييه لدى أول نذير بالتبريد، ثم في ثوانٍ تتجمد كل نقطة مع مثيلتها في نفس الوقت الذي تتجمد فيه أجزاء الجسم وأنسجته.. ونفس الشيء يحدث لدى عودة الدفء للجسم، فإن كل نقطة دم تعود فورًا إلى سابق حالتها الطبيعية من السيولة والحيوية .

قلت أعترض على كلامه :

. ولكن ماذا يفيد تجمُّد الدماء فورًا وعودتها أيضًا إلى طبيعتها على الفور؟

. ماذا؟! إن هذه النقطة بالذات هي أخطر ما في موضوعنا .

. كيف؟

قال :

. المخ يا صديقي هو بيت القصيد.. المخ هو أهم الأعضاء وأكثرها خطورة في ديناميكية الجسد البشري.. لأنه أسرع الأعضاء سيرًا في الطريق من الموت الإكلينيكي إلى الموت النهائي المُسمى بـ«الموت البيولوجي ».

t.me/qurssan

. وما هو الموت الإكلينيكي؟

أجاب :

ـ الموت ينقسم إلى قسمين: أولهما ظاهري يتوقف فيه القلب والرئتان عن عملهما، فيتوقف تبعًا لذلك وصول الغذاء إلى خلايا الجسم ومنها إلى المخ، وأقصى حدٍّ لهذه المرحلة هو ثماني دقائق قد تزيد فتبلغ عشرًا.. وهذا هو الموت الإكلينيكي أو الظاهري.. وأما القسم الثاني من الموت فهو ما يعقب ذلك من تحلل خلايا المخ فلا تعود لإصدار تعليماتها لبقية أجزاء البدن، الذي يبدأ بدوره في الاستسلام لعوامل الانحلال، ليصير الموت حتميًا فنائيًا، وهذه الفترة قد تطول إلى أربعين دقيقة .

قلت للدكتور، وأنا أحاول مجاراة أفكاره على قدر فهمي :

. معنى ذلك أن المخ، ما دام لم يُمس بضرر، فإن في مقدور بقية أعضاء الجسد أن تعود إلى الحياة مهما طال موتها الظاهري.. ولكن بالله كيف نمنع مساس المخ بالضرر؟

أجاب الدكتور :

. في حالتنا هذه.. وأنا أعني التبريد.. فإن المخ حين يعود إلى حالته الطبيعية، عقب مرحلة التبريد التي تعتبر بمثابة موت ظاهري أو سبات ثقيل، فإن أول شيء يحتاج إليه هو الغذاء.. إنه يحتاج الدماء السائلة التي تحمل إليه عناصر الحياة .

قلت وقد بدأ قبس من نور الفهم يضيء جنبات عقلي :

. هنا إذن لا بد من إيجاد الوسيلة التي تمنع تجلط الدم وتعمل على إعادته في الحال إلى طبيعته السائلة المتدفقة، ليقوم بتغذية خلايا المخ المتعطشة للارتواء.. وقد وجدت يا دكتور في مفعول العقار الذي ذكرته خير معين لك لأداء هذه المهمة الصعبة ..

ربت الدكتور فرحًا على كتفي، وقال في نشوة فائقة :

t.me/qurssan

. يا سلام.. لم يخب ظني فيك يا صديقي.. إن ما تذكره هو عين ما انتهيت إليه.. وهو محور غالبية التجارب التي بذلتها منذ سنوات عشر، وتوصلت خلالها لبعض النتائج المهمة، وإن لم أصل بعد إلى ذروتها .

سألته :

. وهل سيتاح لي الاطلاع على هذه التجارب، وحسب تسلسلها منذ البداية؟

فحدق في وجهي جادًا وقال :

. بالطبع.. دون شك.. إنه صميم عملك.. وسوف يتهيأ لك كل ما تريد تؤًا .

قالها، ثم تركني وغاب عن المكان برهة اتضح لي خلالها، وأنا أتطلع إلى ساعتي، أننا قد أمضينا في حديثنا أربع ساعات بأكملها. وحين عاد الدكتور حليم، رأيته يتأبط كتابين ضخمين لهما نفس الغلاف المخملي الذي على الكتاب الموضوع بمكتب حجرتي .

وقال الدكتور، وهو يلوح بهما ويقلبهما بين يديه :

. هذان هما المجلد الأول والمجلد الثاني لتجاربي وبحوثي، إنهما سجل حافل لكافة ما قمت به من أعمال منذ بدأت كل شيء .

الأول بخطي، والثاني بخط ربيبتي.. وأما المجلد الثالث، الذي تركته لك بحجرتك، فسوف تقوم أنت بإعداده من مادة بحوثي، وبخطك أنت .

واقترب الدكتور حليم مني وهو يفتح صفحات المجلد الأول يهم أن يريني إياها، حينما ظهر فجأة تابعه مرزوق، الذي أقبل مسرعًا واقترب منه ليهمس في أذنه شيئًا. وقطب الدكتور جبينه، وقد ارتسم على وجهه اهتمام بالغ .

ثم مال عليه وسأله بصوت خفيض :

. هل أنت متأكد؟

t.me/qurssan

هز التابع رأسه في ثقة :

. كل التأكيد يا سيدي .

فقال الدكتور، وهو يدفعه بيده تجاه الباب :

. حسن.. اذهب أنت ولا تتركه وسأتبعك حالًا .

وبينما انطلق مرزوق مبتعدًا، استدار الدكتور إليَّ وقال، وهو يُسقط المجلدين في حجري بعجلة :

. هاك سجل أعمالي.. أرجو أن تقرأه جيدًا، وإذا استعصى عليك أمر فيه فإنني رهن إشارتك.. أما الآن فأستأذنك لإنجاز عمل طارئ .

ولم ينتظر سماع ردي، وإنما جاءني صوته يضيف، وهو يوشك على التواري تحت العقد الحجري الذي جاءت منه زين :

. وسنتقابل حتمًا على مائدة العشاء .

لكني، على كل حال، لم أكن غاضبًا لتركه إياي على هذه الصورة العجلى الجافية. فقد كانت ترقد بين أصابعي أفكار الرجل، تنتظر مني حكمًا عادلًا بعد قراءتها، إما في صفه أو ضده .

ولم أغضب كذلك حينما لم نتقابل على العشاء، حسب اتفاقه معي، فقد تعشيت في حجرتي وحيدًا، بل في الحقيقة، اختطفت لقمة خفيفة حتى أتفرغ كُلِّيَّة للعيش داخل دنيا الدكتور حليم صبرون.. وكم هي من دنيا حافلة بالعجائب .

t.me/qurssan

3

الأحد 21 يناير 1951

لولا كوب اللبن الذي شربته في ساعة متأخرة من ليلة الأمس، والذي أحضره مرزوق بناء على مشورة الدكتور، خوفًا عليَّ من معاودة الأرق، لولا تناولي لهذا الكوب الدافئ الدسم، لظللت جالسًا بالشرفة أقرأ، على ضوء فانوس حجرتي، السطور المغرقة في الإثارة حتى صباح اليوم التالي .

على أنني، وقد استيقظت في الثامنة، بعد أن نمت حوالي خمس ساعات نومًا عميقًا بدون أحلام، ما زلت أحس انجذابًا كليًّا إلى المجلدين اللذين بحجري، ولا بد أنني نمت وأنا أحتضنهما بين ذراعيَّ .

وحين غادرت فراشي، وفتحت باب الغرفة على مصراعيه، وأنا أشكو صداعًا طفيفًا بجبهتي، فقد ظلت مع ذلك كلمات مجلدَي سجل أعمال الدكتور حليم التي قرأتها محفورة، كلمة وراء الأخرى، في قاع رأسي .

لقد حوت معظم صفحات المجلد الأول أفكار الدكتور المضطربة، وما كان يراوده من أمنيات غامضة بعيدة حول إطالة حياة الإنسان، وكيف بدأ يجد قبسًا ضئيلًا من نورٍ بعد حادثة انهيار الجليد على الدكتور «جان»، مساعد البروفسور «إيماك ».

وكيف أنه أغرق نفسه، منذ ذلك الحين، في دوامة من البحوث حول موضوعَي العقار المقاوم لتصلب الشرايين.. والبيات الشتوي لدى الحيوانات .

وبالنسبة للكشف الخاص بالعقار، فقد بدت كتاباته عنه عسيرة عليَّ، فهي مجرد رموز ومعادلات كيميائية وحسابية لم أفهم منها شيئًا بالمرة. غير أن كلامه عن البيات الشتوي لدى الحيوانات كان واضحًا شيقًا، فقد وصف فيه أن بعض الحيوانات، مثل الدب القطبي، حين تواجه، شتاءً، محنة العجز في الطعام، فإنها تخلدُ

t.me/qurssan

إلى السبات العميق حتى ينتهي هذا الفصل القارس. وهي في خلال سباتها تقلل شعلة الحياة فيها إلى قدر ضئيل للغاية، فتبطئ ضربات قلبها إلى ضربتين في الدقيقة، وينقصُ تمثيلها الغذائي إلى خُمس معدله .

وتدرج الدكتور حليم في مذكراته إلى فكرة مستوحاة، فراح يتساءل في واحدة من الصفحات الأخيرة بمجلده الأول، وهي صفحة 407، بقوله :

2 أغسطس 1943 ـ فتحت ثلاجتي التي تعمل بألواح الثلج العادية، لأحصل على جرعة من الماء البارد تُخفف عليَّ وطأة الحرارة في هذه الأمسية القائظة من شهر أغسطس.. وبينما أنا أصب الماء من الزجاجة المثلجة، إذ بفكرة تطرأ عليَّ.. الثلاجة تبرد اللحم أيًّا كان نوعه لتحفظه من التلف.. واللحم المبرد هو بالطبع لحيوانات مذبوحة أو ميتة .

فهل في الإمكان التوصل يومًا إلى حفظ الجسم الحي؟

ولقد فتح السؤال آفاقًا جديدة أمام بصري.. آفاق عالم براق حافل بالآمال العراض.. ولكنْ إلى أي مدى سوف يمكنني تحقيق هذه الآمال؟

وفيما عدا ذِكر بعض التجارب المحلية، كمراقبة البيات الشتوي لدى أنواع من الضفادع والثعابين المصرية، ومعرفة كيفية تغذيتها خلال فترات هذا البيات التي قد تطول إلى خمسة أشهر، فإن المرحلة الأولى من تجارب الدكتور قد انتهت بنهاية صفحات مجلده الأول، وعددها 440 صفحة من القطع الكبير . استغرقت كتابتها ست سنوات (من مارس 1941 إلى مارس 1947). وحاولت أن أستمر في القراءة، بالرغم من تأخر الليل، عبر صفحات المجلد الثاني، إلا إن مرزوق وكوب اللبن حالاَ دون إرهاقي في السهر أكثر مما فعلت .

على أنني أجدني صبيحة اليوم في أحسن حالاتي الذهنية، استعدادًا لكي أنهل المزيد من تجارب التجمُّد بالتبريد، عدو

t.me/qurssan

الإنسان القديم، الذي قد تحوله الأفكار العبقرية إلى أداة علمية تفتح طريق إطالة الحياة، ربما إلى المئات أو الألوف من السنين .

وبعد أن اختطفت إفطارًا خفيفًا في حجرتي، أسرعت بتناول المجلد الثاني من سجل أعمال الدكتور حليم، والذي كُتبت سطوره بخط ابنة أخيه، زين.. وانزويت في جلستي بالشرفة، وقد ازداد استمتاعي بمرأى الحروف المائلة التي خطتها أصابع موسيقية مرهفة .

تضمنت الصفحات الأولى من هذا المجلد إجراء بعض التجارب الأولية على أنواع مختلفة من النباتات، جرى تبريدها في بواتق تحت درجة 14 مئوية تحت الصفر. وكانت ملاحظات الدكتور حليم على السائل النباتي، «البروتوبلازم»، الذي يندفع في حركة دورية في النباتات كلها دون استثناء، أنه قد تحول إلى كرات صغيرة عندما بردت، ومع عودة النباتات إلى حرارتها الطبيعية، عادت هذه الكرات إلى الاندماج، وتحولت ثانية إلى نفس السائل الذي راح يقوم بسابق حركته الدورية العادية .

وبتاريخ أول أكتوبر عام 1949، سجل الدكتور حليم إجراءه لأول تجربة تبريد على الحيوان. فقد استطاع أن يجمد سمكة ضخمة من أسماك البحر الأحمر من نوع المرجان، عقب صيدها مباشرة، وحين أعاد السمكة إلى حرارتها الطبيعية، بعد تجمُّدها لمدة 42 ساعة كاملة، فإن الحياة دبت فيها فجأة، وعاودت السباحة خلال ثلاث ساعات في حوضها البلوري، وكأن شيئًا لم يطرأ عليها. وأجرى الدكتور، حسب ما قرأته في صفحات تالية، المزيد من تجارب التبريد على أنواع أخرى من الأسماك، ثم على بعض الحيوانات البرمائية مثل السلاحف، كذلك أجرى تجارب على بعض أنواع السحالي، والثعابين، والضب الصحراوي. وكانت نسبة النجاح 100%، فيما عدا تجربتين فشلتا، ربما لقصور في الإعداد .

وفي صفحة 128 من المجلد الثاني، وضع الدكتور حليم أول قانون لنظرية التبريد، وكان تاريخ وضعه ديسمبر 1949. إذ كتب تحت هذا التاريخ يقول :

t.me/qurssan

أثبتت التجارب العلمية التي قمت بها أثناء السنوات الثماني الماضية أن التبريد السريع لأي مادة يجعل جزيئاتها في حالة تثليج موضعي أي في حالة استقرار تام. فإذا ما قمنا بحفظ جزيئات مادة ما حفظًا دائمًا، ابتداءً من درجة حرارة الصفر المطلق، فإن ترتيبها في الفضاء يظل ثابتًا، لا يتحرك، حيث إنها عديمة الحرارة، ومن المعترف به علميًا أنه لا توجد حركة بلا حرارة .

كم هو رائع ومثير للمشاعر والأحاسيس، أن يكون المرء أول من يصل إلى شيء بعينه ظل حتى لحظة وصوله مجهولًا غير معروف .

كم هو مبهج للنفس، وعظيم في مغزاه، حين يعمل المنقب والمكتشف والباحث الأيام والليالي الطوال، حتى إذا ما فاز الواحد منهم بهدفه الأخير، نسي في ثوانٍ كل ما سبق وتحمله من مشاق .

هؤلاء المكتشفون الجغرافيون، كم من المرات حبسوا أنفاسهم وهم يشاهدون، لأول مرة، منظر الطبيعة البكر حول منبع نهر من الأنهار، فنسوا على الفور ما تعرضوا له من أهوال وأمراض إبان سفرهم. ومتسلقو الجبال، كم قطعوا من الأميال صعودًا وسط الأعاصير والأنواء القاتلة، في سبيل أن يلقوا نظرة واحدة من أعلى القمم الجرداء .

والأثريون، كم بدورهم بُهرت أبصارهم لمرأى الكنوز الدفينة، داخل الأقبية والممرات الخفية، التي تركها الأقدمون، بعد أن كاد اليأس يسحقهم من كثرة ما بذلوا من جهود وراء التنقيب عليها .

هكذا، اندفع الباحث والمكتشف والمنقب والصحفي والفضولي، الكامنون في أعماقي، بلا حدود، واندفعتُ أجري لهثًا معهم وراء كل كلمة وكل سطر احتوت عليه جلدتا غلاف المجلد الثاني. ومرة أخرى، كم هي دنيا مليئة بالعجائب، دنيا الدكتور حليم هذه. ومع مطلع عام 1950، بدأ الدكتور يُجري تجاربه على الضفادع، فبَرَّدها بين درجتي حرارة 280 و520 مئوية تحت الصفر، ثم برد

t.me/qurssan

القواقع في درجة 120 مئوية، والبكتيريا وحشيشة البحر، وبعض أنواع الطحالب الحمراء، وبعض سرطانات البحر، في درجة 110 مئوية تحت الصفر، وكانت جميعها تعود إلى الحياة عندما تستعيد حرارتها الطبيعية .

وقادته تجاربه إلى تبريد فصائل متباينة من عناكب الأشجار، وبعض الفئران الجبلية، وفأرة بيضاء صينية المولد، وكذا كبد دجاجة رومية نُزع توًّا من بين أضلاعها. وقد نجح في إعادتها كلها بعدئذ إلى حياتها السابقة دون أي مضاعفات .

على أن أول تجربة أجراها الدكتور حليم على حيوان مشابه للإنسان كان مصيرها الفشل التام. فقد أعد جهازًا صغيرًا محكمًا من الصاج يسع أرنبًا بريًّا، وجعل للجهاز جدارًا مزدوجًا بين شطريه فراغ وضع فيه سائل الهليوم .

وحين بدأ في تبريد جسم الأرنب، لاحظ اختلاجًا شديدًا يعتري أطرافه، وحين أعاد الحرارة الطبيعية إليه، عقب مرور يوم كامل من التبريد، وجد أنه يعيدها إلى جثة الحيوان بعد أن فارقته الحياة .

وأجرى التجربة مرة ومرتين وثلاث مرات على أرانب أخرى، ولكنها كانت تهرع إلى الموت، إثر اختلاجات تعتري أطرافها بمجرد البدء في تبريدها. وراح الدكتور حليم يتساءل في حيرة مُرَّة عن السبب في فشل تجاربه الأخيرة، وهنا تذكر العقار الذي كان يجربه البروفسور «إيماك» لمقاومة مرض تصلب الشرايين، وكان يعرف معادلات تركيبه، بل وكان قد أدخل عليها بعض التحسينات .

وذات يوم حقن الدكتور كمية مناسبة من العقار في وريد أرنب جديد. وسرعان ما نجحت التجربة نجاحًا أكيدًا باهرًا. لقد أمكنه، في هذه المرة، أن يعيد الأرنب إلى حياته الطبيعية السابقة، بعد أن ظل جسمه مجمَّدًا في جهاز التبريد لأكثر من يوم ونصف. وأطلق الدكتور حليم على العقار المُحسن منذ هذه اللحظة اسم «الإكسير الوردى واهب الحياة تحت تجمُّد الصفر المطلق» .

t.me/qurssan

ومختصرها، «الإكسير و. و. ح. ص» . كما أطلق على جهاز التبريد الصغير اسم «حليم رقم 1 ».

وبنجاح هذه التجربة، عاد الحظ يبتسم له من جديد، فنجحت بعدئذ تجاربه في تبريد أرانب برية، وبلدية، وعدد من الكلاب والذئاب والفئران لمدد أكبر، وصلت لعدة أيام. كذلك أمكنه أن يحتفظ، لمدة 6 أشهر، بقطعٍ من أعصاب الأطراف الخلفية للحيوانات مجمَّدة في درجة حرارة 40 تحت الصفر. وسجل الدكتور حليم في كثير من الزهو على الصفحة 206، بتاريخ أبريل 1950، قانونه الثاني حول نظرية التبريد، وفيه يقول إنه :

لكي تعود الحياة إلى الحيوانات المبردة، يجب أن يتم تبريدها بصورة سريعة للغاية، وفي كافة أجزاء جسمها في وقت واحد وجيز، لأن ترتيب جزيئات الجسم لا بد أن يظل ثابتًا، حتى تستمر التفاعلات الكيميائية والطبيعية في الجسم كما هي، قبل التبريد وبعده. وبذلك يمكن لهذه الجزيئات أن تستمر في تفاعلها بعد عودة الحرارة الطبيعية ثانية إليها، وتبقى فيها خاصية الحياة، أو الحياة نفسها. وبما أن التفاعلات الكيميائية في الجسم يبطل عملها في درجة حرارة منخفضة جدًّا، مثل درجة 268 مئوية تحت الصفر، فإن المادة الحية ستسكن في هذه الدرجة وهي محتفظة بجميع خواصها .

على أن القلق عاد يتضح في كتابات الدكتور عن تجاربه التالية، وكأنه كان يخشى عواقب استمرار تقدمه فيها. فقد راح يتساءل في أكثر من موضع، وهو يقف على أعتاب عالمه الجديد متردد الخطى، مبهور الأنفاس :

الآن وقد أثبتت تجاربي استطاعة تبريد العديد من الحيوانات الكبيرة الشبيهة بالإنسان، ولمدد طويلة تزيد على الشهرين وقد تمتد لأعوام، ثم إعادتها إلى حياتها الطبيعية العادية بعد ذلك.. فهل من الممكن تطبيق نفس النظرية.. على الإنسان الحي؟ هل من الممكن تجميده لمدد طويلة دون أن يتسبب التجمُّد في هلاكه؟

t.me/qurssan

وكانت الفكرة في حد ذاتها بالغة الجرأة والخطورة .

وقرر الدكتور حليم أن يُجري تجربة نهائية قبل أن يبتَّ برأيٍ قاطع في الموضوع. وكانت التجربة على واحد من ثلاثة قرود شمبانزي، سبق أن اشتراها من أحد الهواة الأجانب الذين رحلوا عن مصر منذ فترة وجيزة .

أعد الدكتور حليم جهازًا أكبر لتبريد القرد، سماه «حليم رقم 2»، وكان الجهاز مزدوج الجدران كذلك، ويحتوي على سائل الهليوم. وقبل إدخال القرد في جهاز التبريد وإغلاقه عليه، قام الدكتور بحقنه بالإكسير الوردي في وريد ذراعه اليسرى .

وفشلت التجربة، فقد مات القرد بعد 12 دقيقة من بدء تبريده. وكانت صدمة أليمة لأفكار حليم التي ارتطمت بجدار أصم لا يدري كنهه، صدمة قاسية لآماله وهو على أعتاب النصر النهائي .

وكتب الدكتور حليم في كلمات تقطر أسى، في الصفحة 313 من مجلده الثاني، تحت التاريخ يونيو 1950، هذه المذكرة المختصرة :

لقد اتضحت لي الآن هذه الحقيقة ناصعة كالشمس، وهي توشك أن تقوض كل أحلامي وكل ما بذلته من عرق طيلة السنوات الماضية.. أن جسد الإنسان من الضخامة بمكان، حتى إنه يستحيل تبريده دفعة واحدة، وفي الحال، إذا ما وضِع في جهاز تبريد يماثل الجهاز «حليم رقم 1»، ويكبره في الحجم.. فإن الأمر يتطلب عددًا من الدقائق، قد يصل إلى 12 دقيقة، قبل أن يتم تبريد جميع أجزاء الجسد، وهذه مدة كافية لكي تتسبب أثناءها القوى المختلفة، الناتجة من تغيير درجات الحرارة في جزء من الجسد دون الآخر عند التبريد، في تلف بعض الخلايا البشرية ودفعها للانفجار.. وبذلك يختل التوازن الدقيق بين جزيئات الجسد وأنسجته، فيموت بالنزيف الدموي الداخلي .

وفي صفحة 354، تخبط الدكتور حليم، فراح يدون بخط ابنة أخيه، الموسيقي المائل الحروف، هذه الكلمات المحمومة :

t.me/qurssan

ها هو ذا شهر سبتمبر يهل، دون أن أتوصل إلى نتيجة شافية بصدد تجاربي على القرَدة.. فمنذ يونيو الماضي حتى تاريخه، وقد مرت ثلاثة أشهر، أجدني في نهايتها أقف على نفس الطريق الوعرة بلا نتيجة، ودون أن أتقدم خطوة واحدة للأمام.. بل إنني في الحقيقة قد تأخرت كثيرًا إلى الوراء، فقد ماتت القرَدة الشمبانزي الثلاثة التي أملكها خلال ثلاث تجارب لم أخرج منها بشيء ذي قيمة .

لقد انهار الجبل الجليدي أمام بصري على الطبيب «جان» فدفنه تحت ثراه في ثوانٍ، وحين أُخرج جثمانه مجمَّدًا، بعد ما يزيد على 24 ساعة، من مكان أسره، كان لا يزال يردد أنفاس الحياة. وذلك بفضل جرعة «الإكسير و. و. ح. ص» التي دخلت وريده فضمنت لدمائه التبريد الفوري، جنبًا إلى جنب مع تجمُّد أجزاء جسده، وضمنت لخلايا مخه التغذية عقب انتهاء فترة سباته اللاإرادي في فراش التجمُّد .

هذا ما حدث للطبيب الشاب، وكنت أحد شهوده القلائل. فلماذا الآن تموت القرَدة الثلاثة بالرغم من تبريدها في نفس الظروف التي مرت بحادثة تبريد «جان» وخروجه منها حيًّا؟ هل تُراني قد أخطأت، ولو خطأ يسيرًا خلال تجاربي على القرَدة؟ أو تُراني قد نسيت شيئًا طفيفًا أدى إلى موتها؟ أو أن خروج الطبيب «جان» حيًّا، بعد تبريده تحت ثرى الجبل الجليدي، كان سببه مختلفًا لم أهتدِ إليه بعد؟

على أنني ما زلت أصرُّ على نظريتي التي توصلت إليها، وأتشبث بكل حرف يكوِّن المبدأ العلمي السليم، وهو: «إن تبريد جسد الإنسان لمدد طويلة ليس بالأمر المستحيل حدوثه، طالما وجدت الطريقة المثلى لتبريده دفعة واحدة وفي وقت واحد.. وكذلك فعل نفس الشيء حين تُعاد إليه حرارته الطبيعية، فإنها يجب أن تُعاد دفعة واحدة، وفي وقت واحد، لكافة أجزائه وخلاياه ».

وإلى هنا انتهى المجلد الثاني بدوره، بعدد صفحات بلغت 388 صفحة من القطع الكبير أيضًا. استغرقت كتابتها أربع سنوات إلا

t.me/qurssan

أربعة أشهر (من مارس 1947 إلى نوفمبر 1950).

*

الاثنين 22 يناير 1951

لم أستطع اليوم مواصلة الكتابة في يومياتي الخاصة، لإصابتي بنزلة برد طفيفة. وقد أمضى الدكتور حليم معي في حجرتي بعض الوقت، حيث اعتكفت بها في المساء .

وقد انتهزت الفرصة لمناقشته في بعض نقاط بحوثه التي جاء ذكرها بالمجلدين الأول والثاني من سجل الأعمال، وامتد بيننا الحديث طويلًا، ليشرح لي ما غمض عليَّ فهمه من وجود فارق كبير بين كلٍّ من البيات الشتوي لدى الحيوانات، وبين التبريد الصناعي. ففي الأول، يظل الحيوان حيًّا، وهي عملية حيوية يتم خلالها تزويد الحيوان بالتغذية تلقائيًّا عن طريق ما يختزنه جسمه من دهن وشحومات. أما بالنسبة للتبريد، فهو حالة تشبه التوقف عن الحياة أو التوقف بالنسبة للزمن، لذلك فلا يحتاج الحيوان أو الجسم المبرد لأي نوع من التغذية خلال فترة تجمُّده بالتبريد .

وفي نهاية الحديث، اتفقت مع الدكتور على بدء تسجيل المرحلة الثالثة من تجاربه على صفحات المجلد الثالث من السجل ابتداء من بعد الغد. كما أنه أشار عليَّ بتناول نوع من الأدوية السائلة لمقاومة البرد، أعاد إليَّ قواي. وقد أويت إلى فراشي مبكرًا عن ميعاد نومي، بعد أن تناولت الدواء مع كوب اللبن الساخن، والذي أحضره إليَّ مرزوق دون أن نتبادل سوى تحية المساء .

*

الثلاثاء 23 يناير 1951

صحتي اليوم على ما يرام ولا أثر للنزلة البردية التي عانيت منها بالأمس، وقد تناولت إفطاري بشهيتي الكاملة. وكنت أحسب أنني وحدي الذي أتناول إفطاري وعشائي منفردًا بحجرتي منذ

t.me/qurssan

حضوري إلى فيلّا الجبل، ولكني علمت اليوم من مرزوق أن الدكتور لا يتناول الطعام عادةً مع قريبته إلا في فترة الظهيرة .

وخلال جولة سريعة في الحديقة حول الفيلّا، وبعد أن سألت كلًّا من مرزوق وعبده أسئلة مباشرة وغير مباشرة، استطعت أن أكوِّن فكرة مبدئية عن جغرافية المكان، أظن أنها لن تختلف كثيرًا عن الواقع .

فالفيلّا تنقسم إلى جناحين، أحدهما يطل على الجهة الجنوبية بحجرتين للنوم ودورة مياه، ويليها شمالًا ممشى طويل، ثم القاعة الرئيسية المستطيلة في منتصف الفيلّا، ثم ممشى ثانٍ طويل يشرف على الجناح الشمالي منها، والذي يضم كذلك حجرتين، إحداهما للنوم وهي التي أستعملها، والأخرى للجلوس ودورة مياه ثانية. وتربط الجناحين من الواجهة الرئيسية الغربية ثلاث حجرات صغيرة، أوسطها المدخل الرئيسي للفيلّا، وعلى جانبيه حجرتا المكتبة. كذلك تربط الجناحين من الخلف ردهة مستطيلة تطل على حجرات ثلاث خلفية بُنيت لصقًا في الجبل الذي يحد الفيلّا شرقًا .

وهكذا تبدو الفيلّا، بجميع حجراتها، آخذة شكل مربع ضخم تتوسطه القاعة الرئيسية المستطيلة وحولها الممشيان شمالًا وجنوبًا والردهة شرقًا، ثم حجرتان شمالَي وجنوبَي الممشيين، وثلاث حجرات شرقًا ومثلها غربًا. على أن كل ما كان مسموحًا لي بارتياده، داخل جدران هذا المربع الضخم، لم يكن يزيد على حجرتَي الجناح الشمالي، وحجرتَي المكتبة الأماميتين مع الممشى الذي يربط هذه الحجرات معًا حتى دورة المياه الشمالية. وأما حجرة المعمل فقد علمت أنها تَجثم وراء ذلك الباب الحديدي الثقيل الملاصق لدورة المياه، في نهاية ممشى الجناح الذي أقطنه، محفورة في قلب الجبل الأصم .

غير أنني، وقد كنت أستعمل دورة المياه الشمالية، وأرى الباب الحديدي أكثر من مرة في اليوم، لم أصادف قَطُّ الدكتور حليم يلجه أو يخرج منه، فهل تراه يجتاز حاليًا فترة ركود في أعماله..

t.me/qurssan

أو في أفكاره؟ ولماذا لم أره طيلة اليوم إلا لفترة وجيزة، أمضيناها على مائدة الغداء، ظل خلالها شاردًا بعيدًا عن الجالسين معه؟ وسواء كان عقله مشغولًا في حجرة معمله أم مشغولًا في شيء آخر، فإنني احترمت صمته، فلم أبادره بسؤال يقطع عليه حبل تأملاته .

على أن نفس السلوك لم أكن لأسلكه حيال زين، فبقدر ما كنت أراقب الدكتور من طَرْف خفي، بقدر ما كنت أتشوق للقاء قريبته وربيبته على انفراد، لأبثها حديثًا طويلًا .

ولقد سنحت لي الفرصة قبيل غروب الشمس، وخلال تجوالي في الحديقة تحت شرفة حجرتي.. فعلى حين غرة رأيت زين أمامي، وقد بدت أشد نضارة وتألقًا مما أراها على مائدة الطعام، وكانت أشعة الغروب تزيد في احمرار خديها، حتى بدوَا كتفاحتين تريدان القطاف .

وكعادتها همت بالفرار من طريقي، ولكني أسرعت بمد يدي أقبض بها على ذراعها البضة لأجبرها على الوقوف، وقلت لها :

. لن تستطيعي الهرب هذه المرة .

وتمتمت، وقد استكانت لقبضتي :

. ماذا تريد مني؟

أسرعت أقول، وعيناي تلتهمان وجهها :

. الكثير.. الكثير جدًا .

وانسابت الكلمات رقيقة من شفتيها :

. هلَا تركت ذراعي أولًا.. فإن العيون هنا أكثر مما تتصور .

فأطلقت ذراعها ببطء :

. على ألا تهربي .

. أعدك.. لن أكررها .

t.me/qurssan

قالتها، ثم تطلعت إليّ وقد تشابكت أصابعها في براءة الأطفال، ورفعت ذقنها، لأرى أوسع وأجمل عينين تتأملاني في استكانة، وعبر هاتين العينين الزرقاوين رأيت عمق البحر وصفاءه. ووقفت بدوري مسمرًا أمام حسنها العذري الحزين، وقد تحجرت الكلمات في فمي، واختفى من ذاكرتي ما كنت أود قوله لها منذ أيام وأيام .

هذه الإنسانة التي لا أعرف عنها إلا اليسير من المعلومات، والتي لا يربطني بها أي رباط، ما بال صورتها لا تفارقني منذ أول لقاء بيننا؟ هذه التي ومضت في حياتي كضوء الشهاب، ما بال ضوئها يصبح بالنسبة لي كل ما في الكون من ضياء؟

وأحست بنظراتي تعانقها، فاكتسى وجهها بحمرة الخجل وطأطأت برأسها إلى الأرض، ثم قالت في صوت يكاد لا يُسمع :

. لم تقل لي شيئًا بعد؟

وقلت لنفسي: ماذا تريد أن تقول؟ ألم يكفها أن عينيّ تهمسان إليها، تفصحان بما لا يجرؤ على قوله لساني؟ على أن الكلمات ترددت مني عالية، وأنا أبذل جهدي حتى تبدو نغماتها طبيعية :

. هناك ما أود معرفته عنك.. وعن الدكتور.. وعن حياتكما، وحياة هؤلاء الرجال أتباع الدكتور، في هذا المكان القفر النائي عن المدينة .

تفرست في وجهي وسألتني :

. وهل لي أن أسأل عن سر اهتمامك؟

قلت بسرعة :

. أبدًا.. مجرد فضول لمعرفة المزيد عمن أتعامل معهم.. فلا تنسَي أن سبب مجيئي إلى هنا هو أن أعمل مع قريبك الدكتور.. وأن أتعامل مع أهل الفيلّا .

ولم تتمالك نفسها فقالت بعصبية :

t.me/qurssan

. ولماذا قبلت؟

. ماذا؟

. العمل مع عمي.. لماذا أتيت إلى فيلّا الجبل؟

. وماذا في ذلك؟ أنت تعيشين فتاة وحيدة بين مجموعة غريبة من الرجال.. على الأقل أنا رجل مثلهم .

أولتني ظهرها لتسير ببطء بضع خطوات إلى الأمام، واقتربتُ منها، فسمعتها تهمس دون أن تلتفت إليّ :

. إن ظروفي تختلف يا أستاذ كامل.. أنا هنا، وكما تراني شبه سجينة.. أو تائهة.. أو منسية .

فقلت مستدركًا :

. أرجو ألا تسيئي فهمي.. إنني ...

لكنها قاطعتني :

. ولِمَ أُسيء فهمك؟ إنني أصف لك فعلًا الفتاة التي أكونها.. إنني إنسانة ليس لها حاضر.. ولا مستقبل .

وازداد صوتها خفوتًا :

. ولم يكن لي قَطُّ ماضٍ من أي نوع، ولو سيئًا.. إنني حتى .. لا أتذكر ملامح أبي ولا أمي.. ولم أرَ أحدًا من أقاربي .

وصمتت برهة لتضيف في حقد :

. لا أذكر أحدًا سواه هو.. عمي حليم.. صاحب هذه الفيلّا.. صاحب.. هذه الإمبراطورية .

سألتها :

. وهل هو أخ لأبيك بالفعل؟

أجابت :

t.me/qurssan

. لا أدري.. إنني فقط أناديه بهذه التسمية منذ سنين بعيدة، منذ حداثتي .

وهممت بالتكلم، ولكنها أسكتتني بإشارة من يدها :

. أرجوك دعني أهنأ فترة بالبوح، ولو عن القليل مما أكتمه في صدري .

فقلت مؤكدًا في عطف :

. بالتأكيد، إنني كلي آذان صاغية لك .

وعادت توليني ظهرها، فأرى خطوط كتفيها، إلى خصرها، إلى ساقيها بديعتَي التكوين .

قالت :

. هو يسميني دائمًا بطفلته، وإن كانت معاملته لي مبهمة منفرة. أما هم.. رجاله.. فإنهم يعاملونني على مضض، وكأنني امرأة ساحرة خطرة فرضتني الأقدار عليهم.. وأما عن تجارب عمي، فقد اتسمت بالغموض الشديد في الآونة الأخيرة.. وهم جميعًا يتحاشون إشراكي في أسرارهم .

قلت في أسى :

. أرى أن وجودك وسط هذا الجو لا معنى له .

. تمامًا، فأنا بينهم منبوذة.. تائهة.. إنني شخص أرغموه على أن يوجد بينهم، بينما هو من دنيا غير دنياهم !

. حَمَل وديع بين قطيع من الذئاب .

وكزَّت على أسنانها وهي تكتم صرخة يائسة :

. ولكني أبدًا لست منهم.. إنني أكرههم.. أكرههم كلهم بمن فيهم ذلك العم.. عمي.. والآن أرشِدني إلى أين يمكنني الفرار؟

وصمتُّ أفكر، بينما قالت وهي تهز رأسها :

t.me/qurssan

غير أنني رفعت رأسي لأقول في ثقة، وأنا أتأمل ضفيرتها اللامعة تحت الأشعة الغاربة :

ـ بل لا بد من وجود أجوبة عديدة.. أنا مثلًا.. سبب حضوري الرئيسي إلى هنا.. من أجلك .

تساءلت :

. كيف؟

قلت :

. منذ لقائنا الأول في «الست خضرة» وأنا لا أنساك لحظة واحدة.. أتذكرين ذلك اللقاء؟

همست :

. بالطبع .

أردفتُ :

. ومنذ ذلك اليوم وأنا أحس شيئًا قويًّا يشدني إليكِ.. فقد قرأت نظراتك وفهمت منها الكثير، وحينئذ قررت ألا أتخلى عنك قَطُّ.. فبحثت عنك حتى عرفت أنك تعيشين هنا.. وصدقيني لو لم يسارع عمك بتقديم عرضه عليَّ، لما عدمت وسيلة أخرى للوصول إلى جوارك .

كانت تحدق في وجهي بعاطفة لم تقوَ على إخفائها، وحين انتهيت من كلامي، لم تزد على الهمس إلا بكلمة واحدة :

. أشكرك .

قالتها، فإذا بها تحوي كل معاني الدنيا من العرفان بالجميل، ثم أضافت وقد عاودها الاكتئاب فازدادت ملامحها ملاحةً وجمالًا :

ـ ومع كلٍّ فلن أغفر لك مجيئك إلى فيلَّا الجبل.. إنك لا تُقدر

t.me/qurssan

خطورة الخطوة التي أقدمت عليها .

فسألتها بلامبالاة :

. كيف.. وأنا لم أسئ إلى أحد منهم؟

. يكفي أن تعرف أسرارهم .

اعترضت :

. ولكني.. لم.. أعرف ما يشينهم !

على أنها أصرَّت على موقفها :

. قلبي يحدثني أن عملًا شاذًّا يصهرهم في بوتقة واحدة .

وعدت أجادلها :

. لنفرض أن كلامك صحيح.. فماذا في مقدورهم أن يفعلوا بي؟

غطت وجهها بكلتا يديها، وقالت في صوت مخنوق :

. لا أدري.. لا أدري.. إنني فقط أحس شيئًا يحمل رائحة الموت يوشك على الوقوع .

. إنها بلا شك أوهام الوحدة.. وتخيلات المعيشة الرتيبة، ومرأى تلال الجبل القاتمة التي تحيطكِ .

رفعت إصبعها الدقيق محذرة في حركة حزينة جزِعة :

. أبدًا يا أستاذ كامل.. إن حواسي لم تخدعني قَطُّ .

ومددت يديَّ أقبض بهما على يديها في حنان :

. هوني عليك يا زين.. وثقي في اللّٰه وفيَّ.. فقد وضعت نصب عينيَّ تأمين سلامتك قبل كل شيء .

وهمست، وأصابعها الرَّخصة تدفئ أصابعي :

. أنا أخاف عليك منهم .

t.me/qurssan

وتمتمت بدوري قرب وجهها :

. وأنا لا يهمني شيء سواكِ .

لكن يبدو أنها قد تذكرت ما أرسل الرعدة في بدنها، فقد أسرعت بسحب يديها من راحتي، وأخذت تردد في عصبية، وهي تتلفت حولها بتوجس وذعر :

. أرجوك.. يجب أن أغادرك الآن .

دهشت لسلوكها :

. إن حديثنا لم ينتهِ .

ولكنها أصرَّت وقد تَجهَّم وجهها :

. بل لا بد أن ينتهي .

ثم أضافت بصوت بالغ الخفوت :

. ألم أخبرك؟ لقد حرم عليَّ عمي.. الدكتور.. أي اتصال بك .

فأحسست بالضيق وقلت :

. وما السبب؟

. لم يذكر لي .

تمتمت برغمي :

. تصرُّف غريب .

بينما قالت لي، وهي تهم بالابتعاد :

. والآن لنفترق وإلا لَحظوا غيابي فيبحثون عني .

. ومتى نتقابل ثانية؟

. دع ذلك للظروف .

احتججت وأنا أمد يدي إليها وكأنني أنشد إعاقتها بطريقة ما :

t.me/qurssan

على أنها كانت قد اختفت وراء الجانب الآخر من بناء الفيلّا، تاركة إياي أفكر في التصرف الجديد للدكتور حليم. ومع أني لم أصل لتفسير أكيد له، إلا إنني رجحت أن الأمر قد لا يعدو مجرد سلوك عادي حيال شخص دخيل على مسكنهم، أو وكرهم النائي، وسط تلال المقطم، شرقي مدينة حلوان .

t.me/qurssan

4

الخميس 25 يناير 1951

لم أكتب شيئًا في مذكراتي هذه يوم أمس، أولًا لانهماكي في مطالعة بعض الكتب التي أضافها الدكتور حليم مؤخرًا إلى مكتبته، ومنها موسوعة مختصرة عن بحوث أساتذة الجراحة الروس لإطالة الحياة، وثانيًا لأنني بدأت، مع حلول الظلام، في افتتاح المجلد الثالث من سجل أعمال الدكتور. وحتى نهاية نهار اليوم، كنت قد دونت سلسلة طويلة من النظريات والدراسات تختص بإمكانية تبريد الجسم الإنساني الحي في حدود درجة التجمُّد المطلقة، ثم إعادته إلى الحياة فيما بعد .

ولقد بدت معظم الصفحات التي دونتها غامضة ومبهمة وصعبة على إدراكي. ويبدو أن هذا الجزء كان من أهم وأخص أسرار الدكتور العلمية، فقد أملاه عليَّ في تأنٍّ وتركيز شديدين، وهو مدعم، جميعه، بالأرقام والرموز الجبرية وبعض الكلمات اللاتينية التي وجدت صعوبة في هجائها .

إلا إنه قد أمكنني أن أستخلص، من قليل من الجمل الميسرة لديَّ، أو من اصطلاحاتٍ سبق معرفتي لها، أن اهتمام الدكتور يدور حول مادة ثمينة ونادرة الوجود، سيقوم باستخدامها مستقبلًا في تغذية الكائنات المبردة، بعد أن تُعاد ثانية، عقب وَقْف تبريدها، إلى سابق حيويتها الطبيعية. وقد وجهت سؤالًا عرضيًا إلى الدكتور حليم، أستفسر منه عما إذا كان موشكًا على إجراء تجربة قريبة من نوع جديد، فأجابني شاردًا، وهو يتأملني وكأنه يرى من خلال شفافية جسدي إلى ما ورائي :

. أجل.. قريبًا .

ثم صمت برهة، ليضيف في لهجة باردة خلت من أي تعبير :

. ولسوف تكون تجربة مثيرة.. مثيرة .

وعدت أسأله :

t.me/qurssan

. أهي على واحد من البشر؟

وانطلق فمه بسرعة، وقد ركز نظراته على وجهي في حدة مخيفة :

. لا.. أبدًا.. ما الذي دعاك لتقول ذلك؟

قلت معتذرًا :

ـ بالطبع لا شيء.. ظننتها فقط هي خطوتك التالية لتحقيق نظرياتك .

وبدت الراحة في عينيه :

. هه.. آه.. معك حق .

ثم مد كلتا يديه يربت بهما على كتفيَّ، وهو يهمس في الوقت الذي يهم فيه بتركي :

ـ لا يزال أمامي شوط طويل.. وإن كنت على ثقة أن هدفي سيتحقق في النهاية.. سيتحقق ما أرجوه في النهاية .

*

الجمعة 26 يناير 1951

لا وقت لديَّ اليوم أيضًا لأضيف جديدًا إلى سطور المذكرات، فأنا لا أزال منهمكًا للذروة، ألاحق ما تردده نبضات عقل الدكتور على الورق، ساعة وراء أخرى، دون أي إحساس مني بمرور الوقت. وكانت السطور التي كتبتها عبارة عن إضافات حسابية ومعادلات كيميائية حول تركيب نفس المادة الثمينة التي بات واضحًا مبلغ اهتمام الدكتور بسرعة إعدادها .

على أنه تجدر الإشارة هنا إلى ملحوظة عابرة سها عليَّ تسجيلها في يومية الأمس، وأرى أنها جديرة بالفحص والتأمل .

فقد حدث خلال مطالعتي بمكتبة الدكتور حليم في الصباح،

t.me/qurssan

وبينما أنا أتناول واحدًا من كتبه من فوق رفٍّ مرتفع، إذ بأصابعي تلامس لفافة حُشرت وراء الكتاب الذي جذبته. وبدافع من الفضول أخرجت اللفافة أفحصها، فوجدتها تتكون من مجموعة جرائد لُفَّت بخيط أصفر زاهٍ في عناية فائقة. وكدت أعيد اللفافة إلى مكانها، حين لاحظت أنها نظيفة، بعكس ما يجاورها من كتب غُطيت بطبقة طفيفة من الغبار، مما يوحي بأن اللفافة وضِعت منذ فترة قريبة .

وزاد فضولي، ففضضتها، فإذا بها تحتوي على جرائد ثلاث. كانت أولاها «الأهرام» القاهرية، وأما النسختان الأخريان فكانتا لجريدة «التايمز» اللندنية. وتصفحت الجرائد الثلاث، فوجدت بداخل كلٍّ منها خبرًا معينًا رُسمت حوله دائرة بالقلم الرصاص .

وكان الخبر المحاط بدائرة الرصاص في عدد «الأهرام»، بتاريخ 11 مارس 1950، خبرًا مطولًا نصه كالآتي :

مؤتمر القاهرة للقانون الدولي ينتهي بكارثة . المؤتمر يفقد ثلاثة من أبرز علمائه إثر حادث سيارة مروع . النيران تلتهم أستاذًا مصريًا، وآخر فرنسيًا، وثالثًا يابانيًا، نتيجة تصادم ليلي في جدار بطريق الإسماعيلية .

ومن قراءة التفاصيل، عرفت أن العالم المصري هو الدكتور عبد الحميد المهيري وهو أستاذ في الفلسفة، والفرنسي هو الدكتور «روجيه مونسينيور» وهو أستاذ في علم الاجتماع، والياباني هو الدكتور «شوسومي أوكياما» وهو أستاذ في علم الأجناس .

وأما الخبر المحدد بالدائرة المرسومة بالقلم الرصاص في عدد «التايمز» الأول، وهو بتاريخ 4 يناير 1951، فقد كان مختصرًا، وهو يشير إلى اختفاء عالم الإلكترونات الإنجليزي «جودفري هوايت» في ظروف مريبة، خلال اشتراكه في مؤتمر للعلوم الإلكترونية عُقد بلندن في حدود التاريخ الذي صدرت فيه الجريدة . وأما العدد الثاني من «التايمز»، وهو بتاريخ 18 يناير سنة 1951 ، فقد كانت دائرة الرصاص تحيط فيه بخبر صغير عن اشتراك العالِم الروسي الكبير «فالنتين ستبانوفيتش» في مؤتمر

t.me/qurssan

طب الفضاء الذي سيعقد في برشلونة يوم 2 فبراير من الشهر القادم .

وإلى جانب إحاطة كل خبر من الأخبار الثلاثة بدائرة القلم الرصاص، فقد وضِع كذلك خط، بالحبر الأحمر الثقيل، تحت كل اسم من أسماء العلماء الخمسة الذين جاء ذكرهم . وحين طويت الجرائد الثلاث، وأعدت اللفافة إلى مكانها السابق على الرف، قفز سؤال غامض أمام عيني .

ترى ما صلة كلٍّ من العلماء الخمسة بالدكتور حليم؟ ولِمَ اهتمامه الظاهر هذا بكل واحد منهم؟

*

السبت 27 يناير 1951

استيقظت مبكرًا صباح اليوم على صوت عواء غريب، تسلل إلى أذنيَّ من الفرجة التي تركتها أثناء نومي مفتوحة في باب الشرفة، فإذا هو مزيج من النحيب واللوعة القاسية. ولم أتبين صوت الحيوان منذ الوهلة الأولى، فقد ظننته امرأة تنتحب، ولكني حين نفضت النوم عني تبينت في مقاطع الصوت عواء حيوان يتعذب .

وارتديت معطفًا فوق منامتي بسرعة، وخيل إليَّ، وأنا أفتح باب الشرفة في لهفة، أنني سأشاهد أحد ضباع الجبل واقفًا على تبة قريبة يطلق ذلك العواء، غير أنني رأيت منظرًا فريدًا يطالعني في أقصى الحديقة عند مجموعة حظائر حيوانات التجارب .

فهناك، أمام واحدة من تلك الحظائر، كان الدكتور حليم ينتصب تحت ضوء الفجر الشاحب، وهو يرتدي منامة قاتمة، بينما وضع على رأسه قلنسوة قطنية، ولف حول عنقه وظهره شالًا ثقيلًا بدا لونه رماديًّا عن بعد. وكان يحمل بيسراه ما يشبه الكيس الورقي، راح يتناول منه شيئًا بيمناه ليطعمه للحيوان الرابض خلف القضبان. واقتربت منه ببطء، فابتدرني قائلًا دون أن يستدير نحوي :

t.me/qurssan

. لقد أقلق حبشي منامك على ما يبدو؟

تساءلت :

. حبشي؟

قال وهو يومئ برأسه في اتجاه حظيرة مجاورة :

. هذا القابع هناك .

. تقصد أحد حيواناتك؟

انبرى يقول في صدق :

. بل هم أخلص أصدقائي .

ثم ألقى بقطعتين كبيرتين من اللحم النيء إلى زوج من الحيوانات المستطيلة تشبه النُّموس، وخطا يتجه رأسًا إلى حظيرة حبشي، وتقدمتُ بدوري من الحظيرة الواطئة المزودة بقضبان مربعة متينة. كان يربض بداخلها ذئب ضخم بالغ السواد، بدا في وقفته القوية المتحدية وكأنه تمثال بديع من الفحم، أو كأنه قطعة من سواد الليل تخلفت وسط ضوء النهار .

وبقي الذئب على جموده يراقبنا بعينيه المحمرتين، وقد لمع شعره القصير فبدا أملسَ بالرغم من خشونته، بينما راح يُخرج أنَّات متقطعة من بين أنيابه الحادة، وقد انطبعت في أغوار عينيه آيات أسى عميق .

قلت :

. يبدو أنه يعاني آلامًا يصعب تحملها .

فقال الدكتور، وهو يمد يده بداخل كيس اللحم :

. لقد أخذنا أنثاه إلى المعمل منذ برهة لنُجري تجربة عليها.. وهذا هو مصدر عذابه .

ولما لاحظ الدكتور أن الذئب لم يقرب قطعة اللحم التي ألقاها

t.me/qurssan

إليه، رأيته لدهشتي يمد يده من خلال القضبان إلى داخل الحظيرة، ثم يهمس في صوت عميق آمر، وهو يركز نظراته المسيطرة عليه :

. حبشي.. تعالَ هنا .

وانتفض الحيوان، ثم استقام، وراح يتقدم في ذلة، حتى سكن رأسه الضخم تحت يد الدكتور، وزادت دهشتي حين رأيت الدكتور يربت على رأسه في حنو دون أقل خشية أو وجل لما يحمله من أنياب شديدة الضراوة .

وتمتم الدكتور في شفقة صادقة :

. لا تبتئس يا حبشي.. سوف لا يمسها أي ضر.. إنها ستجتاز فقط تجربة بسيطة من أجل الإنسان.. من أجل البشرية .

ويبدو أن حبشي قد فهم تمامًا ما يعنيه الدكتور، فقد كف عن الأنين وهدأت أنفاسه، واختفت نظرة الألم من عينيه، في حين لوى فمه المستطيل وراح يلعق أصابع الدكتور في ألفة وسرور، مثلما يفعل أي كلب عادي .

وانتهزت الفرصة لأقول للدكتور :

. إذن فسوف تُجري تجربة اليوم على.. أنثى حبشي؟

تطلع إليَّ الدكتور وهو يبتسم :

ـ لقد بدأ الشطر الأول من التجربة بالفعل.. وسوف يتاح لك مشاهدة الشطر الثاني منها في مساء اليوم .

فهمست برغمي :

. أشكرك .

وقطب جبينه :

. وعلام الشكر؟

t.me/qurssan

. في الحقيقة.. إنني منذ ولجت هذه الفيلَّا وأنا جد مشوَّق لمشاهدة إحدى تجاربك العملية .

تفرس الدكتور في وجهي برهة، ثم عاد يقذف بقطعة من اللحم لحيوان آخر من فصيلة بنات آوى المصرية وهو يقول :

. إن مشاهدة تجاربي هي من صميم عملك معي يا كامل .

وأحسست بالخجل من اندفاعي :

. آه.. إنه فعلًا من أهم أعمالي لديكم .

ولم نتبادل المزيد من الحديث بعد ذلك، حتى انتهى من إطعام حيوانات تجاربه، وافترق كلٌّ منا إلى حجرته. وفي المساء، حوالي الساعة الثامنة، طرق مرزوق باب حجرتي يدعوني لمرافقته إلى حجرة المعمل، حيث الدكتور حليم في انتظاري هناك، ثم تقدمني ببطء في الممشى الشمالي وهو يسير رأسًا إلى المعمل. وحين فتح بابه الحديدي، المستقر في نهاية الممشى، استقبلتني من الداخل رائحة عطنة تثير الغثيان، على أنني وجدت المعمل متسعًا أكثر مما توقعت، كما اتضح لي أنه بالرغم من فظاعة رائحته وكثرة العِدد والآلات المنتشرة في أرجائه، فهو نظيف.. مرتب.. وعصري إلى حدٍّ كبير. ولما كان المعمل يمثل الجزء من الفيلَّا المنحوت في جوف الجبل، فقد وجدت جدرانه تتكون من بروزات طبيعية من الصخور الجيرية الرسوبية، ظلت دون طلاء على لونها الرمادي الأصلي .

ولم يكن هناك من جدار مبنيٍّ، سوى ذلك الذي يستقر فيه الباب الحديدي الذي نفذتُ منه، وهو بالتالي آخر حدود بناء الفيلَّا من نواحيها الشرقية .

كانت حجرة المعمل مربعة، تقارب أبعادها 4 × 4 أمتار، وتشبه في شكلها العام حجرة العمليات. فقد توسطتها منضدة مستطيلة مغطاة بغطاء من المشمع، ويعلوها فانوس مضاء من فوانيس الجاز، بينما أحاطت بها أجهزة قياس الضغط، وضخ الأكسجين، والتخدير، ورفوف المشارط، وآلات الجراحة، مع مجموعة كاملة

t.me/qurssan

من أوعية العقاقير والأدوية المختلفة. وفي مواجهة الحائط الصخري المقابل لباب المعمل الوحيد، جَثَم دولاب معدني له واجهة زجاجية اكتظت أرففه بأدوات الجراحة، وزجاجات الدم، والبلازما، والجلوكوز، ولفافات القطن والشاش وغيرها .

وشاهدت الدكتور حليم منكبًّا على جهاز «حليم رقم 2» الموضوع فوق المنضدة المتوسطة، وهو ذو جدران مزدوجة من الصاج المقوى تحتوي فيما بينها على سائل الهليوم المبرد، وكان الجهاز مزودًا من أعلاه وأسفله وجوانبه بعديد من الخراطيم المتصلة بأنابيب الغازات والأدوية .

وأحس الدكتور بمَقْدمي، فاستدار إليَّ وأمسكني من ذراعي ودفعني بعجلة إلى جهاز التبريد، وهو يشير بإصبعه نحو واجهة من الزجاج السميك تعلو الجهاز قائلًا :

. انظر يا كامل.. ها هي أنثى حبشي ترقد في سبات عميق وقد تجمدت تمامًا في صلابة لوح الثلج.. ولكنها.. ولكن هذه الذئبة الشهباء الجميلة ليست ميتة بمعنى الكلمة.. إنها فحسب ...

ووجدتني أقول بحرص، وأنا أزن كلماتي خشية الوقوع في الخطأ، وقد لفحتني برودة الجهاز :

. إن العوامل الحيوية، أو قل الحياة نفسها قد توقفت فيها الآن بالنسبة للزمن.. هي لم تمت.. ولكنها أيضًا لا تواصل الحياة.. وإنما يمكن القول بأنها حاليًّا في حالة «عدم مؤقت ».

وصاح الدكتور وهو يهزني مبتهجًا :

ـ بالضبط.. بالضبط.. إنك سريع الفهم يا عزيزي وهذا يعجبني فيك .

وكان وجه الذئبة يبدو من خلف الزجاج السميك، وقد حُجِب فمها وفكاها وراء آلة تشبه المروحة مُركَّب عليها خرطوم مزدوج عريض، بينما بدت الأذنان متخشبتين، كما ظهرت العينان وهما مغلقتان نصف إغلاقة. وأما بقية الجسم فقد توارى بأكمله داخل

t.me/qurssan

الجهاز نفسه، وإن أحسست ببرودته القاسية تتسلل إلى حنايا جسدي. ولم يكن يبدو على الذئبة المجمَّدة أنها تتنفس ذرة من الهواء، أو تتحرك أقل حركة ممكنة، وخيل إليَّ أنني لو أمسكت معولًا وطرقتها به، فإن مكان الإصابة من جسمها سوف يتهشم فورًا إلى قطع متناثرة تشبه نثرات الزجاج .

واحتواني صوت الدكتور قاطعًا الصمت الذي ران علينا :

. لها الآن ما يزيد على أربع عشرة ساعة وهي في درجة التجمُّد المطلق كما ترى .

قلت :

. ولكن التجربة ناجحة ...

ولم يمهلني لأتم جملتي :

. بالطبع ناجحة 100%. إن إجراء هذه التجربة أصبح شيئًا عاديًّا بعد أن تغلبت، إلى حدٍّ كبير، على مشكلتَي: التبريد الفوري لجميع أجزاء الجسم، والفك الفوري لأسْر التبريد لجميع أجزاء الجسم .

. لقد قرأت شيئًا عن هذا الموضوع في المجلد الثاني من سجل أعمالك .

وتابع الدكتور كلامه، وهو يشير بإصبعه إلى ما وراء الزجاج السميك :

. وهذه الآلة، التي تغطي فم وفكَّي الحيوان، مزودة من داخلها بزوائد على هيئة إبر دقيقة بالغة الحساسية للتثليج.. وعن طريق هذه الإبر.. وبعد أن يكون الإكسير الوردي قد انتشر في الجسم المزمع تبريده، عقب دفعه في أحد الأوردة.. يمكن للجهاز أن يتمم تبريد كافة أجزاء وثنايا الجسم في خلال دقيقتين من بدء تشغيله .

وسألته :

. وما هذا الخرطوم المتصل بالآلة وملتفٌّ حول العنق؟

t.me/qurssan

وسُرَّ لسؤالي :

ـ آه.. أنت دقيق الملاحظة كذلك.. هذا الخرطوم هو الشيء الوحيد الجديد في التجربة.. إنني أجربه لأول مرة .

. ما هو عمله؟

ـ إنه مزود، في طرفه الأيسر، بمحقنة صغيرة لها إبرة رفيعة، تُغرس في الشريان الرئيسي بالعنق لتغذية ورفع ضغط جسم الحيوان الذي يعاني، ولا شك، هبوطًا وإرهاقًا عقب التجربة .

قلت في اهتمام زائد :

. وطرف الخرطوم الآخر؟

أجاب، وهو يشير بإصبعه إلى موضع في جانب الجهاز، بينما هو يركز عينيه في كثير من الإعزاز :

. هنا يتصل طرف الخرطوم الآخر بعلبة معدنية، بها آلة دافعة تقوم بدفع محتويات العلبة السائلة إلى الشريان رأسًا .

وزاد شوقي لما يقول :

. وما هي المحتويات السائلة بالعلبة؟

. آه.. تسأل عن المادة السائلة؟

. أجل .

همس :

. ولكنْ ألم أُمْلِ عليك تركيبها بالأمس؟ !

فصحت برغمي :

. تقصد المادة الثمينة التي ستغذي عليها الكائن المبرَّد بعد إنهاء حالة تبريده .

. هي بعينها .

t.me/qurssan

ويبدو أن الحيرة قد اتضحت على وجهي وأنا أسأله عن كيفية تدفق السائل إلى الشريان الرئيسي بعنق الحيوان. فقد رأيته ينتصب في حيوية ليقول لي، وهو يغمز بعينه :

. سوف ترى بعينيك في اللحظات التالية الإجابةَ عن سؤالك .

ثم رفع ذراعه مشيرًا إلى تابعه مرزوق، وأضاف في لهجة جادة :

. والآن إلى العمل .

بدأ مرزوق يدير مولدًا يدويًّا تعالى منه صرير خافت في مبدأ الأمر، أخذ يتزايد شيئًا فشيئًا، حتى أصبح صوته يتردد عاليًا في أزيزٍ يبعث رجفة خفيفة بأنحاء الحجرة. وصاح الدكتور حليم حتى أتمكن من سماعه :

ـ مرزوق يدير هذا المولد ليوقف مفعول غاز الهليوم بطريقة مفاجئة سريعة .

وصحت بدوري :

. تعني أن التبريد يتوقف الآن؟ !

. بإمكانك أن تلمح ذلك لو ركزت بصرك على عينيها .

وركزت بصري، وبعد برهة، لاحظت فعلًا ما يشبه الضباب الخفيف يتلاشى منكمشًا على نفسه، لتبدأ العينان في اللمعان، كأن هناك قطرات من الحيوية تتدفق فيهما ببطء شديد، لتجذباها من أغوار عالم سحيق .

وسرعان ما أحسست بالبرودة المنبعثة من الجهاز تتضاءل، كذلك سرعان ما تحركت جفون الذئبة، أغلقت وفتحت عدة مرات، ثم تحرك إنسانَا العينين في بلادة حتى تَركَّزا علينا، ونحن نطل من وراء فتحة الزجاج السميك .

وقال الدكتور حليم في كثير من الزهو :

. لقد استيقظت أنثى حبشي .

t.me/qurssan

قلت مبهورًا :

. عمل رائع !

فقلب شفتيه :

. ولكنه يحطمني.. إنني أعيش كل تجربة بدافق مشاعري، فإذا نجحت أولد من جديد، وإلا فإن العمر يتقدم بي مئات السنين مع كل فشل ألاقيه .

وأكدت وأنا أهز رأسي :

. إن متعة البحث وراء المجهول لا تدانيها متعة في الوجود .

. بل تتفوق عليها لحظة الانتصار .

. مثل انتصارك في هذه التجربة.. صدقت .

ثم أضفت مستفسرًا :

. أرى أن الذئبة قد استيقظت ولكنكم لم تطلقوها من أسر الجهاز بعد؟

فقال الدكتور حليم معترضًا :

. لا لا.. إنها تظل بالغة الضعف لفترة قد تصل إلى ساعة أو ما يزيد منذ لحظة استيقاظها.. لذلك فهي تتناول غذاءها عن طريق المحقن والخرطوم طوال هذه الفترة ببطء شديد.. قطرة.. قطرة .

ومرت خمسون دقيقة بطيئة، ثقيلة .

ولكنها مرت على كل حال، وفُتح الجهاز «حليم رقم 2» عن طريق رفع نصفه العلوي.. وأُخرجت منه الذئبة الشهباء الجميلة، لنجدها في كامل صحتها، وقواها، كأن تجربة مثيرة لم تمر بها منذ قليل .

وهذا ما سيغتبط له حبشي كثيرًا .

t.me/qurssan

5

الأربعاء 31 يناير 1951

منذ ثلاثة أيام وأنا أستيقظ صباحًا على آلام صداع فظيع يكاد يحطم رأسي، فإذا ما شكوت للدكتور، طمأنني بأن الأمر لا يعدو وعكة بسيطة نتجت عن سوء في الهضم أو لفحة من برد الجبل، ثم يعطيني بعض أقراص «الأسبيرين»، أو نقاطًا من سائل «النوفالجين» المسكن، فأستريح .

لكني اليوم، وقد زادت عليَّ وطأة الصداع بشكل أكثر حدة ومرارة، فإنني عدت أفكر في الأمر من جديد، وأقلبه على شتى أوجهه، وتذكرت أن ما أعانيه من آلام رأسي لا يرجع إلى أيام ثلاثة فحسب، وإنما هو يمتد إلى أكثر من أسبوع مضى، وتذكرت أيضًا أنني لا أعاني هذه الآلام إلا خلال السويعات الأولى من الصباح لدى استيقاظي مباشرة، ثم سرعان ما تزول عقب تناول «الأسبيرين» أو «النوفالجين»، كذلك لم أستسغ مسألة معاناتي من سوء الهضم أو لفحات البرد، ففيما عدا النزلة البردية التي أُصبت بها منذ تسعة أيام سابقة، فإن صحتي ولله الحمد دائمًا على ما يرام، فمِم يأتيني سوء الهضم وأنا أتناول طعامًا محددًا في مواعيد محددة؟ ومِم تأتيني لفحة البرد وأنا آخذ كفايتي من الراحة طوال النهار، ولا أسهر مطلقًا أو أتعرض لتيارات الهواء، كما وأنه ليس هناك أي مجال للعدوى وسط هواء الجبل النقي الغني بالأكسجين؟

وفي نفس الوقت، فإنني أواظب على النوم مبكرًا عقب تناول كوب اللبن الساخن الذي يجهزه لي مرزوق كل ليلة، وبرزت أمامي حقيقة صغيرة.. فأنا لا أعي بالمرة أنني أصبت بالأرق، أو استيقظت ليلًا لسبب أو لآخر منذ بدأت في تناول أكواب اللبن، فهل للسائل الأبيض الذي يحتويه الكوب كل هذا المفعول الساحر في إنامتي عميقًا دون أحلام ودون يقظة حتى الصباح؟ أم هناك سبب آخر لا أدريه؟ !

t.me/qurssan

ولأول مرة ألحت عليَّ فكرة بعيدة عن التصديق ...

هل يضعون لي المخدر في كوب اللبن؟

ولِمَ لا يفعلون ذلك، وهم القادرون على ارتكاب ما هو أكثر فظاعة وإجرامًا؟ وعادت الأحداث القديمة تتوالى أمام مخيلتي، بعد أن كدت أنجح في نسيانها: الرجلان اللذان أُلقيا من أعلى الجبل، وكدت أنا نفسي ألحق بهما في العالم الآخر، والعربة بخيلها المجنونة، والتابوت الذي حمله مرزوق ورجل آخر إلى الفيلَّا ليلًا، ثم فَزَعُ زين وما روته لي عن عمها الدكتور حليم، ومَنْعه الاقتراب من منطقة الفيلَّا الشاذة في الجبل، والأصوات التي تتعالى في جوف الليل من خلالها. كل ذلك.. بل إن بعضه لَكفيل بدفعهم إلى تخديري خلال ساعات الليل، حتى لا أرى أو أسمع ما يفعلون، فأعرف عنهم المزيد مما يودون إخفاءه .

وتذكرت شيئًا كان غائبًا عني حتى هذه اللحظة: لقد شكوت لمرزوق أكثر من مرة من مرارة طعم اللبن، ولقد أيقنت الآن أن هذه المرارة إنما تعود إلى طعم المخدر نفسه، بل إن رائحة اللبن كانت تحوي شيئًا نفاذًا في بعض الأحيان .

وحين وصلت بتفكيري إلى هذه النقطة، وجدت الغضب والضيق يعصفان بي، فلست أنا من الذين يمكن خداعهم بسهولة، ولا بد لي من وسيلة، مهما بلغت خطورتها، لكشف النقاب عما يفعله الدكتور حليم وأعوانه، خلال فترة تخديري، في أعماق الليل الأخرس بهذه البؤرة النائية بالجبل. ومع مرور ساعات النهار كانت الخطة التي دبرتها قد اختمرت في ذهني تمامًا .

فانتهزت فرصة جلوسي مع الدكتور حليم في المكتبة، حيث كنا نسجل بعض السطور في مجلده الثالث عن اكتشاف مهم يدور حول الإكسير الوردي .

فقد لاحظ الدكتور حليم لأول مرة خلال تشريحه لأجسام بعض الحيوانات التي تبيت شتاء وجودَ غدة بالغة الصغر، لم تُعرف قبلًا، تفرز سائلًا بنيًّا مركزًا له نفس مكونات الإكسير الوردي .

t.me/qurssan

وحين دونت مشاهدات الدكتور في المجلد، ذكرت أن هذه الغدة، وقد أطلق عليها اسم «غدة البيات الشتوي التوتية» فهي تشبه ثمرة التوت إلى حدٍّ كبير، توجد في الحيوانات التي تبيت شتاءً تحت إبط الساق اليمنى الأمامية، وفي الحيوانات التي لا تبيت شتاءً فإنها توجد ضامرة في بعض الأحيان أسفل العنق، وأحيانًا أخرى توجد أعلى الجزء الأيمن من الصدر، غير أن هذه الغدة ليس لها وجود بالمرة في الجسد الإنساني .

قلت إنني انتهزت فرصة جلوسي مع الدكتور، فادعيت أنني أشكو رعشة خفيفة في بدني، وأبديت رغبتي في أن آوي إلى فراشي مبكرًا. وصح تقديري، فلم أكد ألج حجرتي حتى تناهى إلى سمعي خطوات أقدام مرزوق تسرع في الممشى، ثم تعالت طرقاته اللحوح :

. ادخل يا مرزوق .

ودخل ...

. كوب اللبن الساخن يا أستاذ .

. آه.. ضعه على المنضدة.. مؤقتًا.. حتى أرتدي منامتي فأشربه .

ووضع الكوب كما أشرت عليه، ووقف ينتظر بجواره، ولكني بادرته وأنا أتحسس رأسي متألمًا :

ـ أرجوك يا مرزوق.. أحضر لي في هذه الأثناء.. جرعة من «النوفالجين».. أو قرص «أسبيرين ».

وحاول أن يعترض :

. ولكنِ اللبن ...

فقاطعته معاتبًا :

. أرجوك عجِّل.. إن آلام البرد تدغدغني .

واضطر إلى تركي، فاندفعت بمجرد تواريه إلى دولاب ملابسي

t.me/qurssan

أخـرج منـه زجاجـة كنـت قـد أعـددتها مـن قبـل، فسـكبت فيـها محتويـات الكـوب تـاركًا بضـع قطـرات فـي قاعـه، ثـم أخفيـت الزجاجـة فـي جـيب معطفي المعلق، وأسرعت بإغلاق الدولاب عليه .

وأكملت ارتداء منامتي، وخلال دقيقة أخرى اتضحت خطوات مرزوق المسرعة، فأمسكت كوب اللبن وبه القطرات المتبقية في الوقت الذي طرق فيه الباب .

. ادخل .

قلتها وأنا أدفع بالكوب إلى فمي، متظاهرًا بأنني أبتلع آخر جرعة فيه، ومتوخيًا أن أترك آثار الحليب الأبيض واضحة على شاربي وشفتي .

. قرص «الأسبيرين ».

. أشكرك يا مرزوق.. وهاك الكوب الفارغ .

وفـي طـريقي إلى شفشق الماء الموضوع على المنضدة لأبتلع القرص، تثاءبت مرتين إمعانًا في إضفاء مظهر النعاس عليَّ، ثم بلعت القرص أمامه، وببطء دلفت إلى فراشي :

. تريد شيئًا آخر؟

فأجبته في تثاقل وكأنني أُسحب إلى هوة مفعول المخدر :

. كلا.. أغلق الـ.. باب.. وراءك .

فأطفأ نور الحجرة وغادرها، ومكث ينصت بالخارج عدة دقائق إلى أن تعالى شخيري ووثق من استغراقي في النوم .

ومرت خمس ساعات كاملة .

كان السكون يحتويني عميقًا في قسوة الضوضاء، حتى عواء الـذئاب صـمت فـي هـذه الليلـة وكأنـها على موعد مع مغامرتي المرتقبة. وعدت أنظر في أرقام الساعة المضيئة، فرأيتها تشير

t.me/qurssan

إلى الواحدة بعد منتصف الليل .

حسن.. إنه الوقت المناسب .

ارتديت صدريتي الصوف فوق منامتي، ولما لم تكن لديَّ «بطارية » للإنارة فقد اكتفيت بعلبة الثقاب، كما انتعلت خفًّا من المطاط، وفي هدوء غادرت الحجرة، لأبدأ رحلتي الغامضة وراء خفايا الدكتور العالم حليم صبرون .

وترددت في المبدأ أي اتجاه أسلك في الممشى حالِك السواد.. وفضلت الاتجاه رأسًا إلى المعمل .

ودون أن يصدر مني أدنى صوت، رحت أتقدم خطوة وراء خطوة، وأنا أتحسس طريقي دونما عجلة، وفي النهاية وجدت نفسي أقف أمام باب المعمل المنشود، إلا إنه لم تكن هناك أي أصوات تصدر من داخله .

واحتكت يدي بشيء معلق فيه، فلما أشعلت عودًا من الثقاب، رأيته قفلًا ضخمًا يقيد مزلاج الباب من الخارج. إذن فأين هو الدكتور وأعوانه إن لم يكونوا هنا؟

ولكن القدر لم يدعني أتمادى في حيرتي .

فقد انطلقت بين جدران الفيلَّا صرخة رفيعة حادة تمثل آلامًا مريعة فوق الاحتمال.. وحين مرت موجات الصرخة من حولي، خُيل إليَّ أن جنبات الجبل ظلت تردد صداها أمدًا طويلًا في نعيب مشؤوم.. واستدرت عائدًا في الممشى إلى مصدر الصرخة في طرفه الآخر، ولكن صوتًا بعيدًا يشبه أزيز المولد الذي كان يديره مرزوق في تجربة أنثى حبشي التقطته أذناي. فتوقفت، وعدت أنصت من جديد، ووجدت صوت الأزيز يأتي من خلف أحد الأبواب المغلقة المنتشرة بطول الممشى، وقلت لنفسي في فرحة: لقد عثرت عليهم، ها هم ساهرون يزاولون عملهم في مكانٍ ما بالجناح الآخر، ولكن تُرى أي عمل هذا؟ أهو عمل غير إنساني.. وغير قانوني؟

t.me/qurssan

وسيطر عليَّ شعور قوي بأن الرد هو الإيجاب .

وعدت أشعل عودًا جديدًا من الثقاب، ولدهشتي رأيت الباب مواربًا وليس مغلقًا كما ظننت، فهل يستخدمونه ليلًا عبر جناحَي الفيلَّا؟ وهل نسيه أحدهم مفتوحًا وهو في عجلة من أمره؟

ومررت من خلال الباب ثم أعدته إلى سابق وضعه الموارب، وسرت وأنا أشعل أعواد الثقاب في ردهة مستعرضة بين جناحَي الفيلَّا، ومددت يدي أفتح الباب الذي طالعني في نهايتها، غير أنني عدت أسحبها بسرعة حين تناهت إلى سمعي خطوات أقدام ثقيلة تُقبل نحوه من طرفه المقابل، فقفزت أتوارى خلف صندوق ضخم، ومن مكمني شاهدت عبده يبرز من الباب، وهو يحمل فانوسًا مُضاء ويمر من أمامي في طريقه عبر الردهة ليختفي من الباب الذي ولجته منذ برهة .

تُرى إلى أين يرسل الدكتور حليم تابِعه مخيف الوجه في أعماق الليل؟ وزاد فضولي فسار في عروقي ضاغطًا على ذرات مخي .

وبعد دقائق خمس، تقدمت وفتحت الباب بجواري في بطء شديد، لأجدني أطل على الممشى الجنوبي للفيلَّا، الذي يربط حجرات الجناح الجنوبي فيها، وكان الممشى يسبح في ضوء باهت يصدر عن أربعة فوانيس صغيرة عُلقت بطوله .

وعلى غير توقُّع مني مزقتِ السكون صرخة ثانية حادة .

بدا مصدر الصرخة واضحًا في هذه المرة، فقد أتت من طرف الممشى عند اتصاله شرقًا بمادة الجبل .

وفي خطوات متلاحقة تُقارب العَدْو، بلغت الممشى حيث لمحت بابًا مفتوحًا إلى منتصفه تتعالى من ورائه حشرجة مكتومة لإنسان يحتضر، وتقدمت من فتحة الباب وأنا أحاول السيطرة على أعصابي دون جدوى.. كان كل جزء في بدني يحس زعزعة في استقراره .

كانت كل خلية فيه تعاني قلقًا مدمرًا .

t.me/qurssan

وطالعني المشهد الذي لن أنساه ما حييت .

كانت الحجرة متسعة تشبه معملًا مماثلًا لذلك الذي شهدت فيه التجربة على الذئبة أنثى حبشي، وإن بدا هذا المعمل أكثر نظافة وأكثر ازدحامًا في أدواته ومعداته. وكان نظامه هو نفس نظام المعمل الأول، ففي الواجهة وضِع دولاب معدني مستطيل للأدوات الجراحية، ويمينًا وضِع دولاب للبياضات ويسارًا دولاب خشبي مغلق .

بينما انتشرت في أرجاء المكان أجهزة مختلفة لا أعرف كنهها، وأنابيب عديدة للغازات من بينها جهاز عملاق متصل بأنبوبة قصيرة، كذلك لاحظت ما يشبه الصندوق الزجاجي مُعلقًا إلى يمين الدولاب الخشبي المغلق، وكان يضم ما يزيد على عشرين زجاجة من سعة نصف اللتر، بها سائل يشع ضوءًا ورديًّا جذابًا، وقرأت أعلى الصندوق بحروف حمراء بارزة كلمة «خطر . قابل للاشتعال ».

على أن الشيء الذي شدني بعنف، وتسمرَت عليه عيناي في قوة ورهبة، كان يجثم في وسط الحجرة وتحت فانوس شديد الإضاءة .

ولم يكن طاولة للعمليات، أو سريرًا عاديًّا، ولا كان جهازًا من أجهزة «حليم رقم 1» أو «حليم رقم 2»، وإنما كان أشبه بتابوت صُنع من معدن مصقول، وثُبت فوق قاعدة مستديرة في وضع مستغرب، بحيث خفض جزؤه العلوي من جهة الرأس إلى أسفل، بينما ارتفع مكان القدمين إلى أعلى بزاوية تقارب 30 درجة، وبدا نصف التابوت العلوي مصنوعًا من الزجاج السميك أو البلور.. وكان مفتوحًا.. وكان هناك جسد بشري يضمه التابوت، وقد تدلت إحدى ذراعيه متأرجحة إلى أسفل.. وكان الجسد هو مكمن الحشرجة الوحشية التي تُصور ألمًا وعذابًا جنونيًّا .

كان أحدهم يعاني ما لا طاقة لبشر بتحمله .

ورأيت الدكتور حليم يقف منتصبًا وهو شاحب الوجه، يحدق في

t.me/qurssan

عَداد جهاز صغير متصل بالتابوت عن طريق خرطوم من المطاط. بينما تَصلَّب في المسافة بيني وبين التابوت تابِعه مرزوق، وبجواره امرأة بدينة لم أرَها من قبل، وكانا يرفلان في رداءين أبيضين يشبهان المعاطف، وكانت قامة مرزوق تغطي، بالنسبة لمكان وقوفي عند فتحة الباب، الجزء من التابوت حيث استقر رأس الجسد بداخله.. وأما بقية الجسد فقد ظهر في غير وضوح أمام بصري المضطرب من عنف المنظر .

على أن أحدًا منهم لم يلحظ دخولي، فقد كانوا جميعًا في شغل شاغل عما يدور خارج نطاق محتويات التابوت، المدهون بلون الفيروز الفاتح مع ميلٍ إلى اللمعان .

وعاد الجسد بداخل التابوت يئن في حشرجة متقطعة بدأت تتخللها فترات تطول من الصمت العميق، وفي هذه الأثناء .. وبغتةً.. أحاطتني ذراعان قويتان من الخلف في قسوة، ودوى بجوار أذني فحيح مقيت :

. لقد أمسكته.. كان يتلصص، وقد أمسكته يا دكتور .

واستدارت العيون نحوي في بلاهة وخوف، فقد كان الموقف حول التابوت لا يحتمل همسة تعكره، وانتفض مرزوق وخطا خطوتين بطريقة آلية ليصبح بجواري فيزيد بيديه من ثقل يدي، في حين تململت المرأة البدينة ورَنَت إلى الدكتور في حيرة، وكأنها تستأذنه المشاركة في القبض عليَّ .

على أن الدكتور حليم كان بعيدًا عنا جميعًا، كان يقف بقامته المهيبة وقد تجلت وسامته إلى أقصى الحدود.. صلبًا.. شامخ الأنف.. ولاهيًا عن تصرفات أتباعه حيالي، وكان كذلك على ما يبدو يعيش إحدى لحظاته عميقة الحزن .

ردد مرزوق في حقد :

. إنه الأستاذ .

وظل الدكتور غارقًا في شروده وأَنَفته فترة قبل أن يهمس :

t.me/qurssan

. اتركوه .

وعاد مرزوق يقول وهو يرمش بعينيه في عصبية :

. لقد رأى ما حدث بداخل ...

لكن الدكتور قاطعه في إصرار :

. اتركوه .

وتراخت الأذرع في تردُّد ثم كفت عن الإحاطة بي. وتقدمت إلى الدكتور ببطء، فابتدرني قائلًا في لهجة جافة :

. إذن فقد رأيت ما يدور هنا .

تساءلت في حيرة :

. وما الذي يدور هنا؟ !

لم يُجبني مباشرة، وإنما تشاغل بفحص أرقام العداد القابع بين أصابعه، ثم قال وهو يتنهد :

. لقد حاولت بشتى الطرق أن أمنعك من رؤية المرحلة الأولى من تجاربي على البشر.. إلا بعد أن تنجح.. ولكنْ يبدو أنني لم أُقدر ذكاءك حق قدره .

تجاهلت إشارته الأخيرة إلى ذكائي، وقلت في سخرية :

. ويدخل في طرق منعك لي وضعُك المخدر في شرابي.. أليس كذلك؟

همس في شبه اعتذار :

. أجل .

ثم عاد يضيف بسرعة :

- ولكنْ ليس بالقدر الذي يؤذيك.. فما كنت لأسمح بأن يمسَّك سوء .

t.me/qurssan

. هكذا.. منطق عجيب .

. ولولا فشلي المتكرر في هذه التجارب لأطلعتك عليها أولًا بأول .

قلت أجاريه :

. أوَليست كل تجربة معرضة للنجاح أو الفشل؟

قال :

. إلا في حالة إجرائها على الإنسان.. فإن الفشل فيها يكون مريعًا .

وراح يردد كلمة «مريعًا» عدة مرات، ثم تمتم في أسى وهو يشير إلى حيث التابوت يرقد ورائي :

. لقد ماتت يا كامل .

ورجعت بمشاعري إلى محتويات التابوت. إذن فالتابوت يضم جثمان «هي وليس هو»، جثمان امرأة. ورددت :

. ماتت؟ من هي التي ماتت؟

. سيدة مسنة .

. من تكون؟

وجاءني جوابه الغريب :

. لا أعرف.. هي فقط واحدة من مرضى مستشفاي المجهولين .

ولم أفهم عبارته :

. مرضاك المجهولون؟ !

. أجل فهذه السيدة مثلًا غير معروفة الأهل وليس لها معارف، حتى اسمها لم نعرفه !

. وكيف حصلت على هذه المجهولة؟

قال في تجهم :

t.me/qurssan

ـ صـدمتها سـيارة بـالقرب مـن المسـتشفى.. ولما كـانت حالتـها ميؤوسًا منها، فقد قررت أن أجري عليها تجربتي على الفور قبل أن تسلَّم الروح .

ودهشت لمنطقه، فقلت في عصبية :

ـ ولكنـك.. ولكنَّ.. هـذا العمل غير قانوني.. إنه تصرُّف إجرامي تُحاسب عليه .

فاعترض في وهن :

ـ كانت ستموت على أي حال .

ولم أتزحزح عن موقفي :

ـ لقد عذبتَها عذابًا وحشيًّا.. لقد استبحت لنفسك ما تمنعك عن ارتكابه كلُّ شريعة سماوية .

وبدا مريضًا منهارًا :

ـ ألا يهون كل شيء في سبيل العلم؟

صحت :

ـ إلا الحياة الإنسانية.. إلا الروح .

قال في يأس :

ـ ما فعلت ذلك كله إلا من أجل عشرات الأرواح غيرها.. عشرات الأنفس التي ترنو وتتطلع للمزيد من الحياة عبر الزمن .

قلت :

ـ لا يصح أن يوضع إنسان موضع التجربة.. أي تجربة.. مهما بلغ اليأس من حالته .

أجاب في كبرياء وهو يهزأ من كلماتي.. وقد ومضت في عينيه نظرة تحدٍّ سليطة :

t.me/qurssan

. على العكس.. هناك عشرات من الناس يهلكون كل يوم بلا هدف أو غاية.. في الحروب والثورات.. والحوادث.. وجرائم القتل.. بل هناك أناس يعيشون عالة على المجتمع دون أن يقدموا شيئًا إطلاقًا يفيد غيرهم، أو حتى يفيدهم أنفسهم.. فما المانع بعد كل ما ذكرت أن يكون هناك شهداء في سبيل العلم.. خاصة وهم في حالتنا هذه ليسوا شهداء بمعنى الكلمة، وإنما هم أشخاص مقضيٌ عليهم بالموت سلفًا، سواء أجريت عليهم التجارب أم لم تُجرَ؟

ثم قذف بالعداد جانبًا، وصمت وهو ينظر إليَّ في تبرم وعدم اقتناع. وسألته :

. قل لي يا دكتور.. تجاربك التي فشلت قبلًا أكان أصحابها أيضًا من المجهولين؟

انفرج فمه على مضض :

. أنا لم أُجرِ تجربة على واحد من البشر للآن إلا وكان مجهولًا وموشكًا على الموت .

وعدت أسأل :

. وهل تقديرك لحتمية موتهم صائب دائمًا؟

قال في اعتداد :

. لا تنسَ أنني طبيب .

. ولا تنسَ كذلك أن هناك على الدوام احتمالًا للنجاة.. ولو نصف في المائة .

. لا.. مستحيل.. كلٌّ منهم كان سيموت خلال ساعات قلائل .

وجاء صوت مرزوق، وقد كدت أنسى وجوده :

. هل نُخرج الجثة من هنا يا دكتور؟

وأجاب الدكتور بسرعة :

t.me/qurssan

. بالطبع.. أعيدوها بالعربة إلى المستشفى قبل أن تشرق الشمس .

وتذكرت العربة على الفور، العربة التي على شكل صندوق بلا نوافذ، العربة التي يجرها زوج من الخيول المدربة القوية. واستدرت أتطلع إلى جثمان المرأة وهم يخرجونها من التابوت، وكان وجهها بنيًا داكنًا.. مفزعًا.. تغطيه بقع حمراء دموية .

وهمس الدكتور من ورائي بعد أن لحظ رؤيتي لبقع الدم :

. إنه نزف حاد تحت الجلد.. وهو الذي سبب موتها .

وبدأت أهتم ببحوثه :

. تقصد انفجارًا في الخلايا؟

ـ تمامًا.. إن الإكسير الوردي لا يعطي كاملَ مفعوله إلا مع بدء التبريد فحسب.. أما في حالة الفك من أسر التبريد فإن الإكسير لا تعود له قيمة تُذكر .

. وكيف ستتلافى ذلك؟

همس ثانية في حيرة بدت كأنها مصطنعة :

. لا أدري.. إنني ما زلت أجرب ولكن الفشل يلاحقني.. أربع تجارب فشلت حتى الآن .

فقلت أكلم نفسي :

. يعني أربعة من الموتى .

وسحب أحد الكراسي البيضاء من التي بلا مسند للظهور وجلس عليه، ثم تعالى صوته خافتًا في توسل :

. أرجوك يا أستاذ كامل.. اتركني الآن .

ولم أتفوه بكلمة، وإنما توجهت إلى الباب، وسرت وحدي في الممشى المضيء، ثم في الردهة المستعرضة المظلمة وأنا أشعل أعواد الثقاب، ثم في الممشى الشمالي حتى دلفت إلى حجرتي،

t.me/qurssan

وكانت ساعة معصمي تشير وقتئذ إلى الرابعة بعد منتصف الليل .

وفي هذه اللحظة.. بدأت أصوات الذئاب تعوي معلنة الحداد بطول قمم التلال الشرقية للجبل .

t.me/qurssan

6

الاثنين 5 فبراير 1951

هل للطبيب العالِم، مهما بلغت أستاذيته، ومهما بلغت قدراته، ومهما بلغ تبحره في بحوثه واكتشافاته، هل لهذا الفرد، مهما تيسر له من سطوة العلم، أن يستخدم جسد الإنسان حقلًا لتجاربه، دون أن يحفل بما قد تسببه التجارب من عذاب وآلام هائلة لهذا الجسد، ولو لم تؤدِّ مباشرة إلى وفاة صاحبه؟

هل يُباح ارتكاب الجريمة باسم العلم لمجرد القول بأنها إنما تُرتكب في سبيل الإنسانية؟ وهل يجوز تعذيب إنسان بغرض إطالة حياة إنسان آخر، حتى .. حتى لو كان الذي يتعذب مريضًا مقضيًّا عليه أصلًا بالموت؟

وتذكرت منطق النازية وفظائعها خلال الحرب العالمية الثانية، وقد ظلت الشعوب الأوروبية تعاني من آثارها حتى يومنا هذا، تذكرت ما قرأته عن حرقهم لألوف الجثث في الأفران بعد إجراء التجارب العلمية على أصحابها حتى الفناء، لقد كان «هتلر» لا يحفل بعذاب البشر في سبيل رفاهية الجنس الآري الألماني .

فهل حليم صبرون مجنون آخر على شاكلة «أدولف هتلر»؟

ربما، ولكني على كل حال ما أزال معجبًا بأفكار الرجل، وببحوثه، وبسعيه الأصيل وراء مادة العلم.. وإني لأراه، برغم نزعاته وخفاياه، شخصًا تتوقد شعلة الذكاء في رأسه لذروتها، ويتألق نبوغه في كامل عنفوانه.. ولما كان بطبعه عزوفًا عن مخالطة الناس، ويحس بضآلة تصرفاتهم إلى جوار ما ينبع منه من تصرفات، فقد اندفع بكامل الطاقة المختزنة في أعماقه إلى إجراء هذه الدراسات والبحوث سرًّا في مكمنه بالجبل، معبرًا عن نبوغ دافق وحيوية لا تنضب، ويدعمه في نفس الوقت دافع خفي لإظهار سطوة فكره وجبروت إمكانياته العقلية لبناء مجتمعه، تعويضًا لحرمانه الطويل إبان حداثته .

t.me/qurssan

دارت هذه الأفكار في رأسي، وقد استيقظت مبكرًا في الصباح بعد أن استمتعت بالنوم الطبيعي لرابع ليلة دون مخدر، وكان رأسي خاليًا من الصداع والألم، وإن لم يخلُ من الأفكار المتصارعة دونما كلل، فقد كنت أعيش أحداثًا تفوق طاقتي.. وتفوق كل تصور لي .

وحين وقفت أستنشق هواء الصبح المنعش من خلال فرجة باب الشرفة الذي فتحته توًّا، دخل مرزوق عليَّ بصينية الإفطار، وفي أعقابه رأيت الدكتور حليم يقبل على غير عادته، وقد ارتدى روبًا بنيًّا من الصوف الثقيل وانتعل بُلغة مغربية الشكل .

وتردد الدكتور قليلًا، قبل أن يحييني ويستأذن في الدخول :

. هل لي أن أتناول إفطاري معك في الشرفة؟

وأجبته في شبه دهشة :

. أوَيستدعي ذلك الاستئذان؟! بالطبع يمكنك.. تفضل .

. أشكرك .

ثم أضاف، وهو يسحب كرسيًّا ويدنيه من المائدة التي أعدها مرزوق لشخصين :

ـ أحببت ألا أثقل عليك، إذا كان في وجودي، وأنت لم تصب راحتك في الاستيقاظ بعد.. ما يضايقك .

. لا أبدًا.. إنني على ما يرام .

وجلس الدكتور، وجلست قبالته، وبينما هو يقلب قطعتَي السكر في قدح الشاي، قال في صوت خافت :

ـ يجب أن تكون أكثر سيطرة على أعصابك فلا تدع الغضب يتملكك سريعًا كما حدث أول أمس .

وأجبته ببطء، وأنا أتناول قطعة الزبد على شريحة من الخبز المقدد :

t.me/qurssan

ـ مهما جمح بي الخيال، فلم أكن أتصور بالمرة أنك تستهين بالنفس البشرية مثلما رأيت .

فقال، وهو يرشف قدح الشاي :

. ليس في الأمر أي استهانة.. أقسم لك أن كل مريض من هؤلاء كان مصيره الموت عاجلًا، سواء أجريت عليه تجربتي أم لم أُجرِها ...

على أنني اعترضت :

. السيدة المسنة كانت آلامها لا تطاق .

همس :

. ومن أدراك أنني لم أكن أتألم معها؟

ضايقني رده، فطرقت المائدة بمؤخرة سكين كانت بيدي، وقلت بجفاء :

. أنت تملك أن تتعذب، ولكنك لا تملك أن تسبب العذاب للآخرين.. ولذلك فإنه يؤسفني أن أخبرك بأنني لا أستطيع أن أوافقك على اتجاهك الأخير في تجاربك.. وأرجو ألا تتوقع مني أي تعضيد أو إسهام مهما قل شأنه .

فتوقف عن شرب الشاي، وتراجع برأسه إلى الوراء وهو يتفحصني :

ـ وإذا أخبرتك بأنني سأكف عن إجراء التجارب بالصورة التي آذتك.. فهل.. يرضيك هذا؟

سألته فجأة :

. ألهذه الدرجة يهمك رضائي؟ !

فقطب جبينه لثوانٍ.. ثم عاد يبسط جبهته.. ويرسم ابتسامة واسعة بريئة على شفتيه المنفرجتين عن أسنان عريضة.. وبدا صادقًا جادًا .

t.me/qurssan

قال :

. معك حق في هذا السؤال يا كامل.. ولكنْ.. افهمني.. فإني لست على كل السوء الذي تتمثله.. فلي كذلك الجانبُ الخَيِّر في شخصيتي، والذي يناقش أفعالي ويطالبني عنها الحساب.. غير أنه للأسف الجانب الأضعف.. وفي الحقيقة، فإنك حين تُبدي اعتراضًا على عمل من أعمالي، فإنما أنت دون أن تدري تنصر جانبي الضعيف هذا .

وصدقته .

صدقته، بجارف ما أحمله في طياتي من سماحة، وإعجاب بشخصيته القوية، والتي بدت أمامي الآن، بالرغم من عنفها، متجردة بسيطة.. سهلة.. تطلب العون في صمت .

وعدت أسأله ـ وقد استكانت أعصابي وهدأت خواطري ـ عن ماهية الطريقة التي سيُجري بها تجاربه مستقبلًا، فاعتدل في جلسته، وقال وهو يحرك يديه بطريقة ودود :

. سأجري يا عزيزي تجربتي القادمة على شخص متبرع.. وافق أن يَتم إجراؤها على نفسه بمحض إرادته .

ودهشت حقًّا :

. ومن يكون؟ !

. مرزوق .

. مرزوق.. أيوافق على ذلك؟ !

قال :

. أجل.. بعد أن أخبرته باكتشافي سِر فشل التجارب السابقة .

وسألته مبهوتًا :

. أوَقد اهتديت إلى معرفته أيضًا؟

t.me/qurssan

فتمتم ببساطة :

. بل وتوصلت إلى كيفية تلافي الفشل كذلك .

وأدنيت وجهي من وجهه بفضول طاغٍ :

. إذن.. حدِّثني عن كل شيء بالتفصيل.. بالتفصيل .

أخرج الدكتور حليم غليونه من طيات جيبه وأشعله :

ـ أعرني سمعك.. لقد حدث ما حدث ليلة أمس الأول وتوفيت السيدة.. وكما عرفت، أو شخَّصت.. كانت هذه رابع تجربة تنتهي بالوفاة، لحدوث نزف حادٍّ انتشر بأنحاء متفرقة أسفل جلد الضحية، ونتج عن انفجار وتمزق في خلايا الجسم عند الفك من أثر التبريد سريعًا.. ولم يكن الأمر مستغرَبًا، وأظنك قد قرأت شيئًا من هذا القبيل في سجل أعمالي .

وتوقف الدكتور برهة يلتقط أنفاسه، ثم عاد يسترسل في حديثه :

. لقد حبست نفسي في حجرة المعمل الجنوبي، بعد انصرافك في تلك الليلة، وبعد أن حملوا الجثة بعيدًا عن الفيلَّا.. ورحت أتساءل في حيرة وقتئذ عن السبب الكامن وراء هذا النزف الدموي، وكيف يمكن وقفه أو تلافيه.. وخلال ساعات طويلة مضنية، بدا الموضوع يشكِّل أمامي محنة معقدة لا مخرج لها بالمرة.. حتى كانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل أو ما يزيد، فغادرت المعمل على مضض، وتوجهت إلى شرفة حجرة نومي أستنشق نسمات الفجر المبكرة.. وملأت رئتيَّ.. ملأتهما عميقًا.. وهنا.. وذرات الهواء الرطبة تكمن داخل صدري في حنو... بغتة.. اتضحت لي الحقيقة ناصعة كالشمس ...

ولم أستطع كبح لساني فقاطعته :

. وما هي الحقيقة التي اتضحت لك؟

. سبب الموت ...

t.me/qurssan

. ما هو؟

. نقص الأكسجين في الدم ...

. كيف؟

ولكنه كف عن النظر إليّ، وتشاغل بجذب أنفاس شرهة من غليونه تعاقبت دفقاتها الواحدة تلو الأخرى، وهو يراقبها في إعجاب، ثم جاءني صوته من طيات الدخان :

ـ إن بعض الخلايا العميقة بالجسم تفقد أكسجينها بسرعة عن غيرها.. فإذا ما بردت حركتها، تخمد مع قلة الأكسجين فيها، أما إذا أُعيد الدفء إليها فإنها تكون . وقد قارب الأكسجين على النفاد منها ـ في حالة تشبه الاختناق، لذلك فإنها لا تستجيب للتحول إلى الليونة، والخروج من درجة التجمُّد بسرعة كمثيلاتها من الخلايا الأخرى ...

قلت أتعجله :

. وحينئذ؟

عاد يبتسم :

. أظن أنك قادر على أن تتصور معي ما يمكن حدوثه وقتئذ بين نوعين مختلفين من الخلايا يتجاوران في جسد واحد ...

صحت :

ـ التمزق.. خلايا جامدة وأخرى لينة.. إذن يتمزق الجزء من الجسم فيما بينها.. ويحدث النزف.. ولكن.. كيف ستعالج ذلك؟

. الأمر بسيط للغاية.. بإعطاء الشخص المبرَّد مزيدًا من الأكسجين مع البدء في فك أسره من التبريد ...

. وكيف ستوصل الأكسجين إلى خلاياه العميقة سريعًا؟

. بدفعه قويًا خلال رئتيه عن طريق أنفه وفمه معًا.. وقد ابتكرت لهذا الغرض قناعًا، صممته خصيصًا ليوضع على الوجه.. ويوصل

t.me/qurssan

مباشرة بأنبوبة الأكسجين ...

. ولكن.. هل.. تعمل رئتا الشخص المُبرَّد هكذا مسرعة مع البدء في فك تبريده؟

. سؤال ذكي. في الواقع.. فإن القلب والرئتين تليهما الكليتان هي أول الأجهزة التي تعمل في الجسم بعد إعادته إلى سابق طبيعته، ولكن أداءها لعملها لا يكون قويًّا بالدرجة الكافية في البداية.. غير أنه بالنسبة للرئتين بالذات، فإن تدفق الأكسجين إليهما بعنف عن طريق مضخة سيحركهما ويدفعهما حتمًا إلى الزيادة في بذل الجهد.. كما يتم في التنفس الصناعي بالنسبة للغرقى مثلًا .

وفهمت ما يعنيه، وأدركت أن رأسه هذا المجرد من الشعر إنما يضم بين عظامه وتحت جلده الأملس عقلًا مفكرًا من طراز نادر الوجود. قلت :

. وبهذه الوسيلة لن يحدث النزف .

فأكد في ثقة :

. مطلقًا .

. وهل أعددت القناع بالفعل؟

قال وهو ينفض غليونه على حافة الصينية ببطء :

. لقد استغرق تصميمه وإعداده 24 ساعة كاملة، أمضيتها محمومًا دون طعام أو نوم، وقد انتهيت منه قبل مجيئي إليك بلحظات .

وعدت أكرر :

. وهو الذي سيرتديه مرزوق أثناء التجربة ...

فقاطعني بلطف، وقد هب واقفًا :

. سوف ترى.. كل شيء ستراه بنفسك الآن .

. الآن.. أهكذا مبكرًا؟

t.me/qurssan

وتأبط ذراعي يجذبني معه.. وبلغنا المعمل وولجناه .

وشاهدت بالداخل مرزوق، وعبده، والمرأة الممتلئة، وقد انكبوا في أرديتهم البيضاء على الجهاز «حليم رقم 3» يقومون على ما يبدو بإعداده وتجهيز الأدوات الملحقة به .

كان ثلاثتهم منهمكين في عملهم يؤدونه في صمت، وظهورهم في مواجهتنا، فلما تعالت طرقات أقدامنا أنا والدكتور على مشمع المعمل الأملس النظيف، تركزت علينا أعين عبده والمرأة، في حين ظل مرزوق يزاول عمله في إيصال إحدى الأنابيب بجهاز التبريد الذي يشبه التابوت بلامبالاة ودون أن يحفل بمقدمنا .

وتوجه الدكتور رأسًا إليه، وأنا أسير في أعقابه، وبادره بقوله :

. هل أعِدَّ كل شيء يا مرزوق؟

وجاءنا صوته البارد الخالي من أي تعبير :

. أجل يا سيدي .

. والقناع الجديد، أين هو؟

ودون أن يغير من وضعه المنحني على ما يقوم بأدائه، صدمنا صوته ثانية :

. موضوع على المنضدة الرخامية خلف الجهاز.. وهو مُعَدٌّ .

وعاد الدكتور يسأل، بينما عيناه تتفحصان الأنبوبة التي يمسك بها مرزوق، وقد بدا عليه انتباه شديد :

. وهذه الأنبوبة الموصلة بين أسطوانة الأكسجين والجهاز؟

أجاب مرزوق :

. ستكون مُعَدَّة بدورها بعد أن أُحكِم ربط مفتاحها الدائري .

وانكب الدكتور حليم على الجهاز يعيد اختباره في عجلة، بينما

t.me/qurssan

رحت أتساءل في دهشة عن مدى خبرات مرزوق العلمية حتى يترك له الدكتور إعداد كل مستلزمات التجربة في سهولة وبساطة، دون أن يشرف عليها بنفسه .

على أن الدكتور همس في قلق :

. والآن.. أأنت مستعد يا مرزوق؟

في تثاقل استدار رأس مرزوق إلينا، وبرغم جمود قسماته بدت وجنتاه باهتتين، وقد اختفى لأول مرة طابع الصفاقة الذي كان يميزها :

. مستعد.. يا سيدي .

. وهل تناولت حقنة الإكسير في الموعد المحدد؟

. تناولتها .

قال الدكتور، وهو يحمل بكلتا يديه القناع المصنوع من النحاس الرقيق، المصمت فيما عدا فراغ العينين، والذي صور وجهًا فرعونيَ الخطوط، مذهب اللون :

. إذن فاقترِبْ مني لألبسك القناع .

وبدأ التردد والخوف يتضحان في عينَي مرزوق، على عكس ما يتظاهر، حينما أخذ ينزع عنه رداءه الأبيض، وكذا بقية ملابسه، حتى تجرد منها فيما عدا السروال القصير الذي يشبه لباس البحر، واقترب وهو يجر قدميه جرًا. ويبدو أن الدكتور قد استاء من مظهر تابِعه المتخاذل، فقد ألبسه القناع في خشونة، ثم دفعه إلى حيث يستقر الجهاز، ولم يتركه حتى أدخله فيه وثبت خرطوم الأكسجين في الفتحة الخاصة به في القناع، ثم أرقده في القاع وأحكم الغطاء البلوري السميك عليه .

وأصبح مرزوق سجينًا في طيات الجهاز.. وبعد قليل سيتلاشى وجوده الزمني في أَسْر البرودة والتجمُّد .

وبينما انهمك الدكتور في إدارة عداداته انهماكًا كليًا، رحت أنا

t.me/qurssan

أتفحص بدوري جهازه العجيب للتبريد، والذي يقارب في الشبه واحدًا من أكثر التوابيت التي رأيتها أناقة وانسيابًا. كان الجهاز يبلغ المترين طولًا، كما بدا عرضه حوالي 75 سنتيمترًا، وكان من الصاج الثقيل المغلف من الخارج بخشب الزان، وقد أُخفيت فراغاته الداخلية . والتي علمت أنها تضم النيتروجين السائل بدلًا من الهليوم . بمهارة كبيرة. وكان يتميز كذلك عن الجهاز السابق «حليم رقم 2 » ، والخاص بتبريد الحيوانات، بأن واجهته المغطاة بالزجاج السميك أكبر في المساحة، لدرجة أن حجمها يكاد يغطي نصف الجهاز العلوي بأكمله . ومن خلف الواجهة الزجاجية تبدت لي قامة مرزوق المتجردة من الثياب، فيما عدا السروال القصير المعَد خصيصًا لتجربة التبريد، وخُيل إليَّ أنه كان يراقبني بدوره من خلف قناعه الذهبي الذي ظهر في لمعانه يغطي وجهه حتى رقبته، فقد لاحظت أن محجرَي عينيه يتركزان عليَّ دون حراك .. وخُيل إليَّ كذلك أنني أقرأ فيهما حقدًا عميقًا بالغ السواد.. وأدار عبده المولد اليدوي .

ودوى الهدير الذي يرج أساس الحجرة في أزيز مكتوم، واستدرت أراقب مع الدكتور المؤشر الرفيع وهو يتراجع بداخل العداد إلى الوراء في قفزات بطيئة تسجل انخفاض حرارة الجو بين جدران التابوت من 35 درجة.. إلى 25 درجة.. إلى 15 درجة.. إلى 5 درجات .

لكن الدكتور سأل عبده بغتة :

. هل بدأ لون جسده يتغير؟

أجاب عبده بصوته الصدئ :

. نعم.. بدأ يتغير .

وحولت بصري في فضول تجاه الجسد المسجى بداخل جهاز التبريد، ورأيت لون الذراعين والساقين يبدأ بالفعل في التغيير من لون البشرة الطبيعي المائل للسمرة، إلى اللون الأزرق القاتم في المبدأ، ثم إلى الأزرق الفاتح.. ثم إلى الرصاصي.. حتى أصبح

t.me/qurssan

في النهاية يميل إلى اللون الرصاصي الباهت المشوب بالخضرة .

وقال الدكتور في لهجة آمرة :

ـ الدرجة الآن بلغت 140 تحت الصفر المطلق.. حسن.. أوقف المولد يا عبده فهذا يكفي .

وأوقف عبده المولد.. وساد سكون قاتل .

لقد أصبح مرزوق، ابتداء من هذه اللحظة، معدوم الصلة تمامًا بالزمن وسط هذا الكون الفسيح اللانهائي .

أصبح هو والعدم اسمًا واحدًا.. بل إنه حاليًا.. لا وجود.. لا شيء بالمرة.. لقد كان كائنًا عاديًا يعيش ويتنفس ويفكر ويتحرك، إلخ، ثم فجأة توقف كل وجود بالنسبة إليه كُلِّيَّة، مثلما تتوقف عقارب الساعة عند رقم معين فلا تعود تحسب جريان الزمن من حولها حتى تُدار من جديد .

وسألت الدكتور :

ـ أهو الآن في سبات التجمُّد؟

أجابني :

ـ هذه هي حالته بالضبط .

وسألته ثانية :

ـ إلى متى سيظل على هذه الحال؟

أجاب :

ـ تكفيني أربع ساعات حتى أتأكد بعدها من نجاح التجربة في هذه المرة .

فهمست لنفسي: أربع ساعات.. يعاد بعدها مَلء الساعة فتدور عقاربها في طريق الزمن مرة أخرى .

وغادر عبده حجرة المعمل، كما أرسل الدكتور المرأة، التي عرفت

t.me/qurssan

أن اسمها «دام العز»، لتعد لنا قدحين من القهوة، ولم يتبقَّ في المكان سواي والدكتور وجثمان مرزوق الرابض في صلابة الرخام. على أن الدكتور سرعان ما غرق في لجة بحوثه ناسيًا وجودي بجواره، فانتهزت هذه الفرصة وتناولت المجلد الثالث من سجل أعمال الدكتور. وكنت قد أحضرته معي. وأخذت أسجل بين صفحاته مشاهداتي عن سير المرحلة الأولى من تجربة اليوم، تاركًا فراغات مناسبة لما قد يضيفه الدكتور إلى ما أدونه.

وحين انتهيت، كانت قد مرت ساعتان تقريبًا، فوقفت أحرك قدميَّ قليلًا عبر الحجرة. في حين ظل الدكتور سادرًا في مشاغله دون أن تبدو عليه أقل بادرة من تعب. وخطوت بتؤدة بين الأجهزة المنتشرة هنا وهناك، غير أن قدميَّ قادتاني برغمي إلى حيث استقر التابوت في وسط الحجرة وبداخله مرزوق، وتسمرتُ في رهبة أمامه.

رحت أتأمل جسد الرجل المتصلب من وراء الزجاج السميك.. إن مثله مثل أي قطعة من اللحم المجمَّد في أي ثلاجة مما يُستعمل في المنازل.. مثله مثل سمكة أو دجاجة تنتظر دورها في الطهي، مع فارق بسيط هو مجرد الإحساس.. إحساسي أنا.. بأن صاحب هذا الجسد بصورة ما لم يدخل بعدُ في عِداد الأموات.

وجاءني صوت الدكتور حليم ساخرًا، حيث وقف بجواري دون أن أشعر باقترابه:

- يكاد المرء يظنه جثمانًا محنطًا لواحد من الفراعنة العظام.. أمثال خوفو، وإخناتون، ورمسيس الثاني.. أليس كذلك؟

قلت مُؤَمِّنًا:

- لا سيما والقناع الذهبي يحمل بالفعل ملامح فرعونية أصيلة.

لكنه استدرك في صوت خافت، وكأنه يوجه الكلام إلى نفسه لا إليَّ، وقد أراح كفه على كتفي في ألفة:

- لقد كان هدفهم الأسمى هو التوصل إلى الخلود.. وهو نفس

t.me/qurssan

الهدف الذي أسعى إليه، وإن اختلفَت الرؤية والوسيلة.. وقد نالوا هم بغيتهم في قوة العقيدة، وفي راحة الإيمان، فهل أنال أنا بغيتي؟

. وما هي بغيتك حقًّا؟

بدا الفزع في عينَي الدكتور من سؤالي غير المنتظر :

. هه.. ماذا تقول؟

فأجبته في تردد :

. كنتَ تحدثني عن أهدافك من وراء التبريد.. تبريد البشر على ما أظن .

واضطربت شفتاه قليلًا :

. آه.. لا لا.. ليس وقتًا مناسبًا الآن.. إن الأهداف كثيرة.. متعددة.. ولكن لنترك الحديث عنها إلى ما بعد .

ولم يُتِح لي فرصة للرد عليه بعد ذلك، فقد تركني وعاد إلى عمله السابق بين الأجهزة والمعدات. وفي تمام الساعة الواحدة إلا ثلثًا. بعد أن أوشكت الساعات الأربع على الاكتمال. كان كلٌّ من الدكتور وعبده ودام العز وأنا نأخذ أماكننا المناسبة حول جهاز التبريد «حليم رقم 3»، ونحن على أهبة الاستعداد .

ومع إعلان الساعة الواحدة تمامًا دوى صوت المولد اليدوي من جديد، وخلال عشر دقائق بدأ دفع غاز الأكسجين إلى رئتَي مرزوق في قوة كافية، وبعد خمس دقائق أخرى دُفع بالسائل المغذي إلى معدته .

ومرت نصف ساعة مرهقة، وفُتح غطاء التابوت الزجاجي .

ورأيت مرزوق يتكور على نفسه شيئًا فشيئًا، حتى استطاع في النهاية أن يجلس القرفصاء داخل الجهاز، وقد استعاد معظم قواه، وفيما عدا لون بشرته الباهت ونظرات الإرهاق في عينيه، فلم يكن هناك أي شيء غير طبيعي يعتريه .

t.me/qurssan

لقد نجحت أول تجربة في الدنيا بأسرها لتبريد رجل حي فترة من الزمن ثم إعادته إلى سابق حيويته الطبيعية، لقد نجحت وستنجح بعدها تجارب كثيرة بفضل الدكتور المعجزة حليم صبرون .

وبفخر واعتداد كبيرين كنت أول من يسجل هذا الحدث التاريخي بالغ الأهمية، إلا إنني في أعماقي.. في أغوار نفسي.. أحسست قلقًا غامضًا يعتريني .

t.me/qurssan

القسم الثالث

آفاق مذهلة

1

الاثنين 5 فبراير 1951 (مساءً)

كانت الساعة الحائطية تدق السادسة مساءً، حينما جلست في القاعة الرئيسية الضخمة بجوار المدفأة على نفس الكرسي الفوتيه الذي تعودت اختياره، وكانت النيران تتأجج هادئة على يساري وهي تبعث دفئًا لذيذًا استمرأته في هذه الليلة قارسة البرد، في حين جلس الدكتور قبالتي على الطرف الآخر من المدفأة، يمد يديه في استغراق شديد وهو يصطلي، وقد بدا عليه أنه واقع تحت سيطرة خدر عميق أكثر فاعلية من السخونة التي تحتوي المكان. وعلى السجادة التبريزية السميكة، استقرت فيما بيننا منضدة مثلثة عليها قدحان كبيران من السحلب الساخن يهف منهما دخان أبيض شفاف، وقلت وأنا أراقب الدكتور حليم من طَرَف خفي، حتى لا تفوتني حركة من حركاته :

. والآن يا دكتور حليم.. فإنني كلي آذان صاغية .

بدا أن الدكتور يجاهد ليرد عليَّ، وبصعوبة رسم ابتسامة باهتة احتلت جزءًا من وجهه، وقال وهو ينكمش على نفسه :

. البرد الليلة فوق الاحتمال .

. ربما .

قلتها وأنا أكتم ضحكة توشك أن تفلت مني برغم جدية الحديث .

. ما الذي يضحكك؟

. لا، أبدًا.. فقط مفارقة طريفة استرعت انتباهي .

t.me/qurssan

. وما هي؟

قلت :

. أن يشكو من البرد.. من يقوم كل عمله على البرد .

وزادت ابتسامة الدكتور :

. معك حق.. بل قل أيضًا إن الإنسان قد يشكو من البرودة العادية، بينما هو يستعذب درجاتها المطلقة .

وبدأ الدكتور يستعيد نشاطه، وعاد التألق إلى عينيه، ظهر فيهما ذلك البريق الذكي المسيطر، وقال وهو يتناول أقرب القدحين إليه :

. ألا نتناول السحلب الساخن أولًا؟

وتناولت القدح الثاني :

. إنني في حاجة إلى الدفء حقًّا .

ومع ابتلاع جرعات السائل الكثيفة أحسست بها تهبط ساخنة إلى معدتي، لينتشر منها الدفء في جسدي، على أن الدكتور اكتفى باحتواء القدح بين يديه، وراح يتطلع إليَّ في تحفز، ثم مط شفتيه وقال بغتة من بين أسنانه :

. ماذا تريد أن تعرف مني بالضبط؟

ولاحقته بالإجابة :

. كل شيء، الأهداف والمزايا التي ترمي إلى تحقيقها من وراء التبريد .

. الموضوع هو بالفعل أخطر الموضوعات التي عُرفت حتى الآن، وأكثرها حيوية بالنسبة لمستقبل البشرية.. بل لا أخفي عليك إذا احتسبته كتقديري يمثل أهم تغيير جذري سيتعرض له الجنس البشري بأجمعه منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا.. إنه.. ليس باختراع جديد سيزيد في رفاهية الناس.. ولا يمثل حضارة

t.me/qurssan

مثالية تهدف إلى المزيد من الرقي والتقدم.. وليس هو بالميزة التي تلائم أو ينتفع بها عدد من البشر دون الآخر.. وإنما الموضوع حقًا، ولأقصى الحدود، يشكل تغييرًا جذريًا.. عميقًا.. لأسلوب الحياة برمته على ظهر الكرة الأرضية .

وصمت برهة ليلتقط أنفاسه، ثم أضاف في نبرة مخلصة :

. أجل.. كافة المخلوقات الحية سوف يتغير أسلوبها في الحياة.. وخاصة البشر.. المخلوقات العاقلة.. سيتغير لديها الطب، والتعليم، والعواطف، وطرق البحث والاكتشاف، وطرق الحرب، والسفر الملاحي في الكون، بل وحتى عمر الإنسان نفسه وكيفية حياته سوف يتغيران من أساسهما تمامًا .

ولا شك أن الدكتور حليم قد لحظ ما ارتسم على وجهي من علامات الدهشة وعدم التصديق، فقد صمت دفعة واحدة، وبان عليه الغضب وهو يهب واقفًا، ويسحب علبة الغلايين المطعمة بالصدف من فوق الرف القريب، على أنه لم يفتح العلبة، وإنما استدار إليَّ فجأة وهو ممسك بها، وقال في عصبية واضحة :

. يبدو عليك أنك تتصورني.. أخرف .

أجبته في تردد :

. في الحقيقة.. إنني.. أرى ...

لكنه قاطعني برفق :

. لا عليك.. اسمع يا كامل.. لنفرض أنك بطريقةٍ ما استطعت أن تظل حيًا كما أنت حتى عام 3000 ميلادية.. فماذا تسمي هذا؟

قلت وأنا أضع القدح الخاوي على المنضدة :

. أسميه.. معجزة .

. وإذا أمكن حدوثه لمجموعات ضخمة من الناس؟

. حسن.. يكون، كما تدعي، قد حدث تغيير جذري في طول أعمار

t.me/qurssan

. تمامًا.. تمامًا.. وإذا أمكننا شفاء العديد من الأمراض المستعصية التي لا علاج لها للآن؟

. تقصد كالسرطان؟

قال :

. أجل.. مثل السرطان والصرع.. ألا يكون هذا شيئًا مجدِّدًا في حياة البشرية؟

. بل يُعتبر فتحًا مثيرًا .

. عظيم.. وإذا أمكننا اختصار مراحل التعليم المختلفة إلى عُشر مقدارها؟

. كيف؟

قال ببساطة، وهو يجلس ويتناول غليونه من العلبة ويبدأ في ملئه بالتبغ عَطِر الرائحة :

ـ فإذا أمكننا أن نختصر للدارس تحصيله في كل مرحلة من مراحل الدراسة الثلاث في حياته إلى سنة واحدة.. بحيث يُمضي سنة في الابتدائي، وسنة في الثانوي، وثالثة في الجامعة، مع تلاشي فكرة الامتحانات والسقوط والتخلف نهائيًا.. ألا يكون هذا أيضًا شيئًا متطورًا في حياتنا؟

قلت مأخوذًا :

. أكُل الذي ذكرته يمكن تحقيقه من وراء التبريد؟

اندفع الدكتور في حماسة :

. بل وأكثر منه بكثير.. قلت لك إن كل شيء في حياتنا سوف يتغير من جذوره تغييرًا كليًا.. ولكن لنرتب الحقائق ونمسك بكل جزء من الموضوع على حدة.. من أوله .

t.me/qurssan

فقلت، وقد بدأت أرى بعينِ خيالي طاقة براقة من أعماق مستقبلنا البشري تنفتح على اتساعها أمام عقلي المشدود، فأحس اشتياقًا للغوص في قلبها :

. أجل.. أرجوك.. ولنتناول أولًا موضوع الطب .

قال :

ـ في رأيي، ومن خلال تجاربي المتفرعة، فإنه بالنسبة للعلاج بالتبريد يمكن تقسيم الأمراض إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي: الأمراض المستعصية، والأمراض النفسية والعقلية الحادة.. ثم هناك كذلك الجراحات الخطرة .

وصمت برهة، ثم تابع في تفكير عميق :

. وبخصوص القسم الأول، فإن العديد من الأمراض التي لا علاج لها الآن سوف يمكن شفاؤها شفاء تامًّا نهائيًّا.. وعلى رأسها السرطان .

وتمتمت برغمي :

. السرطان.. الذي يفتك بألوف البشر كل عام؟

. هذا ما أقصده.. فإن الخلايا الخبيثة يبطل نموها وتُوقفه درجات البرد القارسة، فما بالك ببضعة أيام يمضيها المريض بداخل أحد أجهزتي في سبات التجمُّد؟ التبريد سيكون في المستقبل العلاج الأمثل لكافة الأورام الخبيثة، والالتهابات الحادة، والقروح الباطنية، والحروق، والالتهابات الجلدية.. وأيضًا عن طريقه سيمكن التغلب على الصدمات الكهربائية، والتسمم الدموي، وأزمات الربو والفواق وغيرها .

وتوقف الدكتور حليم عن الكلام ليعيد إشعال غليونه، ثم عاد يسترسل وهو يستجمع الأفكار المتزاحمة في رأسه :

ـ وأما عن أمراض العقل والنفس، فإن السبات بالتبريد خلال فترات قصيرة متتابعة سيكون أساسيًّا في علاجها، حيث يمكن

t.me/qurssan

أثناء السبات توجيه موجات لاسلكية معينة إلى المخ تعمل على شفاء ما به من نواحي النقص، والانفصام، وازدواج الشخصية وما أشبه.. كما أن التبريد يتيح لمرضى الصرع أن تقوم خلاياهم التالفة بعلاج نفسها، حتى تشفى وتستأنف سابق نشاطها .

وسألت الدكتور حليم :

ـ ألم تقل من قبل إن الشخص المُبرَّد يُعتبر متلاشيًا بالنسبة للزمن؟

. هذا صحيح .

. فكيف إذن سيمكن توجيه موجات، مهما يكن نوعها، إلى شيء لا وجود له.. إلى قطعة من الجماد؟

ولمحت سرورًا يتألق في عينَي الدكتور الذي قال :

. لقد بدأتَ تفهمني وتتجاوب معي.. وفي الحقيقة فإن تبريد مثل هذا الشخص لن يصل به إلى درجة الصفر المطلق، ومقدارها 273 درجة تحت الصفر، وإنما إلى ما هو فوق ذلك.. إلى الدرجة التي يصل فيها إلى ما يشبه النوم فحسب، وحينئذ يمكن مخاطبة المخ عن طريق الموجات.. هل اقتنعت الآن؟

. اقتنعت.. لدرجة أنني أتصور أنه على نفس الطريق يمكن محاربة الانحراف في أغوار عقول المنحرفين أنفسهم .

فقال وهو يشير بإصبعه مؤكدًا :

. بالطبع، هذه فكرة نيرة.. سيمكن بالفعل مستقبلًا تغيير المجرم إلى رجل عادي مسالم بتغيير أفكاره الباطنية، بدلًا من إلقائه في السجن .

وتوقف برهة لينفث حلقة متسعة من دخان التبغ العَطِر، ثم قال :

. بقي الآن القسم الثالث.. الجراحات الخطرة .

قلت معقبًا :

t.me/qurssan

. أظن أن لديَّ فكرة عن الجراحة بالتبريد، فقد زاد الالتجاء إليها في الآونة الأخيرة .

ولكنه قال ساخرًا :

. بالطبع أعرف كافة هذه الاتجاهات.. ولكن صدقني يا كامل فهي جميعًا أفكار متخلفة.. ومحدودة النطاق.. لا تزيد على بتر إصبع أو تركيب صمام بدل آخر تالف.. على أن الجراحات الخطرة التي أعنيها، إنما تدور حول تركيب أعضاء بشرية بأكملها مثل: الأذرع، والسيقان، والقلوب، والأمخاخ، وبقية أعضاء الجسم.. وخاصة للشيوخ ومرضى السكَّر .

. ومن أين نحصل على قطع الغيار البشرية هذه؟

. هذه أمرها بسيط.. إنها تؤخذ من جثث أخرى سليمة بردت عقب وفاة أصحابها نتيجة حادث أو موت فجائي.. ولم تُسعَف فورًا بعربات الإنقاذ .

وتساءلت في حيرة :

. وما هي عربات الإنقاذ؟ !

استدرك الدكتور قائلًا، وهو يدخن غليونه بشراهة :

. آه.. إنها سوف تكون، حسب تصوري، عبارة عن سيارات خفيفة تزود باللاسلكي وبأجهزة مبسطة للتبريد، وتكون منتشرة في أحياء المدينة المختلفة، فإذا ما تلقت إخطارًا بوقوع حادثة لواحد من الأفراد، فإنها تسارع إليه وتلتقطه ثم تبرده بداخلها على الفور.. وهكذا يمكن الاحتفاظ به مُبرَّدًا لحين التصرف فيه فيما بعد .

قلت في تشفٍّ مستتر :

. مع كل ما ذكرت يا دكتور، فلا بد من وجود عدد ولو يسير من الأمراض التي ستظل مستعصية.. ثم لا تنسَ كذلك الأمراض التي ربما استجدت في عصرك القادم.. أمراض تأتينا من كواكب

t.me/qurssan

أخرى ...

. لا.. ستكون هذه من الأمور التافهة أمام منجزات «عصر حليم ».

ونطق الجملة الأخيرة في كثير من الثقة بعد أن اقتنع تمامًا بتسمية العصر المُنتظر باسمه، وكأنه ليس أمرًا جديدًا عليه.. بينما تحركت شفتاي تسألانه :

. ألا توضح لي؟

أجاب :

. هؤلاء المرضى المُستعصي علاجهم، أنا لم أنفِ وجودهم في كل زمان ومكان.. ولكن أعدادهم ستكون محدودة في «عصر حليم» دون شك.. كما أن طريقة معاملتهم هي التي ستتغير كُلِّيَّة حسب تغير وسائل العلاج وتقدمها، فإذا وجدت قلة يسيرة بعد ذلك لا علاج لها ويشرف أصحابها على الموت.. حينئذ.. فإن هؤلاء سيجري تجميدهم في مراكز خاصة بهم، وتسجَّل في قوائم تُحفظ بهذه المراكز حالة كلٍّ منهم على حدة، بحيث يظل في سبات التجمُّد لبضع سنين قادمة، لحين يهتدي العلماء إلى علاج حاسم لمرضه .

ووجدت كلامه فعلًا منطقيًّا، ومقنعًا .

وأحسست بضآلة تفكيري أمام عبقريته، وأمام خياله الخصب. وفي حين انكمشتُ على نفسي، راح هو يتابع في حرارة وإخلاص :

. كنت أحسب أن سؤالك سيسلك طريقًا أكثر جدية.. فهنالك ما هو أهم من علاج الأمراض المستعصية.. هناك الجوهر نفسه، أعمارنا نفسها.. ذلك أن أعمارنا سوف تمتد وتزيد، حتمًا لن يقل عمر إنسان في «عصر حليم» عن مائة وخمسين من الأعوام، إن لم يصل إلى المائتين أو يزيد .

قلت مستفسرًا :

t.me/qurssan

. وهل سيكون ذلك عن طريق إيداع الجسم في الجهاز المُبرِّد لعدد من الأعوام، ثم إيقاظه كل ربع قرن لمدة عامين مثلًا، يُعاد بعدها إلى سابق سباته... وهكذا؟

. الذي تذكره سيكون بالفعل إحدى الوسائل لإطالة العمر أو «مطِّه» كما يقال.. ولكن الوسيلة الرئيسية ستكون بواسطة تجدد الخلايا وإنعاشها.. وهي، حسب مشاهداتي الشخصية، تبلغ أقصى درجات حيويتها خلال فترات التبريد على طريقتي .

. معنى ذلك أن الفرد منا، حين يشعر بالتعب أو الإرهاق، فسيكون في مقدوره أن يجدد قواه ويزيد من حيويته بأن يأخذ.. ماذا أسميه؟ يأخذ «جرعة سبات» في أحد أجهزة التبريد .

وضحك الدكتور في وقار، ضحك من قلبه، وقال، كأنه يستحسن ما بدا في تفكيري من انتعاش زائد :

. ولِمَ لا.. إن هذا سوف يكون عين ما يحدث على وجه التقريب .

غير أن الدكتور سرعان ما عاد إلى سابق جموده واستغراقه في أفكاره، وقد أمسك بغليونه ينظفه في شيء من البلادة، ثم يعاود مَلْأه في بطء شديد وكأنه لاهٍ تمامًا عما يقوم بأدائه .

قال :

. ننتقل الآن إلى التعليم .

. التعليم في «عصر حليم ».

. وهذا أمره يحتاج إلى دقة في طريقة الأداء .

. كيف؟

قال :

. لأنه سيتم بتلقي الدروس بواسطة موجات أو ذبذبات لاسلكية معقدة تخاطب العقل الباطن، وتشحنه بمواد الدراسة والمعلومات الحديثة.. وذلك أثناء السبات بداخل الأجهزة المُبرِّدة، في درجات

t.me/qurssan

تعلو الصفر المطلق مثلما يتم في طريقة العلاج النفسي والعقلي .

قلت :

. معنى ذلك أنه سيكون تعليمًا مُركزًا؟

قال موافقًا :

. وسيكون الدارس بالتالي في غير حاجة لاختبار مدى تحصيله، لأن هذا التحصيل يتم بصورة مضمونة 100%.. وهكذا ستُلغى الامتحانات.. ولا يعود هناك مجال للرسوب.. وكما ذكرت لك في أول حديثنا، فإن سنوات الدراسة المبدئية ثلاث: سنة للابتدائية، وثانية للثانوية، والثالثة للمقرر الجامعي.. كما أنه، حسب رأيي، لا بد من إضافة سنة رابعة للدراسات العليا، وهذه توازي الدكتوراه وتكون إجبارية .

ـ بناءً على ما تقول، فإن العلم الواحد تستغرق دراسته بضعة أيام .

. يومين أو ثلاثة .

ورحت أفكر بصوت مسموع :

ـ الطالب يبدأ دراسته في سن.. لنَقُل الثانية عشرة.. ويتخرج بدرجة الدكتوراه في سن السادسة عشرة.. يا للروعة.. سيكون هذا أبدع أحلام البشرية لو تحقق .

ولكن الدكتور اعترض في استنكار :

. ما الذي تقوله؟ إن الدارس في «عصر حليم» سيبدأ في تلقي أولى معلوماته مع بداية سن الثامنة .

. ولكن ألا يُعتبر طفلًا في هذه المرحلة المبكرة من عمره؟

قال :

. أبدًا.. فالطفولة مسألة نسبية تتحكم فيها ظروف البيئة يا عزيزي.. ولأضرب لك مثلًا، فهي في عالم الحيوان عمرها قصير،

t.me/qurssan

وذلك لمقتضيات الحياة الشاقة التي يحياها.. فندرة الطعام وسط الغابة المتشابكة الوعرة تدفع الشبل الصغير إلى تتبع الفرائس وصيدها، وهو لم يكمل بعدُ عامًا من عمره .

. ولكن الإنسان ...

ـ أنا معك، إن الإنسان يعيش حياة لا تُقاس في أمنها ودعتها، وخاصة لو نظرنا إلى ما سيستجد في العصر المقبل من إمكانيات مذهلة.. غير أن المهام الذهنية التي ستُلقى على عاتق أبناء جيل «عصر حليم» سوف تكون بالغة الضخامة، لا قِبل لك بتصورها.. لذلك فهؤلاء الأبناء مضطرون إلى تحملها في مرحلة مبكرة من سِنِي حياتهم بالرغم من طولها .

قلت معترضًا :

. ولماذا نُثقل عليهم في مبدأ هذه الحياة، وسنواتُ العمر مفتوحة فسيحة أمامهم؟

. لأن العصر المقبل كما قلت سيكون، بالرغم من مظهره المرفه، عصرًا مليئًا بالمسؤوليات والأعباء الدقيقة المضنية .

. كنت أتصوره عصرًا نموذجيًا يرفل فيه ابن آدم في سلام ودعة.. والراحة تعم كل جانب من جوانب حياته ومعيشته .

وابتسم الدكتور :

ـ إن ما تتصوره ممكن التحقيق.. ولكن بعد أن يبلغ الفرد سن المعاش .

وكدت أعلق على كلامه، إلا إنه استطرد :

. وسيُحال الأفراد إلى المعاش عند بلوغهم الخمسين من أعمارهم، وحينئذ يتبقى أمام كلٍّ منهم مائة من الأعوام أو أكثر، هي كلها سنوات راحة وكسل واستمتاع فائق بمباهج الحياة التي تفوق حد التصور.. والآن أوَليست مائة من الأعوام بالكافية للمتعة؟

هززت رأسي دلالة على الموافقة دون أن أزيد، في حين اعتدل

t.me/qurssan

الدكتور في كرسيه وراح يتطلع فيما وراء ظهري إلى الساعة الحائطية، فلما تبين أن عقربيها يحددان الحادية عشرة مساءً، أطلق زمجرة عالية :

. لقد سرقَنا الوقت دون أن نأكل شيئًا .

وأتبع الزمجرة بتصفيقة من يديه، آمرًا عبده أن يُحضر لنا بعض شطائر اللحم بالبيض، مع طاستين من شوربة العدس التي يغرم بتناولها في معظم وجباته. وسألته وأنا أفتُ قطعة من الخبز المقدد وسط السائل المحمر في لون الكهرمان :

. وبعد التعليم.. ما الذي سيتغير أيضًا؟

قال :

. التاريخ .

. ماذا؟

ـ طريقة كتابة التاريخ.. سيبطل فيها الاستعانة بالمراجع والمخطوطات القديمة والبحث في المخلفات الأثرية وسؤال المعمرين، سينتهي عهد كافة هذه الأدوات التقليدية.. سيكون المؤرخ هو نفسه العين التي تحصي وتراقب كل ما يدور على الطبيعة .

ودهشت :

. كأنك تتكلم بالألغاز يا دكتور !

فتابع :

. ليس في الموضوع أي ألغاز.. وإنما هي تخمينات بنيتها ـ بعد دراسة مستفيضة ـ على حقائق علمية منطقية.. ولنأخذ مثالًا.. أنت مؤرخ، ولديك جهاز مبتكر يتيح لك التنقل كما تشاء في أنحاء الزمن.. ويدور حولك من الأحداث ما يصنع تاريخًا في كل دقيقة تمر من عمر البشرية الحافل العريق.. حينئذ سوف تقسم عمرك على فترات معينة من الزمن، فتُبرد جسدك خمسين عامًا،

t.me/qurssan

ثم ترجع لحياتك الطبيعية لمدة عامين تسجل فيهما تاريخك، وتعود بعدهما إلى تبريد جسدك مرة ثانية لمدة خمسين عامًا أخرى.. ثم عامين.. ثم خمسين.. وهكذا... على شريطة أن تُلم في مبدأ كل استيقاظ لك، وفي عرض موجز سريع بواسطة أفلام التسجيل، بكافة ما دار من أحداث خلال فترة سباتك السابقة، لتقوم بنفسك بمطابقة ذلك على ما ستراه وتلمسه لدى استيقاظك بعد الخمسين عامًا من التبريد.. ولا مانع أيضًا من أن يتبادل معك عدد من المؤرخين فترات السبات، بحيث يستيقظ الواحد منكم بالتناوب أثناء فترات سبات الآخرين .

وتساءلت، وأنا أعاني انهيارًا شديدًا من أفكار الدكتور الثورية غطى على إحساسي بأي طعم لِما أبتلعه من طعام، تساءلت كالمشدوه :

. تُرى ماذا يقول أمنحتب، أو ابن خلدون، أو الجبرتي، أو الشيخ محمد عبده.. أو غيرهم.. لو أتيحت لهم الفرصة لمشاهدة مدنيتنا الحاضرة بالعين المجردة وعاشوا وجاسوا خلالها؟ ماذا يقولون؟ وأي كلام سيكتب كلٌّ منهم حينئذ؟

همس الدكتور بدوره :

. لا شك.. حِكَم متدفقة.. وأفكار مُجدِّدة، وخبرات قيمة.. تربط بين الماضي والحاضر لفائدة المستقبل .

وقلت أيضًا :

. وإن توقف الحياة وإعادتها عبر الزمن لن يكون وقفًا على فئة المؤرخين أو الدارسين وحدهم.. بل سيكون هناك الهواة كذلك.. هواة السياحة عبر العصور.. عبر الحضارات ...

توقفت الشطيرة في يد الدكتور حليم عن بلوغ هدفها، فقد اندفع فمه يتكلم في حماس :

. بل سوف تحتفظ كل دولة من الدول بمجموعات من العلماء والخبراء والأخصائيين في أجهزة التبريد، ليكونوا تحت طلبها

t.me/qurssan

في أي وقت تشاء ولأيٍّ من الأغراض.. بل إنني أتصور ما هو أبعد من كل ما جاء ذِكره.. أتصور كل دولة من الدول وقد أعدت لها جيشًا من خيرة شبابها المُدرَّبين على أحدث الأسلحة وأرقى أساليب القتال، ثم أرقدتهم في أقبية وسراديب خفية في باطن الأرض. فإذا ما دعت الضرورة، هبوا خلال دقائق معدودات ليصدوا غزوًا أكيدًا ربما يكون مصدره الفضاء الخارجي .

ورفعت يدي أستوقف الدكتور :

ـ أرجوك.. قف بنا لحظة عند هذا القدر من الحديث، فهناك ما غمض عليَّ فيه .

قطب الدكتور جبينه :

. مثل ماذا؟

قلت :

. بالنسبة لتجميد العلماء.. ألا يُعتبر الواحد منهم بعد تبريده لفترة طويلة من الزمن رجلًا متخلفًا عن عصره مهما كان يملك من طاقة وذكاء؟

أشاح الدكتور بوجهه إلى السقف، وقال غاضبًا :

ـ لا مطلقًا.. العقل البشري يا صديقي يسير بالنسبة لمستواه الذكائي في خط بياني محدد يصعد ببطء إلى أعلى.. غير أنه توجد وسط هذا الخط ومضات قليلة تقفز بسرعات مذهلة نحو القمة.. تلك هي ومضات النبوغ، وهي في رأيي نادرة وتعتبر فلتة من فلتات الطبيعة يصعب تكرارها.. فلماذا إذن نضيع علينا عقلًا مفكرًا نابغة بتركه يستنفد نبوغه في «الفاضية والمليانة» كما يقول المثل العامي؟ ولماذا لا نستخدمه في «المليانة» فحسب؟

اعترضتُ في عناد :

. ولكنه سيكون متخلفًا حتى في طريقة تفكيره .

فأجاب في إصرار :

t.me/qurssan

. في إمكان العقلية المتألقة أن تعوض أي تأخر تجابهه بمجرد قيامها باطلاع يسير على مجريات التطور والتقدم حولها.. بل إنها تبرز وتتفوق كذلك، فلا تنسَ أن التبريد يجدد الحيوية كما سبق أن ذكرنا .

قلت :

. على أنني أرى أن التبريد، مهما طال أمده، فإن الشخص المُبرَّد مصيره، ولنَقُل في نهاية ثلاثة آلاف عام من تبريده.. سيكون إلى فناء .

فأجاب بانفعال، وهو يهز إصبعه في نفي قاطع :

. اسمع يا صديقي.. لا أنا ولا أنت ولا أحد مطلقًا يمكنه التكهن حاليًا بالمدة التي يمكن للجسد البشري أن يظل أثناءها مُبرَّدًا دون أن يتلف جزء من بنائه الجسدي.. فقد تكون ألفًا واحدًا من الأعوام وقد تكون مليونًا.. وإن كنت أتخيلها لانهائية.. وعلى أي الافتراضات فإنه تكفينا مائتان أو ثلاثمائة من الأعوام حتى نستفيد منها لأقصى الحدود .

عدت أُثير مشكلة جديدة :

. ولكنْ.. ألا يُعتبر التبريد تدخلًا سافرًا في مشيئة الله؟

وانطلقت العصبية تشع من عينيه بعد أن كاد يهدأ :

. ما هذا.. إن الذي تقوله هراء.. فلولا إرادة الرب لما توصلنا إلى ذرة مما أصبحنا عليه .

. لا أفهمك .

. إن الرب.. الله.. أكبر من كافة القوى التي نعرفها، وفوق كل إرادة تحكم وتتصرف.. إنه تعالى فوق البشر.. وفوق الكون وما وراء الكون.. أليس هو خالقنا وخالق جميع الموجودات والغيبيات؟

. دون شك .

t.me/qurssan

. إذن ففي مقدوره أن يمنحنا، أو لا يمنحنا البصيرة لنكتشف ما نكتشفه يومًا بعد يوم.. لقد قالوا في الماضي إن فتح جسم الإنسان بالمشرط كفر.. وإن الادعاء بكروية الأرض زندقة.. وإن اعتلاء السماء إلحاد، وخافوا من السيارة، وفزعوا لسماع المذياع، وتوجسوا من أشياء أخرى عديدة .

وإني أضيف: إن الغد القريب سيشهد وصول الإنسان إلى القمر، وإلى الزهرة والمريخ، وإلى غير ذلك من الكواكب.. بل حتمًا سيطوف الإنسان بعبقريته الفذة عبر الكون الفسيح.. وثِق أن هذا كله إنما يحدث بأمر الله ومشيئته الكاملة.. والحكمة الكامنة فيه، حسب اعتقادي، هي الحيلولة دون فناء ذرية بني آدم من الوجود .

وصمت برهة ليضيف في نغمة يائسة :

. غير أن الشيء الذي يفزعني في بعض الأحيان، إنما هو الاتجاه التدميري الكامن في أعماق كل واحد منا، نحن البشر.. والذي قد يقودنا إلى التعجيل بفناء الدنيا قبل أن تتحقق لنا ذُرى أهدافنا وآمالنا على ظهرها .

. وهل يقود الطموح إلى الدمار؟

ـ الإنسان، منذ بدء الخليقة، صياد ماهر بطبعه.. وقد كان في الماضي يكتفي بصيد الحيوان.. وهو قد ملَّ لعبته القديمة، فتحول الآن إلى تصيُّد الأخ الضعيف في أسرته.. يذله ويستعبده ويستعمر مصادر دخله وقُوته.. وفي هذا كل الخطر، فهو قد تحول ليدمر نفسه بنفسه .

ثم صمت، وشاركت الدكتور صمته، وأنا أعرف أنني أشاركه في نفس اللحظة تفكيره العميق في الصورة الغامضة التي سيكون عليها عصره .

وكنا قد انتهينا من تناول الطعام منذ برهة، وشربنا مقدارًا من الشاي الأخضر بالنعناع في أكواب صغيرة .

t.me/qurssan

ووقف الدكتور يفرد لوحة فلكية ضخمة، تناولها من مكان بجواره لم ألحظها من قبل، وقال وهو مشغول بتفحص اللوحة :

. تريد أن تعرف شيئًا عن الملاحة في الكون؟

قلت بهدوء :

. إذا لم يكن هذا يثقل عليك وقد انتصف بنا الليل .

ولم يُجبني، وإنما راحت شفتاه تهتزان في طنين خافت، وهو غارق في تأملاته، متلاشيًا فيها :

. الملاحة عبر الكون.. سيكون عمادها الأول أجهزة التبريد. وقد تسألني: وماذا في استطاعة هذه الأجهزة أن تقدم من أجل الرواد المسافرين إلى الكواكب والأقمار والشموس النائية، حيث تسبح في اللانهائية؟ والجواب مثير.. فإن هؤلاء الرواد ليست أسفارهم بالعادية.. وإنما هي طويلة وقاسية تستمر شهورًا وأعوامًا، يقطعون خلالها ملايين الأميال عبر فضاء صامت، موحش، مظلم، قارس البرودة. لذلك فإن الرواد سيُبرَّدون طوال مرحلة السفر حتى لحظة الوصول، وبذلك يتغلبون على مشاكل عدة، منها مشاكل التغذية، وإخراج الفضلات، والحركة حيث ينعدم الوزن.. ومشاكل مقاومة الضغط الجوي، وندرة الأكسجين في طبقات الجو العليا.. وكذلك مشاكل حماية مَلَّاحي المركَبة الكونية من أخطار الاهتزازات والذبذبات التي تتعرض لها الرحلة، وحتى يتغلبوا على ما يصاحب السفر الطويل من ملل، وضغوط نفسية، وتبلد في الذهن نتيجة الحبس بالأشهر داخل الجدران المحدودة للمركَبة التي تنطلق في وسطٍ لا تتغير مناظره إطلاقًا .

قلت :

. في هذه الحالة ستتم قيادة السفن الكونية عن طريق توجيهها من مراكز إطلاقها على الأرض .

وأضاف :

. مع مساعدة العقول الإلكترونية التى ستزوَّد بها كل مركَبة .

t.me/qurssan

راح الدكتور يحرك أخشاب المدفأة بقضيب حديدي مدبب فيزداد تأجج النيران، بينما أخذت أسأله :

. وماذا أيضًا عن «عصر حليم»؟ وماذا عن معجزات أجهزة التبريد وجيل أجهزة التبريد؟

وانسابت الكلمات من فم الدكتور، في حين زادت قبضته على القضيب المدبب :

. سيكون «عصر حليم» كذلك عصرًا للتحركات الجماعية.. فأجهزة التبريد ستبسَّط وتصبح زهيدة الثمن، فيعم استعمال الناس لها.. ومن هنا، فإنها ستكون الملاذ الوحيد أمام الجماعات عند الإشارة بأي كارثة .

. تقصد الكوارث الجماعية التي تشمل نطاقًا متسعًا من البشر؟

همس :

. أجل.. ولنحاول معًا جمع صورة المستقبل.. في أفريقيا الوسطى مثلًا، ينتشر وباء غامض فتاك، حينئذ تطلق دول المنطقة إشارة الخطر داعية إلى السبات الجماعي في أجهزة التبريد فورًا، ويظل معظم الناس مجمَّدين فيما عدا القلة من الأطباء والمختصين، وحتى يجد هؤلاء المصل الحاسم لجرثومة الوباء.. وننتقل إلى الهند، حيث يعم في إحدى السنوات نقص في موارد الغذاء، وفي الحال يسارع غالبية أفراد الشعب إلى سبات التبريد ...

وأتممت كلامه :

. حتى يتلافى المسؤولون الكارثة، فيتوفر الغذاء ويعم الرخاء مرة أخرى .

وأومأ برأسه مستحسنًا :

. تمامًا... وهكذا .. ونفس الشيء سيكون في الحروب النووية، فإن الأفراد سيهرعون إلى سبات التبريد بمجرد الإنذار بغارة نووية في أقبية مُعدَّة في أعماق الأرض.. وتنفجر قنابل

t.me/qurssan

الهيدروجين.. وتمر شهور.. وربما أعوام.. وبعد انقشاع الإشعاعات المُهلكة بمدة كافية، توقظهم العقول الإلكترونية، فيعودون إلى مزاولة أعمالهم الاعتيادية، إلى جانب إعادة بناء ما خربته الانفجارات .

وبدا على الدكتور أنه تذكر شيئًا مهمًا، فقد استدار إليّ وسألني فجأة :

. هل قرأت عن عصور الجليد؟

ـ التي اجتاحت مناطق أوروبا وأمريكا الشمالية في الأزمنة السحيقة.. لقد قرأت موضوعًا أو موضوعين عن فترات ظهورها على مر التاريخ .

ـ حسن.. وهل تعلم أن نفرًا من العلماء قد نادوا مؤخرًا بأننا مقبلون على عصر جليد جديد خلال المائتي سنة القادمة؟

قلت :

. لا.. لا علم لديّ عما تذكر .

قال :

. إن هذا الذي يتكهن العلماء بحدوثه، لو صح وحدث، فإننا لأول مرة في التاريخ سوف يكون في مقدورنا التغلب عليه .

وفكرت مع الدكتور حليم بصوت عالٍ :

. عن طريق السبات الطويل بداخل أجهزة التبريد. يا للمتعة .

وراقتني الفكرة فرحت أكرر :

. نهرب من عصر الجليد بالسبات في أجهزة التبريد .

. بالضبط.. هذا هو المخرج ولا مخرج سواه.. ثم.. وأحب أن ألفت نظرك إلى نقطة أخرى، فإن التبريد لن يقتصر استعماله على الإنسان فحسب.. وإنما سيشمل كذلك الحيوان، والنبات، وكل ما هو قابل للنماء.. فالماشية سيتم نقلها من بلد إلى بلد وهي

t.me/qurssan

مجمّدة مثلًا، وبذلك نوفر تكاليف تغذيتها، وما تنقصه من أوزان خلال السفر الطويل المرهق. كما أن التبريد سوف يفيدنا في أمر آخر حيوي للغاية ...

. ما هو؟

قال، وهو يطالعني بنظرة غريبة تحدق فيّ ولا تراني على ما يبدو :

. المياه العذبة التي يتزايد الطلب عليها باستمرار، بينما هي تقل وتشح وتكاد تنضب في بعض الأماكن، خاصة القائمة فيها مشاريع التوسع الزراعي واستصلاح الأراضي.. سوف يتيسر مستقبلًا الحصول عليها بإعذاب ماء البحر عن طريق التبريد، وبأزهد التكاليف .

قلت وأنا أتثاءب :

. والحب.. ما هي الصورة التي ترسمها له؟

قال في صدق :

ـ آه.. إنه الشيء الوحيد الذي يحيرني أمره.. فأنا أرى صورته باهتة.. وأتوقع انكسارًا في حدته .

. أريد تفسيرًا لما تقول .

. الأطفال المُبرَّدون سوف يكونون تحت الطلب في أجهزة التبريد، ومن هنا ستهبط حرارة تعلُّق الأم بوليدها.. والرجل.. أيُّ رجل سيمكنه السباحة عبر الكون وعبر الزمن، فيتزوج عشرات الزوجات، ومن هنا سيكون تعلق الزوج بزوجته عارضًا ثانويًا.. والإخوة قد يفترقون كلٌّ في عصر مغاير لعصر أخيه، فلا يعود حينئذ لكلمة الأخوَّة معنى لديهم.. نفس الأسرة الواحدة ستتفكك وينتشر أفرادها، لا عبر مسافات، ولكن عبر أزمنة بعيدة مترامية .

قلت مشفقًا :

ـ هذه صورة قاسية للعاطفة المقدسة.. زهرة كل عصر.. وكل

t.me/qurssan

وجود .

أجاب، وكأنه يحاول إبعاد كابوس يخنقه :

ـ وعلى العموم فربما لا يحدث أي شيء مما أتصور في هذا الاتجاه بالذات.. واعذرني.. فأنا بليد الفهم في أمور العاطفة والحب، فحياتي العملية تغلب على تفكيري .

ورأيت أن انكشاف هذه الثغرة في شخصية الدكتور حليم أمامي قد آلمته وضايقه أمرها، فقد وقف في تثاقل، ودون أن يحاول النظر إلى الساعة الحائطية، اعتذر في كلمات مقتضبة ليفض الاجتماع، متعللًا بتأخر الوقت وإحساسه بتعب مفاجئ في قواه .

t.me/qurssan

2

الأربعاء 7 فبراير 1951

لم أنم الليلة الماضية ولا الليلة التي قبلها، لحظة واحدة لم تغمض فيها عيناي، لقد عاد الأرق يسيطر عليّ في قسوة لليلتين متتاليتين، ولكني استعذبته هذه المرة.. ولم أضجر منه.. فقد سهرت الليلتين مع أفكار الدكتور حليم التي ستقدِّم لنا، من خلال عصره المنتظر، أزهى صورة حلمت بها البشرية منذ وجدت على ظهر كوكب الأرض .

لم أنم الليلة الماضية ولا الليلة التي قبلها، وإنما عشتهما . وقد شرد مني العقل . مع مؤسسات الدكتور ودُوره الضخمة الشامخة للعلاج، والتعليم، وإعداد القادة والمفكرين والمؤرخين حسب الطلب، ورحت أجوس في الأقبية الخفية بين أجساد جنوده المجمَّدين بداخل توابيتهم المرقمة بالألوف.. ثم رفعت رأسي نحو السماء.. وبدأت سفري الطويل بين الكواكب.. حلقت في صاروخ ضخم انطلق رأسًا إلى المريخ، ثم الزهرة، فزحل، ثم إلى كواكب أخرى عديدة لم أعرفها من قبل، ورأيت حضارات راقية أذهلتني.. ولكنني ضقت ذرعًا بكل هذا .

ضقت فكسرت قيدي، وانطلقت أسبح عبر الزمن، بعد أن أخذت سنة من السبات في جهاز التبريد «حليم رقم 3»، وكان خدر البرد رائعًا.. ساحرًا.. وهو يحتويني.. رويدًا.. رويدًا.. ليجعل مني في النهاية قالبًا أصم من الرخام.. وهنا سكت تنفسي.. وتوقف نبضي.. وصمت عقلي .

وأصبحت فجأة عدمًا .

والعدم لا قدرة له على التفكير لأنه غير كائن، ولكني ظللت مع ذلك أردد كلمات الدكتور، وأعيش في عصره الذهبي البراق، ورأيت نفسي من خلال طاقة أقداري وقد أصبحت بين ليلة وأخرى أشهر صحفي في مصر، لا ليس في مصر وحدها، وإنما في أنحاء العالم بأسره، وبفضل قلمي راح اسم الدكتور حليم

t.me/qurssan

يدوي على كل لسان .

لقد حدثت المعجزة التي تمنيتها منذ حداثتي .. فقد استطعت أن أجعل كلماتي تهز الناس من أعماقهم، كما لم يهزها شيء في الوجود من قبل.. ولن يهزها شيء من بعد.. إن الأدب المصري أدب عريق.. عظيم.. خالد.. له أقدام راسخة وأنا أعشقه وأعشق كُتَّابه مرهفي الأحاسيس والوجدان.. ولكنه . في نظري . للأسف أدب واقعي تقليدي.. لا يريد أن يترك يومنا الذي نعيشه ولا يحيد عنه قيد أنملة .. ولو للحظة.. ولقد مللت يومي.. مللت واقع حياتي.. فأنا أعرفه أكثر من غيري، ولا أحب أن يذكرني به أحد في كل حين.. وإنما أنشد شيئًا مغايرًا مُجدِّدًا.. لذلك فأنا أهجر أدب الواقع، أدب الحاضر الملموس .. إلى أدب المستقبل الذي سيكون .

أذهب في خطى متحررة محاولًا أن أرسم صورته على أساس من العلم، والمعرفة، والمنطق، الذي يمكن أن يتحقق يومًا من الأيام.. ذلك الأدب، الذي يسيره نهج علمي جريء، ينقلني من حياتي المألوفة إلى آفاق مبتكرة من الرؤى والتصورات والأحاسيس .

وأقرأ لـ«جول فيرن» و«ويلز» و«أندريه موروا» و«كونان دويل» و«بيير بنوا» و«هكسلي» و«رايدر هاجارد».. وغيرهم.. وأعيش معهم في عوالمهم الغامضة.. فأرحل إلى عالم مفقود.. وأشهد حربًا بين الكواكب، وأعثر على قارة الأطلنتيد المفقودة.. ثم أهبط إلى باطن الكرة الأرضية.. وأتذوق طعام الآلهة.. وأبحث عن الرجل الخفي.. وأطلُّ على عالم «هكسلي» الطريف.. وأزنُ أرواح الموتى.. وأفرُّ من دنيا العميان.. إلى عالم الغد المنتظر .

أفعل الكثير بين أعماق الأرض وأقاصي طبقات السماء.. وأفعل ما أفعل بحكمة.. وتبصُّر، وفي اتزان علمي دقيق.. وأبدو لاهث الأنفاس أحيانًا، ولكنه أمر طبيعي أمام منجزات عقل الإنسان وأفكاره التي تسبق عصرها بزمان .

وحتى شخصية «فرانكنشتاين» كانت تشدني إليها على بشاعتها وإغراقها فى الخيال، فقد أخذت من مادة العلم فكرة إنسانية لم

t.me/qurssan

أكن لأتصورها وحدي.. وهي فكرة مصير الرجل المصنَّع من أجزاء بشرية مختلفة، حين يأبى عليه مجتمعه أن يعيش وسطه في سلام !

هكذا كبرت أمنيتي الوحيدة في صدري .

وأصبحتُ أسير تحقيقها.. أسيرَ أن أكتب أدبًا علميًا يفتح طاقة على مستقبل حياتنا نحن البشر. غير أنني مهما أوتيت من علم مستفيض.. ومن خيال خصب ونظرة ثاقبة متطورة.. فإنني لم أكن أتصور قَطُّ مثل الذي يصنعه الدكتور حليم، ويحاول عن طريقه تغيير نُظم حياتنا من أعماق جذورها .

لكن ها قد حدث وجمعتني الأقدار مع ذلك الطبيب الفذ، وهأنا الآن.. قد سنحت لي الفرصة الذهبية.. فتحت الطاقة أمامي فعلًا، لأقف على أعتاب عالم مهول دون أن أبذل كثير جهد.. فهل تنبهر عيناي من شدة الضياء.. وترتجف شفتاي إلى عنقي ترددًا وإحجامًا؟ هل تهتز أصابعي في اللحظة الحاسمة حين تمسك القلم؟

وتركت وقفتي خلف زجاج النافذة بحجرتي، حيث كنت أراقب قمة التل البعيد من خلال قطرات الندى التي تبلل صفحة الزجاج الملساء من الخارج، واندفعت أرتدي معطفي الثقيل، وأنتقي قلمًا ومجموعة من الأوراق البيضاء، ثم قصدت باب الشرفة وفتحته بعنف، مغادرًا حجرتي إلى المنضدة الموضوعة في ركن الشرفة بالخارج، وسحبت كرسيًا من الخوص وجلست في تصميم أكيد .

وبدأت أسطر عناوين رئيسية لمقالتي المنتظرة عن تجارب الدكتور المثيرة، وراحت أصابعي المتشنجة حول القلم تحفر أشكالًا سوداء عريضة على الورق .

. إنسان الـ1000 عام في الطريق .

. عالِم مصري يسيطر على الزمن ويقهره .

. البشر يتنقلون عبر الزمن تمامًا كما يتنقلون عبر المسافات .

t.me/qurssan

. القاهرة تصبح، ولعدة أجيال قادمة، قبلة للعالم بأجمعه .

. «عصر الذرة» لم يكد يبدأ حتى يكتسحه «عصر حليم» للخلود .

منذ وُجد آدم وحواء والبشرية تطوي صدرها على أمنية غالية.. عزيزة المنال.. ألا وهي إطالة عمر الإنسان لأكبر قدر ممكن من السنين.. ولقد طال بحث قدماء المصريين عن ماء الخلود.. وكانت كليوباترا تجدد شبابها بإكسير الحياة.. وحار السحرة والنطاسيون سعيًا وراء حجر الفلاسفة.. ولكن سُنة الطبيعة ظلت أقوى من كل محاولة، فالإنسان يولد.. وينمو.. ويهرم.. ثم مصيره في النهاية إلى فناء.. مَثله ككل الأحياء على وجه الكرة الأرضية .

ومع مطلع القرن الحالي، تطورت محاولات العلماء لإطالة عمر الإنسان إلى تزويده بغدد، وخصي القرَدة، وخلاصة الهرمونات، وما أشبه .

على أن المعجزة الأكيدة قد تحققت أخيرًا، بعد مرور 1952 عامًا على مولد المسيح، في ذلك المكان القفر الموحش.. النائي.. من تلال المقطم المصرية.. ففي طرف المدينة الصغيرة من ضواحي القاهرة، والتي تُسمى «حلوان الحمامات»، وتُعتبر أول مشتى في الشرق العربي، وفي فيلًا قريبة ترقد في بطن الجبل الرابض شرقًا منذ الأزل.. توصل . بعد تجارب استغرقت 30 عامًا . العالِم المغمور حليم صبرون إلى معرفة سر الخلود، الذي حار سعيًا وراءه العلماء، والفلاسفة، والأطباء، قرونًا وأجيالًا ...

وفي غمرة الحماس المسيطر عليَّ، رحت أصف شكل الدكتور حليم، وأصف الفيلًا التي يسكنها، ومكان المعملين منها، وأصف ما يحيطه من مساعدين، ومن جو علمي أصيل، ثم انتقلت إلى أعماله وتجاربه، تجربة وراء تجربة، حتى وصلت في النهاية إلى تجاربه الناجحة على الإنسان، ثم تطرقت إلى أفكاره .. وإلى عصره.. الحافل بكل ما ييسر الحياة الخالدة التي سيحياها أبناء ذلك العصر .

t.me/qurssan

لكن القلم ثقل بين أصابعي بغتة .

وتوقفت عن الكتابة .

لقد كانت نقطة شاذة حقًّا تلك التي اعترضتني فقلبت موازين عقلي، وأخذتُ أردد في أعماقي: لأي هدف نعيش كل هذه الأعوام الطوال المتخمة بالنعيم؟ لماذا نقطع كل ذلك الشوط من أعمارنا، والذي لا تبدو له نهاية.. إذن.. إذا كان الواحد منا سيمضيه في صحراء التيه وحده.. بمفرده.. دون رفيق سوى ظله هو؟

ولقد هالني الخاطر القاتم، وصدمني .

أي عالم براق هذا الذي ظننته؟ وكيف سيكون متقدمًا وهو يباعد بين الآباء والأبناء.. بين الإخوة والأخوات.. بين الزوجة ورجلها.. والفرد وأسرته.. والصديق وصديقه؟ كلٌّ يذهب في زمن مغاير عن زمن الآخرين، كلٌّ يسبح في عالم بعيد ومختلف عن عالم أقاربه ورفاقه، وعلى هذا القياس، فكل واحد من هؤلاء لن يعود يرى سوى نفسه، فنفسه وحدها هي التي ستلازمه.. وأما الآخرون، حتى أقرب أقاربه.. حتى أبوه.. وولده.. فإنهم متغيرون، متبلدون، متباعدون .

لا يربطه بالواحد منهم أي رباط من أي نوع، اللهم سوى شهادة الميلاد .

وحينئذ، سوف يكون القانون المطلق الذي يسود هو الأنانية. فأي مجتمع هذا الذي يزدهر في ظل الأنانية وحب الذات؟ وأي رباط بديل سيجمع أفراده؟

أم لن يكون هناك رباط أو صلة بالمرة؟ وقررت أن أترقب فرصة مواتية لأناقش الدكتور حليم فيما توصلت إليه، بدون أن أحاول إيلامه بهدم ما يبنيه من آمال عراض. هكذا هبط حماسي للكتابة، واكتفيت بأن أمضيت بقية اليوم في مطالعة واحد من كتب الدكتور، اخترته لأحد فلكيِّي مصر البارزين هو محمود حمدي الفلكي، الذي كتب أكثر من 20 مؤلَّفًا في علم الفلك والأرصاد .

t.me/qurssan

الخميس 8 فبراير 1951

كنت قد اعتزمت أن أؤجل الكتابة في مذكراتي حتى الغد، لانشغالي في تكملة مسودة المقالة الصحفية التي أعدُّها منذ الأمس، ولكن التصرف الذي بدر من الدكتور حليم، على غير انتظارٍ الليلة، كان شيئًا شاذًا تجدر الإشارة إليه .

لقد تناولت طعامي طيلة الأمس في حجرتي لسفر الدكتور إلى القاهرة، كما أخبرني مرزوق. كذلك فقد تناولت إفطار وغداء اليوم في نفس الحجرة وحدي. وكان مرزوق وعبده يتبادلان تقديم الوجبات، والدخول على حجرتي إذا ما استدعت الضرورة أن أطلب خدمة معينة، وإن كنت لا أذكر ما الذي طلبته. على أنه قرابة الساعة الخامسة والنصف مساءً، وكانت الشمس قد غربت وراء الأفق توًّا، وأنا جالس في الشرفة أكتب مقالتي، تناهت إلى سمعي طرقات قوية على باب الحجرة. ولما أذنت للطارق بالدخول، رأيت الباب ينفرج عن قامة الدكتور حليم، وقد تدثر في رداء أسود للسهرة بدون ربطة عنق .

وكان وجهه متجهمًا، شديد الشحوب .

حياني بإيماءة من رأسه، ثم توجه مباشرة إلى حيث الأوراق التي أكتب عليها موضوعة أمامي على المنضدة، وفي عصبية لم يحاول إخفاءها، تناول الأوراق وراح يلتهمها صامتًا .

وسألته بعد برهة من الوقت، وأنا أحاول معرفة سبب غضبه :

. أهناك أمر سيئ قد حدث؟

وبدلًا من إجابتي عن سؤالي، وجه إليَّ بدوره سؤالًا عاصفًا :

. من الذي أذن لك أن تكتب هذا؟

فقلت في حيرة :

. أكتب ماذا؟

t.me/qurssan

قال، وهو يطرق الأوراق بأطراف أصابعه :

. هذا، المدون هنا .

ودهشت :

. إنها مقالة صحفية عن تجاربك المثيرة.. وأتذكر أننا قد اتفقنا مسبقًا على أن أقوم بكتابتها.. بل إن كتابتها هي السبب الأصلي لمجيئي إلى فيلَّتك على ما أعتقد !

زمجر وهو مشغول بالقراءة :

. أعرف ذلك .

وعدت أقول في كثير من العتاب، ويبدو أنني كنت غاضبًا أيضًا :

. إذن وكما ترى، فلم يكن هناك مجال لاستئذانك في كتابتها.. ثم هي لا تُسيء إليك في أمر من الأمور، بل على العكس، فإن نشرها مجلبة للشهرة لك.. فإن العالم كله سيعرفك على حقيقتك، فيعرف مدى نبوغك ومدى أهمية بحوثك .

ويبدو أن كلماتي قد أراحته قليلًا، فقد قل عبوسه، وبدا على وجهه التردد وهو يعيد الأوراق إلى مكانها على المنضدة، وقال :

. قصدت من كلماتي.. الموعد .

. أي موعد؟

. لو أنك استشرتني لأخبرتك أن موعد كتابة مثل هذا الكلام لم يَحِن بعد .

قلت :

. لكني ظننت ...

فقاطعني في ضيق :

. إن ما تظنه شيءٌ.. وما تُحتمه الضرورة شيء مختلف بالمرة .

t.me/qurssan

فسألته بعدم فهم :

. ولماذا تُحتم الضرورة عدم نشر ما توصلتَ إليه من كشوفات مدهشة على الناس؟

أجابني في شيء من الملاينة :

. أنا لم أصل بعد إلى نهاية بحوثي يا كامل.. فهناك الكثير مما هو لا يزال في طريق التجربة والإعداد .

ثم ضاقت عيناه، وبان عليه تصميم غريب وهو يتمتم بإصرار :

ـ أجل فقد بقي موضوع مهم عليَّ أن أنتهي منه أولًا، وحينئذ سوف تكون بقية الأمور سهلة، ميسرة لقلمك الرشيق.. بل إنني لا أخفي عنك سرًّا لو أخبرتك بأنني إنما أدخرك ليوم عظيم، ستكون فيه أنت وحدك المتحدث الرسمي بلساني .

سألته :

. وهل لي أن أستفسر عن ذلك الموضوع المهم؟

أجاب في نغمة قاطعة :

. لا ليس الآن.. لم يحن الوقت بعد.. لم يحن الوقت لأخبرك، وإنما فقط أرجوك ألا تفكر حاليًا في كتابة مثل هذا الكلام قبل أن أطلب أنا منك ذلك .

ولم يزد بحرف، وتركني وتوجه يغادر المكان في عجلة تمامًا كما أقبل منذ برهة في عجلة، ووجدت نفسي أتوه في دوامة عميقة من التساؤل والحيرة: لماذا غَضِبته هذه لمجرد كتابتي للمقال الذي سبق اتفاقنا على كتابته؟ وما هو الموضوع المهم الذي يجب أن ينهيه أولًا؟ وعن ماذا سأكون متحدثًا رسميًّا بلسانه؟ ثم وقبل كل شيء، لقد قصد عقب دخوله إلى حيث الأوراق مباشرة وتناولها، وكأنه يعرف سلفًا بمضمون محتوياتها.. تُرى من الذي أخطره بذلك المضمون؟ أهو مرزوق؟

أسئلة كثيرة مبهمة ومتشابكة راحت تدور وتدور في قاع رأسي،

t.me/qurssan

ولكني لم أحاول البحث عن إجابات فورية لها، وإنما تركت ذلك لما سوف تكشف عنه الأيام قريبًا، وربما حاولت التوصل إلى معرفة بعضها بنفسي .

t.me/qurssan

3

الثلاثاء 13 فبراير 1951

يبدو أنني قد انسقت وراء تجارب الدكتور حليم واكتشافاته، فلم أكتب عن مدى نمو العلاقة بيني وبين ربيبته زين. ومع أن لقاءاتي معها لم تكن تتميز بالحرية، فقد كنت ألقاها غالبًا على مائدة الغداء، حيث نتناوله ثلاثتنا، أنا وهي والدكتور، إلا إنني كنت أستطيع أن أفوز برؤيتها خلسة في بعض الليالي، فأمضي معها أوقاتًا ممتعة، نُسرف فيها معًا في الحديث عن شتى الموضوعات، وذلك حينما كان الدكتور يبيت لسبب من الأسباب بخارج فيلَّا الجبل .

كذلك كنت ألقاها مصادفة في بعض الأحيان عبر الحديقة أو خلال أحد ممرات الفيلَّا، وحينئذ كنت إما أن أتجاهل وجودها، وإما أن أتبادل معها كلمات عَجْلى، تفاديًا لأن أسبب لها إحراجًا من أي نوع مع السكان المقيمين. وكنهاية طبيعية لعلاقتي بزين، نَمت العاطفة بيننا، وربطت بين قلبينا برباط هادئ عفيف، وقد حرص كلٌّ منا حتى هذه اللحظة على ألا يفاتح صاحبه بالعاطفة التي يحسها نحوه، وإن كان من السهل على كلينا أن يقرأ ذلك في عينَي الآخر في وضوح تام .

ولقد نبتت في رأسي مرارًا فكرة الذهاب بها بعيدًا فيما وراء أسوار الدكتور المُحكمة، وليكن إلى منزل عاصم أفندي قريب المرحوم والدي، حيث ستجد الأمان حتمًا في كنف أسرته، على أنها كانت تأبى أن تستجيب لدعوتي بتركها الفيلَّا وحدها، وتصرُّ على أنها إن تركتها، فإنما تفعل ذلك من أجل أن أذهب بدوري معها .

غير أنه لم يكن من السهل عليَّ مغادرة المكان، في تلك الأثناء بالذات، وبعد أن قطعت كل هذا الشوط مع الدكتور النابغة وتجاربه المثيرة .

فقد كنت أحس إحساسًا قويًّا بأنني ربما كنت الشخص الوحيد،

t.me/qurssan

في تلك البقعة القصية عن الأنظار، الذي لا ينطوي تحت سلطان الدكتور ونظامه الصارم، مما يتيح لي فرصة التصرف دون تحيز أو فقدان لشخصيتي المحايدة، والتي تأبى الانصياع لأي عمل إجرامي، خاصة أنني أحس أن ثمة أمورًا مريبة لا تزال تجري وراء الكواليس .

من هنا فقد كان واجبي أن أبقى، مهما كان الثمن الذي أدفعه من تعريض حياة زين وحياتي للخطر، طالما بقينا في الفيلَّا. وكان يقويني على تمسكي بموقفي ثقتي في نفسي، وإحساسي بوجودي قريبًا من زين، مما يتيح لي أن أمد يد المعونة إليها فور احتياجها لها. وقد مرت ليالٍ أربع لم يظهر فيها الدكتور حليم في أنحاء الفيلَّا، فتهيأت بذلك الفرصة للقائي بزين مرتين، كانت أولاهما أول أمس، حيث جلسنا ما يقرب من الساعة تحت إحدى شجرات الحديقة الوارفة، وأما المرة الثانية فقد تمت الليلة في الشرفة المقابلة لحجرتي .

وكنت أجلس في هدأة الليل على أحد الكراسي الخوصية، وقد تدثرتُ بمعطفي الثقيل وكوفيتي المصنوعة من وبر الجمال. وبالرغم من هبوب هواء الجبل البحري القارس على مكمني، إلا إنني كنت أعيش لحظة الانتظار بكل ما فيها من ترقب ولهفة، فلم أعطِ بالًا للزمهرير الذي يتسلل لعظامي، وإنما أخذت أجوس بعينيَّ محاولًا اختراق الظلمة المنتشرة بطول الحديقة استعجالًا لمقدمها .

والتقطَت أذناي همسًا رقيقًا، ظننته في البداية هفهفة زهرة يقسو عليها الهواء.. ثم تبينت أنه صوتها :

. كامل.. كامل ...

همست بدوري :

. أين أنتِ يا زين؟

وجاءني صوتها أكثر وضوحًا :

t.me/qurssan

. هنا.. أسفل الشرفة .

ولمحتُ خيالها، فاتكأت على السور، وتدليت بنصف جسدي ألحُ عليها في الصعود. رفعت ذراعها إليَّ في استسلام، فأحكمتُ قبضتي على كلتا يديها، ورحت أرفع جسدها الرَّخص رويدًا رويدًا، وهي مستكينة كالطفلة البريئة، وأجلستها على حافة السور .

ووجدتُ وجهها يكاد يلامس وجهي.. وأنفاسها الساخنة تلفح بشرتي في حنان.. وشممتُ رائحتها العطرة تحمل إلى صدري بعضًا من روحها .

فتأججت عواطفي.. ولم أتمالك نفسي، فمددتُ ذراعيَّ واحتويت خصرها بينهما.. ورحت أعتصرها في شوق طاغٍ.. ولم تُبدِ هي اعتراضًا، وإنما استكانت دون حراك.. على أنني سرعان ما تمالكت مشاعري، فأطلقتها دون أن أُقبلها، وقلت معتذرًا :

. أرجوك أن تسامحيني .

فتمتمت في خجل وانفعال :

. سامحتك .

وقُدتها في الظلمة إلى الكرسي الخوصي، وسحبت آخر وجلست قبالتها، وأنا أمدُ في جسمي محاولًا حمايتها من أن تنالها الرياح الآتية من خلفي قدر الإمكان، كذلك مددتُ يديَّ أحتوي فيهما يديها لأدفئهما لها .

كان من الصعب عليَّ أن ألمح تعبيرات وجهها، ولا ضوء يبدد الظلمة الجاثمة حولنا، إلا بصيص خافت لتألق نجم بعيد، راح يطل علينا من بين السحب المتزاحمة فوقنا، والتي كان الهواء يدفعها الواحدة تلو الأخرى في حمية وإصرار. ومع ذلك فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب كل ثنية في وجه زين حلو التقاطيع، وأتمثل ما ترتديه من ملابس بسيطة جميلة الذوق .

وساد صمت حالم بالرغم من برودة الهواء وقسوته، فقلت محاولًا

t.me/qurssan

جرَّها إلى الكلام :

ـ يبدو أن الدكتور، حين يتغيب، يركن أتباعُه إلى التهاون في أعمالهم .

تساءلت :

ـ تقصد اختلال مواعيد الطعام؟

ـ بل أقصد عدم إطلاقهم كلاب الحراسة في الحديقة لليلتين متتاليتين.. أمس، واليوم .

قالت :

ـ إن عدم إطلاقهم أمر مقصود، وذلك حتى لا تنبح الكلاب لدى مَقدم العربة .

ورنت كلمة «العربة» في أذنيَّ فبدت شاذة :

ـ العربة؟

ـ أجل العربة التي يجرها الجوادان.. لقد اكتشفت وقوفها لدى البوابة الليلة الماضية.. وقد جلبوا منها تابوتًا حملوه حتى أوصلوه إلى داخل المعمل الجنوبي .

همستُ في انزعاج :

ـ معنى ذلك أنهم جلبوا جسدًا جديدًا؟

وسمعتها تُضيف :

ـ وعدم إطلاق الكلاب حتى الآن معناه أن العربة ستأتي الليلة كذلك.. وتجلب ضحية ثانية .

ونسيت، فضغطت على أصابعها في ضيق :

ـ ومن الذي يتجرأ على فعل ذلك في غياب الدكتور؟

لكنها قالت ببطء :

t.me/qurssan

. مَن قال إن الدكتور غير موجود في الفيلَّا؟

. مرزوق.. وعبده.. وأنا نفسي لم ألمح الدكتور طيلة أربعة أيام .

. الدكتور عمي.. لم يبرح جدران الفيلَّا قَطُّ .

قلت مندهشًا :

. تقصدين.. أنه ...

فقاطعتني برفق :

. صدقني.. إنه هناك في معمله .

. معنى ذلك أنه يختفي عن الأعين.. ولكنْ.. لماذا يفعل ذلك؟

ـ لأنه منهمك في عمل خطير .. وهذه هي عادته كلما شغلته بحوثه.. لا طعام.. ولا شراب .. ولا نوم.. بل إنه لا يغادر المعمل بالمرة .

قلت معاتبًا :

. ولماذا لم تخبريني بالأمس أو قبل الأمس؟

قالت :

. لقد صدقتُ الأكذوبة بدوري.. فلم أتصور أن عمي سيعود إلى تبريد مرضاه بعد ما قطعه من وعد أمامك.. حتى سمعت البارحة قرب الفجر همساتهم لدى مَقدم العربة.. ثم رأيتهم خفية وهم يحملون التابوت في أعماق الليل .

. وهل تأكدتِ أن التابوت كان يحوي جسدًا بالفعل؟

. لم تُتَح لي الفرصة .

وتركت يديها، واعتدلت في جلستي متضايقًا، وقلت بحدة ظاهرة :

. حتمًا كان يضم بين أخشابه العفنة واحدًا من مرضاه المُشرفين

t.me/qurssan

على الموت .

ولم تَرُد زين، وإنما راحت أصابعها الدقيقة تبحث عن الدفء الذي ألفته بين أصابعي، واحتوت يداي يديها من جديد.. وازدادت قربًا مني :

. قلبي يحدثني أن الدكتور يرتب شيئًا بعيدًا عن تصورنا.. فقد بدأ يُخفي تحركاته وأفعاله حتى عني أنا !

قلت أستحثها :

. يدبر ماذا؟ أفصحي .

قالت بعد أن تصورتها تحاول التفكير عبثًا :

. لا أدري.. فقط أتخيله شيئًا رهيبًا هذه المرة .

قلت وأنا أكتم غيظي :

. سوف أناقشه الحساب في الغد .

وتشبثت أصابعها في لحمي :

. لا.. لا تفعل يا كامل .

. وعليّ أن أتأكد من قدوم العربة الليلة، وأراقب ما سيجلبون منها بنفسي .

ودنت بوجهها من وجهي في توسل :

. إنه وأتباعه كثيرون.. وقد يؤذونك لو تعرضت لخططهم .

قلت وأنا أومئ نحو الفيلّا، وكأنني أتوقع أنها تراني بالرغم من ستار الظلام :

. لا بد لي على الأقل أن أعرف ما الذي يدبرونه هناك.. خلف هذه الجدران .

فهتفت وهي تزداد التصاقًا بي :

t.me/qurssan

. إنني خائفة يا كامل .

وبدا أن السماء تشارك زين ذعرها، فقد احتجب النجم نهائيًا خلف سحابة قاتمة، وتساقطت قطرات متفرقة من المطر فوقنا، فازدادت رطوبة الجو، بينما أخذ الهواء يزداد عصفًا وشراسة وسط أشجار الحديقة .

ورحت أمسح القطرات التي بللت وجه زين بأصابعي، ومسحتُ على شعرها الأملس في نعومة الحرير، وهمستُ لها، وأنا أدغدغ كتفها في ولهٍ وتعلق عميقين :

ـ لا تخافي يا عزيزتي.. طالما أنا بجوارك، فلن يمسَّك أحدهم بسوء .

فأراحت رأسها الصغير على كتفي، مطلقة تنهيدة عميقة، وبدا أنها تلتقط أنفاسها بصعوبة وهي تهمس في أذني :

. لا أدري.. لو لم ألقك.. وأعرفك.. ما الذي كان سيؤول إليه مصيري في هذا المكان الموحش، الذي يبعث على السآمة والانقباض.. لا شك أن اليأس كان سيتملكني حتى أنتحر.. أو أذوي.. وأنتهي على فراش المرض .

ضايقتني همساتها، فجاهدت لأُبعد عنها مخاوفها، وأخفف ما بها من آلام وشجن، وطمأنتُها مرة أخرى لتواجدي بقربها، حتى هدأت واستكانت تمامًا إلى كلماتي الحانية المخلصة، وأحسستُ بها وهي منكمشة بجواري كقطة تقبع في حجر سيدها، تنشد العطف والدفء والأمان .

ولكن القطة انتفضت، وغرست أصابعها في لحمي على غير عادتها :

. أنصت يا كامل، ألا تسمع شيئًا؟

تعالى وسط زمجرة الريح صوت عجلات العربة تمر عبر البوابة، حتى توقفت لدى بداية ممر البواكي بالحديقة.. وتمتمتُ برغمي في صوت أجش :

t.me/qurssan

. لقد وصلت العربة .

وسألتني زين :

. كم الساعة الآن؟

فحدقت في ميناء الساعة الفوسفوري :

. الحادية عشرة .

. وصلت مبكرة على غير العادة .

قالتها وهي مطرقة، ثم أضافت :

. إنني مضطرة للذهاب إلى حجرتي على الفور حتى لا يلحظوا غيابي.. فربما طلبني عمي الدكتور لسبب من الأسباب .

فقلت، وأنا أساعدها على تخطي سور الشرفة والهبوط من خلفه :

. اذهبي فإنني سأتسلل وحدي لمراقبتهم .

على أنني ما كدت أخطو عبر الحديقة، حتى فوجئت بسائق العربة يطلق لخيله العنان بطول الطريق الصحراوي الضيق إلى حيث يقع المرصد غربًا .

لقد وصلت لحظة إسدال الستار، وبعد أن انتهوا، كما يبدو، من نقل التابوت بمحتوياته الجديدة إلى أعماق الفيلّا .

*

الأربعاء 14 فبراير 1951

حين دلفت إلى حجرة المعمل، تأكد لي من الوهلة الأولى أنني سأكون سيد الموقف، فقد لمحت الصندوق الخشبي المستطيل، والذي يشبه التابوت، يقبع في أحد الأركان، أما جهاز التبريد «حليم رقم 3» فقد كان كعهدي به مثبتًا في الوسط، وقد غُطي بملاءة بيضاء عريضة .

t.me/qurssan

ورفع الدكتور رأسه لدى دخولي، فهالني ما لحظته من إجهاد شديد على وجهه، فقد كانت عيناه جاحظتين تمثلان بؤرتين محمرتين من الدم والعروق الزرقاء النافرة، بينما غارت وجنتاه واتضحت هالات داكنة على جبهته وحول عينيه وأسفل ذقنه .

غير أن الدكتور بادر فاستقبلني بابتسامة بدت مثيرة للضحك وسط شحوب وجهه واحمرار عينيه، وأشار إلى أحد كراسي المعمل الحديدية في وهن وتعب واضحين :

. تفضل .

وجلست ووجهي قبالة وجهه :

. والآن يا أستاذ كامل.. طلباتك؟

دخلت في الموضوع مباشرة، فقلت وأنا أحاول أن أخفف من وقع كلماتي :

ـ بالأمس.. لم أنم حتى ساعة متأخرة.. فالجو.. أقصد برودة الجو.. والمطر الذي كان يهطل.. وهبوب الريح.. كل ذلك دفعني إلى الأرق .

تساءل والابتسامة لم تبرح وجهه :

. وماذا بعد أن أرقت؟

أكملت :

. خرجت إلى الشرفة.. ثم إلى الحديقة.. فتيسر لي أن أرى كل ما حدث .

. حسن.. وماذا رأيت؟

وأشرت إلى التابوت :

ـ رأيتهم وهم يحملون هذا إلى داخل المبنى، فعرفت أنهم قد جلبوا جسدًا، لتقوم أنت بتبريده .

t.me/qurssan

ولم يُجب الدكتور عن تساؤلي، وإنما توجه إلى الجهاز، وفي حركة ساخرة جذب من عليه الملاءة، فإذا به ينكشف من تحتها وقد بدا خاويًا .

وفي حركة تلقائية، طرت بنظراتي نحو التابوت، فتتبعها الدكتور وفهمها .

وببرود تخطى جهاز التبريد، وخطا إلى حيث يرقد الصندوق، ومد يده وقبض على حافة غطائه، ورفعه إلى أعلى بطول ذراعيه، حتى أسنده على الحائط، ثم استدار ليقول لي في خبث :

. ألا تقترب وتلقي نظرة؟

وتوجهتُ مترددًا إلى حيث يرقد الصندوق أو التابوت، ولكنْ بدلًا من الجثة التي توقعت مشاهدتها، رأيت عِددًا غريبة الشكل قد رُصت بداخله، تبينت بينها شيئًا يشبه المُنبه الكبير .

. كما ترى ليس في الصندوق أي جثمان.. وإنما هي آلات إلكترونية وصلت إليّ الليلة البارحة بعد أن انتهت رحلتها الطويلة خلال قدومها من لندن .

تمتمت :

. آلات إلكترونية من لندن؟

. تمامًا .

. وما علاقتها بالتبريد؟

ـ إنها ستدخل في تركيب جهاز حديث للتبريد أقوم بتصميمه حاليًا .

همست حالمًا :

. هذه مفاجأة كبيرة حقًّا !

وحدث شيء ملفت في هذه اللحظة، فقد صك سمعي لثانية أو

t.me/qurssan

لدهشتي، يأتي من خلف دولاب البياضات الذي يتوسط الحائط المنحوت في الجبل، ولم أكن لألتفت إليه لولا لمحة القلق التي انتابت الدكتور حين سماعه، فإذا به يتأبط ذراعي تاركًا الصندوق، ليعود بي عبر الحجرة إلى مجلسه الأول وهو يقول :

. أرجو أن تكون قد تأكدت تمامًا الآن.. أنني ما زلت عند وعدي .

وأجبته في تلعثم :

. في الحقيقة فإنني أشعر بضيق من موقفي .

ثم أضفت وأنا أحاول تغيير مجرى الحديث :

. ولكن قل لي.. ما هي قصة الجهاز الجديد؟

أشاح بوجهه بعيدًا في إعياء شديد، وقال وهو يلوح بيده المهتزة قليلًا :

ـ لا.. أرجو أن تؤجل ذلك إلى فرصة أخرى.. فإنني في هذه اللحظة جدُ متعَب، وفي مسيس الحاجة لآخذ قسطًا من النوم، فأنا لم أنم سوى ساعات معدودات طيلة الأسبوع الماضي بأكمله .

ولم أجد مندوحة من الاعتذار إليه مرة ثانية، ثم تركته وتوجهت إلى حجرتي، على أنني، وقد أوشكت على مغادرة المعمل، سمعته يوجه إليَّ كلامًا :

. لحظة واحدة من فضلك .

وتوقفت متسائلًا، ولمحته يتناول مظروفًا بنيًّا مما يُستعمل في المصالح الحكومية ويلوح به إليَّ :

. لقد نسيتُ أن أسلمكَ هذا .

وتناولت منه المظروف، وحين تبينت الكلمات المدونة عليه عرفت فيها خط رؤوف، فتمتمت في صوت خافت :

. خطاب لي.. من رؤوف صديقي .

t.me/qurssan

ولاحقني صوته متعَبًا، ولكنه مُنذِر في نفس الوقت :

. لقد وصل إلينا منذ بضعة أيام.. وقد أنساني انهماكي في بحوثي أن أُسلِّمه لك.. وعلى العموم فإنني أدعوك إلى عدم الرد عليه.. فأنا لا أحب أن يأخذ عامل البريد طريقه إلى فيلَّتي مرة أخرى .

ثم أضاف :

. وآسف لفتح المظروف عن طريق الخطأ .

وهكذا غادرتُ حجرة المعمل وأنا أعرف أنه قد بات مُحرَّمًا عليَّ أي لقاء مع رؤوف، ولو خلال خطابات البريد. كذلك عرفت حقيقة جديدة، وهي أن الدكتور حليم قد بدأ في صناعة جهاز للتبريد على نمط متغير .

فلِمَ يُحرِّم عليَّ الدكتور أي اتصال بخارج الفيلَّا، حتى بواسطة البريد؟

وما هو شكل جهاز التبريد الجديد؟ وما هي طريقة تشغيله؟

ثم.. ما هو مصدر ذلك الصوت الذي يشبه إدارة مولد التبريد؟ وهل يُخفي الدكتور شيئًا بداخل الدولاب؟

t.me/qurssan

4

الثلاثاء 6 مارس 1951

لقد ازداد اليقين لديَّ بأن الدكتور حليم يقوم فعلًا بإعداد شيء غامض، على جانب عظيم من الأهمية.. ومن السرية.. فقد عاد إلى اعتكافه وتواريه عن الأنظار، وشملت الفيلَّا موجة من التحركات المريبة، كنت أحس بها تدور في الخفاء خلال مماشيها وحجراتها، كما كنت أسمع، في بعض الأحيان، همسات متقطعة تتعالى عبر الحديقة، يعقبها سماع عجلات العربة وهي تُقبل أو تُدبر، مُهرولة في ضوضاء يتنقل صداها عميقًا بين التلال .

كذلك يبدو أن الدكتور لم يعد يثق بي، بل ربما بات يخشاني خشية كبيرة، فقد أصبحَت مراقبته لي علنية ومتصلة ليلًا ونهارًا، حتى لكأنني أصبحت سجينًا مثل واحد من حيوانات تجاربه، مع فارق أن سجني يمتاز باتساع مساحته، وبخلوه من القضبان الظاهرية .

فمنذ صبيحة 14 فبراير الماضي، وطيلة الأيام العشرين التالية، وأنا موضوع تحت مراقبة دقيقة من كافة سكان الفيلَّا، فيما عدا زين، كما أن تابع الدكتور المدعو «عبده» أصبح يلازمني كظلي في كافة تنقلاتي .

وفي الحقيقة، لم يكن الأمر ليسبب لي من الضيق بالقدر الذي يفزعني، ففيما عدا الرقابة الصارمة المفروضة عليَّ، كانت جميع طلباتي ميسرة مجابة، وبخاصة ترددي على مكتبة الدكتور التي كنت أحرص على تمضية فسحتي الإجبارية بين جدرانها، فأقفل بابها عليَّ، وأظل أنهل من محتويات سطورها، كما أمضي الساعات الطوال جالسًا بين رائحة أوراقها المحببة بمفردي .

ولكن أمرًا وحيدًا كان مع ذلك يُنغِّص عليَّ أيامي، هو استحالة لقائي بزين وعينا عبده تحصيان عليَّ كل حركة تصدر مني .

ولقد استسلمتُ في المبدأ للأمر الواقع، وقنعت برؤية زين عبر

t.me/qurssan

مائدة الطعام عند ظهيرة كل يوم، غير أن تعاقب الأيام في رتابة مملة، دون أن ألقاها وأتحدث معها وأحتوي يديها بين يدي كما تعودتُ أن أفعل، بات احتماله واقعًا ثقيلًا يعذبني. كذلك فإن المراقبة المفروضة عليَّ جعلتني أحس بالعزلة والانطواء، بل إن مجرد مرأى جدران فيلَّا الجبل، بنفس أشكالها التي لا تتغير حولي، بات يصيبني بالاختناق .

تسللتُ خلف زين عقب الانتهاء من تناول الغداء، وهمستُ لها في غفلة من الجميع :

. أريد أن أراكِ الليلة .

ودون أن تلتفت نحوي، تساءلَت في صوت مرتعش وهي تتقدمني :

. لِمَ؟

. لأمر مهم .

. أين؟

ـ انتظريني في حجرتك.. لدى النافذة.. حوالي الحادية عشرة، قبل أن يطلقوا الكلاب .

وزاد ارتعاشها :

. آه.. ولكنْ ...

. أرجوكِ.. لا يوجد مكان أكثر أمنًا .

وحوالي العاشرة مساءً، وبعد أن غادرني عبده ببقايا عشائي، قمت بإغلاق الباب، ثم احتفظت بالمفتاح في جيبي، وبعدئذ أطفأت النور ودلفت إلى فراشي دون أن أخلع ملابسي، وأنا أتوخى التثاؤب بصوت عالٍ، حتى يسمعني من يتنصت بالخارج، فيتأكد من تأهبي للنوم. وبعد ربع ساعة، تسللت بهدوء من باب الشرفة لأنطلق عبر الحديقة إلى مقصدي .

t.me/qurssan

في خطوات حذرة، درت مع بناء الفيلَّا إلى أن وصلت لجانبها الشرقي، حيث توجد الحجرة الخاصة بزين. وهناك، تحت نافذتها، وكانت الحجرة غير مُضاءة، توقفت برهة ألتقط فيها أنفاسي وأراقب المكان المحيط بي، حتى إذا ما استوثقت من سكونه التام، مددت يدي وطرقت النافذة طرقتين خافتتين. وفي الحال، فُتح جزء منها، وفي وثبة موفقة كنت أمرُّ عبرها، ثم أغلقها ورائي، وأسحب الستار الكثيف .

وحينئذ أضاءت زين لمبة سهاري صغيرة فسطع شعاع أصفر باهت، ورأيتها تقف قبالتي بعينيها الحزينتين وشعرها الأسود المجدول في ضفيرة تستقر على كتفها، وكانت ترتدي قميص نوم أبيض تزينه وردات حمراء متناثرة، فبدت لنظري النغم الحلو الوحيد الذي يتردد شاذًّا بين جنبات وادي الدكتور حليم القفر، الذي تشيع اللعنة في أرجائه .

وقبل أن تتفوه شفاهنا بالكلام، تلاقت أصابعنا في عناق صامت يفيض بالحنين والشوق .

تمتمتُ معتذرًا :

. لم يكن أمامي سوى أن ألقاكِ هنا ...

ولكنها لم تُجبني، وإنما جذبتني برفق إلى طرف أريكة تقابل فراشها الخشبي الصغير، وهي تقول :

. ألا تجلس أولًا .

وجلسنا متجاورَين، وأصابعنا لا تزال متشابكة، غير أنني تركت أصابعها لأقف في حنق وأنا أضرب كفًّا بكف :

. ولكن بالله.. ما الذي يدبره الدكتور عمك من جديد؟

فقالت زين مستفسرة :

. ألم تقل إنه أراك عِددًا وآلات جلبها ليصنع منها نوعًا محسَّنًا من أجهزة التبريد؟

t.me/qurssan

أجبت :

. نعم.. كانت معدات إلكترونية .

فقطبَت جبينها، ومطَّت شفتيها لتقول في شيء من التردد :

. أما أنا فقد سمعت ما قد يضيف جديدًا .

. سمعتِ ماذا؟

وقفَت بدورها، واقتربَت مني لتهمس في أذني ببطء :

. كنت خارجة من دورة المياه منذ حوالي الساعتين أو ما يزيد، حينما سمعت الدكتور يؤكد على مرزوق أن يسارع بلقائه فور عودته من البلدة .

تساءلتُ :

. حلوان؟

قالت :

. أجل حلوان.. وذلك ليخطره بنتيجة مقابلته للرسول .

. أيُّ رسول؟

. لا علم لي .

. إذن فمرزوق قد غادر الفيلَّا إلى البلدة ليقابل رسولًا.. هه وماذا أضافا؟

. بل افترقا.. فقد غادر مرزوق الفيلَّا، وقد لمحته بنفسي وهو ينصرف .

وعدت أتحرك عبر الحجرة جيئة وذهابًا، وأنا أحاول ترتيب ما لديَّ من معلومات علَّني أصل إلى نتيجة ما، ولكن السبل كلها كانت مسدودة في مواجهتي .

غير أن فكرة طارئة لمعت أمامي فجأة، فسألتها وأنا أقبض على

t.me/qurssan

يدها كأنني أود انتزاع الجواب قسرًا :

. أين ذهب الدكتور عقب افتراقه عن مرزوق؟

قالت وهي دهِشة من مسلكي المفاجئ :

. إلى حجرته.. لماذا تسأل؟

تجاهلت سؤالها :

. منذ متى حدث ذلك؟

. قلتُ منذ حوالي الساعتين .

. وهل غادر الدكتور حجرته بعدئذ؟

. لم يغادرها حتى هذه اللحظة .

وازدادت قبضتي على معصمها إحكامًا :

. أمتأكدة أنتِ يا زين؟

تمتمت، وهي ترقب وجهي في ريبة :

. بالطبع .

فأرخيت قبضتي، وابتسمت .

ويبدو أن عينيَّ قد تألقتا ففضحتاني، فقد قالت، وفي عصبية ظاهرة فيها العتاب والتحذير :

. ولكن الدكتور لا يزال مستيقظًا يا كامل... وربما يغادر حجرته لسبب من الأسباب .

لكني أجبتها بلامبالاة :

. لا يهم.. فلن يأخذ الأمر مني سوى دقائق معدودات .

همسَت في قلق :

. ماذا انتويت أن تفعل؟

t.me/qurssan

فقلت ببساطة :

. سأزور المعمل .

وارتسم الخوف على وجهها :

. متى؟

. الآن .

فمدت كلتا يديها إليَّ في توسل :

. الآن.. مستحيل .

قلت في ثقة :

. بل هو الوقت المناسب يا زين.. فعمك بحجرته.. ومرزوق في البلدة، وعبده رابض أمام حجرتي.. ولا بد أن دام العز نائمة أيضًا.. بالمناسبة أين يوجد فراشها؟

. بالحجرة المجاورة للمطبخ .. وهي نائمة فعلًا .

قلت، وأنا أتوجه إلى باب حجرتها المُطل على الممشى الجنوبي :

. أرأيتِ.. كل الظروف مُهيأة تمامًا .

وبدا عليها الاستسلام إزاء إصراري، وهي تسبقني إلى الباب لتفتحه ببطء، وتطل منه، ثم تومئ إليَّ بالخروج :

. إذن فعجِّل.. وأرجوك يا كامل ألا تنسى نفسك هناك .

وفي الممر الطويل، المُضاء بالفوانيس المعلقة، والمغطى بمشاية صوفية متعرجة الحواف، انطلقتُ أخطو خطوات متسعة أوصلتني إلى حيث يستقر باب المعمل في ثوانٍ .

وكما توقعت، وجدت الباب مغلقًا، وقد فشلَت جهودي لفتحه عنوة، غير أنني، حين استدرت لأعود، لمحت شيئًا بعث في نفسي الأمل، فقد كانت هناك مجموعة من المفاتيح معلقة على مسمار

t.me/qurssan

بجوار أقرب الفوانيس إلى الباب، ووجدت بينها المفتاح المنشود.. وبعد أن نجحت في فتح الباب، علقت المفاتيح مكانها، وعدت ألج إلى الداخل ثم أغلقه ورائي. وفي نظرة شاملة تتبعت فيها ضوء عود الثقاب الذي أشعلته، استطعت أن أُلمَّ بمحتويات المعمل من أثاث وأجهزة، فوجدتها على حالها لم تتغير .

فقط كانت هناك لفافة من الورق المقوى لم أرَها قبلًا، قد طُويت وأُسندت بطولها على حافة المنضدة الواطئة التي يجلس إليها الدكتور حليم عادة، وحين فضضتها، وجدتها تحوي رسمًا محيرًا لجهاز يماثل جهاز التبريد «حليم رقم 3» مع بعض الإضافات لم أعرف كنهها، وكان الرسم يحمل عنوانًا مكبرًا :

جهاز حليم الآلي للتبريد

إذن فهذا هو العمل الذي يشغل الدكتور هذه الأيام .

وأشعلت عددًا من أعواد الثقاب في أنحاء الحجرة الغارقة في الصمت، هنا وهناك، وفي جميع الزوايا، فلم أرَ قَطُّ ما يبعث على الريبة .. لا بد أنني وزين قد ظلمنا الرجل .

وأن الأمر لا يخرج عن دائرة طباعه حينما ينكب بكل جوارحه لإنجاز عمل من أعماله، ولقد قالت زين إن الدكتور، حين يحتويه عمل جديد، فإنه يستغرقه بكل ما لديه من وقت وطاقة، فلا يأكل ولا ينام إلا لمامًا، ولا بد أن ما تجلبه العربة ليس أجسادًا بشرية وإنما فعلًا آلات إلكترونية، يستوردها لحسابه من خارج القُطر المصري، كما ذكر لي. على أن القدر لم يشأ أن أسترسل طويلًا في تصوراتي الحانية على الدكتور حليم، فقد تعالى لثوانٍ صوت خافت بدد سكون حجرة المعمل .

واستيقظت حواسي... هل سمعته من قبل؟

وتذكرت آخر لقاء لي مع الدكتور في نفس هذه الحجرة، فتوجهَت عيناي تلقائيًّا إلى دولاب البياضات: لقد صدر الصوت الغريب، الشبيه بإدارة مولد جهاز التبريد، من بين أخشابه في ذلك اليوم .

t.me/qurssan

ولقد كنت يومها في شغل عنه فلم أعطِه اهتمامًا كبيرًا، أما الآن، في هذه اللحظة بالذات.. ففي مقدوري أن أتحقق من كنهه، وهل مصدره آلة من آلاته، أو واحد من حيوانات تجاربه .

حين خطوت متوجهًا إلى الدولاب، اتضح لي فعلًا أن المولد الكهربائي اليدوي غير موجود بالحجرة. ولكنْ ما علاقة اختفائه بالصوت الغريب؟ وفتحت الدولاب، وطالعتني أكداس من المناشف وأكياس المخدات والملايات البيضاء ولفافات القطن والشاش ولا شيء عدا ذلك، غير أن الصوت تعالى مرة ثانية، فأرشدني إلى فجوة مربعة تمتد في الحائط في ركن رفٍّ علوي .

وعلى شعاع عود الثقاب، ظهر في وسط الفجوة مقبض نحاسي أنيق، وكانت مفاجأة لم أتوقعها حين أدرت المقبض فتحرك دولاب البياضات بأكمله، ليكشف خلفه عن ممر واطئ في أعماق الجبل. وأشعلت عودًا آخر من الثقاب، وعلى ضوئه، وجدت الممر الصخري يمتد لمسافة تقارب 12 مترًا، بينما ارتفاعه لا يزيد على مترين في عرض متر ونصف .

وبدا طرف الممر البعيد ينحني نحو اليسار، فتختفي نهايته وراء كتف بارزة من الصخر، عُلق عليه فانوس مُضاء .

إذن فالممر مطروق... ولكنْ تُرى إلى أين يقود؟

في فضول لا يقاوَم، تقدمت مسترشدًا بضوء الفانوس المعلق، وبالصوت الذي انطلق في هذه الأثناء واضحًا عبر الممر، واستدرت مع الكتف الصخرية لأجد نفسي قبالة امتداد آخر للممر، بطول يقرب من 8 أمتار، ينتهي بباب حديدي موارب .

ومن خلف الباب كان يهدر دوي المولد، كما كان يخرج ضوء متراقص لنيران ولا شك تتوهج فيما وراءه، وفي هدوء وصلت إلى الباب، وفي حرص شديد مددت عنقي أتطلع إلى الداخل، ولفح وجهي جو ساخن، في حين وقع بصري على عدد من ألواح الصاج والألومنيوم، مسنَدة على الحائط في غير عناية، يقابلها فرن لصهر المعادن تتأجج بداخله نيران قوية. وكان هناك رجلان

t.me/qurssan

يعملان في بطء وصمت، وقد تجردا من ملابسهما فيما عدا سروال يستر عورة كلٍّ منهما. وبينما انهمك الأول في تشكيل أحد الألواح المصهورة في الفرن، وقف الثاني قبالة أحد أجهزة التبريد «حليم رقم 3» يقوم بتركيب مفاتيحه، ويختبرها عن طريق تشغيل المولد اليدوي الذي كان قبلًا موضوعًا في حجرة المعمل، وكانت عضلاتهما البارزة تتلألأ تحت وهج النيران، وقد كساها العرق بلمعان غريب .

كما كانت هناك أكداس من المطارق والعِدد المنوعة، وأكداس من المخلفات، وبقايا الصاج والألومنيوم متناثرة في فوضى شاملة. كذلك لاحظت فرشًا موضوعًا في إحدى الزوايا، خمنت أنه ولا بد فراش هذين الرجلين. وأما الجو الذي يسود المكان فقد كان مكتومًا خانقًا بفعل الدخان والروائح النفَّاذة المتصاعدة من الفرن خلال مدخنة قصيرة تصل للسقف، ويتسرب معظمها في المكان لضيق المدخنة أو قِدمها. ولقد تساءلتُ عن الطرف الآخر من المدخنة: تُرى من أين يبرز وأنا لم ألحظه يعلو الفيلَّا؟

كذلك حين انسحبت عائدًا ببطء من حيث جئت، كنت أتساءل أيضًا عن مدى احتياج الدكتور حليم لتصنيع عدد إضافي من أجهزة التبريد، وأين يضعها إذا كانت لديه كمية منها. وكان الجواب عن أسئلتي ينتظرني لدى بداية الممر، بالقرب من مدخله ناحية حجرة المعمل، فقد لاحظت بابًا حديديًّا آخر لم أره عند مقدمي العجِل لتواريه في الجزء المظلم، البعيد عن الفانوس المعلق بالكتف الصخرية .

وكان بالباب مفتاحه، فمددت يدي وفتحته، ثم دفعته برفق، لتهب عليَّ دفقة من البرودة القتالة: فهل أنا داخل بقدمي إلى ثلاجة عملاقة؟

وكانت مفاجأة جديدة أشَد وقعًا في انتظاري ...

فلم تطأ قدماي هذه المرة حجرة مألوفة من حجرات بحث الدكتور حليم، وإنما دخلت بهوًا أو قاعة ضخمة مترامية الأركان، ضمت أغرب ما يتصوره عقل ناضج مفكر ويراه فى أى بقعة على

t.me/qurssan

ظهر الكرة الأرضية. فعلى ضوء الفوسفور المخضر السابحة فيه القاعة، والذي يبرز من ثنايا خفية بالسقف، شاهدت صفًّا من أجهزة التبريد تتراص متجاورة في توازٍ بديع، وعددتُها فوجدتها تبلغ خمسة عشر جهازًا، عشرة منها رُصَّت يمينًا بامتداد القاعة، تُقابلها على الجانب الأيسر خمسة أخرى .

وكانت كلها أجهزة لتبريد البشر من طراز «حليم رقم 3»، كما كان بعضها يضم أجسادًا لأناس مجمَّدين، رقدوا في سباتهم العدمي وقد خُفضت رؤوسهم إلى أسفل، كما جرت العادة حسب طبيعة تركيب الأجهزة، وشرعت أقدامهم نحو السقف بالزاوية المعهودة التي تقارب 30 درجة، واقتربتُ من قمة القدمين الممتدتين عاليًا لأقرب الأجهزة التي في الجانب الأيمن من القاعة، كانت هناك بطاقة صغيرة من الورق المقوى قد ثُبتت خلف إطار زجاجي، وكُتبت عليها الكلمات التالية بالآلة الكاتبة :

الاسم : «روجيه مونسينيور ».

السن: 40 عامًا. الموطن: فرنسي .

التخصص: أستاذ في الفلسفة .

تاريخ التبريد: 31 يناير عام 1951 .

وكانت بطاقة الجهاز التالي تحمل كلمات :

الاسم : «شوسومي أوكياما ».

السن: 45 عامًا. الموطن: ياباني .

التخصص: أستاذ في علم الأجناس .

تاريخ التبريد: 4 فبراير سنة 1951 .

وضمت البطاقة الثالثة البيانات التالية :

الاسم : عبد الحميد المهيري .

السن: 42 عامًا. الموطن: مصري .

t.me/qurssan

التخصص: أستاذ في علم الاجتماع .

تاريخ التبريد: 4 فبراير سنة 1951 .

والبطاقة الرابعة :

الاسم : «جودفري هوايت ».

السن: 39 عامًا. الموطن: إنجليزي .

التخصص: أستاذ في الإلكترونيات .

تاريخ التبريد: 6 فبراير سنة 1951 .

والبطاقة الخامسة :

الاسم : «فالنتين ستبانوفتش ».

السن: 42 عامًا. الموطن: روسي .

التخصص: أستاذ جرَّاح أخصائي في زراعة الأعضاء .

تاريخ التبريد: 8 فبراير سنة 1951 .

أما البطاقة السادسة فقد حوت :

الاسم : «ألكسندر تريفي ».

السن: 47 عامًا. الموطن: فرنسي .

التخصص: أستاذ في علم الذرة .

تاريخ التبريد: 13 فبراير سنة 1951 .

وتذكرت على الفور حادثًا كاد ينمحي من ذاكرتي، تذكرت اللفافة التي عثرت عليها فوق أحد الأرفف بمكتبة الدكتور حليم، والتي كانت تضم جرائد ثلاثًا، وتأكد لي الآن سبب احتفاظ الدكتور بالجرائد وإحاطته الأخبار المنشورة فيها بدوائر كبيرة بالقلم الرصاص، فقد كان الأشخاص الخمسة المذكورون بهذه الجرائد

t.me/qurssan

هم أنفسهم من ضمن الذين يرقدون أمام بصري الآن، مجمَّدين في أجهزة التبريد، بعد أن تمكن الدكتور، بطريقة ما، من أن يأتي بهم إلى فيلَّته الراقدة في بطن الجبل. وأما الشخص المجمَّد في الجهاز السادس فقد أضيف إلى المجموعة مؤخرًا على ما يبدو .

ورويدًا رويدًا انزاحت بعض الغشاوة عن عينيَّ، وتبلورت أجزاء ضخمة من الحقيقة أمام بصري: لقد كانت العربة تجلب داخل التوابيت الخشبية أجسادًا بالفعل إلى جانب العِدد والآلات، وإلا ما اهتم الدكتور حقًّا باتخاذ كل هذه الحيطة حول أعماله.. حول دنياه.. وإلا ما عزلني أنا وزين هذه العزلة التامة عن سره الدفين. أنا لأنني أُعتبر غريبًا، وزين لأنها مرهفة الشعور والإحساس. وتركت تأملاتي جانبًا لأتفحص الأجهزة الأربعة الباقية يمينًا. وكانت هذه خالية من أي أجساد بداخلها، كما كانت بطاقاتها تتضمن البيانات أمام عدد من خاناتها، بينما ظلت بقية الخانات شاغرة. وقرأت على بطاقة كل جهازٍ الكلمات الآتية على التوالي :

«فرنر فرانز أولباخ». ألماني. أستاذ في العلاج بالكهرباء .

«نيلز ستفنسون». سويدي. أستاذ في جراحة المخ والأعصاب .

«هوراس بهادور». هندي. أستاذ كيميائي، مخترع عدة أمصال .

أحمد فتح الله الصاوي. مصري. أستاذ في جراحة الأورام الخبيثة .

فهل أصحاب الأسماء الأربعة الأخيرة هم في طريقهم الآن إلى هذه القاعة؟ وهل هناك عصابة دولية تقوم باختطاف هؤلاء العلماء لصالح الدكتور حليم؟

وقفت مشدوهًا أحدق في الأدلة المادية على ارتكاب عمل هو بالقطع غير مشروع، ولكن لماذا ينزع عالم نابغة مثل الدكتور حليم إلى الجريمة؟

وتقلص فمي عن كلمات جافة خرجت برغمي خاوية لا معنى لها: لا بد أن وراء كل هذا دافعًا خطيرًا، خطيرًا، بالغ الخطورة .

t.me/qurssan

واستدرت وأنا أحكم معطفي عليَّ من شدة البرودة بالقاعة إلى الجانب الآخر منها، الجانب الأيسر، ومررت تحت لافتة ضخمة كُتبت على لوح من الزجاج عُلق بسلسلتين متقابلتين ثُبتتا في سقف القاعة. وكانت اللافتة تحمل تحذيرًا :

ممنوع إشعال أي نيران . مواد ملتهبة .

وعرفت سبب التحذير، إنه ذلك الغاز المُبرِّد الذي يحتويه كل جهاز تبريد من هذه الأجهزة المتراصة أمامي. وأكملت سيري إلى جانب القاعة الأيسر، وكما ذكرت قبلًا، كانت تربض فيه أجهزة للتبريد، وكانت خالية كلها، وحين حدقت في بطاقاتها، عثرت على أسماء أصحابها، وذُهلت... فقد قرأت اسم «زين» مدونًا على البطاقة الأولى، واسم «دام العز» على الثانية، ثم اسم «حسنين عبد الهادي» على التي تليها، ثم اسمي على الرابعة، في حين خلت بطاقة الجهاز الأخير من أي اسم أو أي بيانات .

ووقفت محملقًا.. فاغر الفم .

يا للصدفة المدهشة التي قادتني إلى كل الذي أرى .

يا للقدر الرائع الذي وقف بي على أبواب أكثر الكشوفات إثارة وإغراقًا في العجب .

إذن فنحن، ساكني الفيلَّا، لنا كذلك «في الطيب نصيب»، لنا في تفكير الدكتور وفي خطته جانب.. ومهم.. وإن كنت لم أرَ إشارة إلى اسم الدكتور أو اسم تابعيه، مرزوق وعبده، بين بطاقات الأجهزة المُبرِّدة .

ولكن مهلًا، لنقف ثانية واحدة أمام الاسم «حسنين عبد الهادي»، فإن وقعه ليس بغريب على أذنيَّ، فهناك هاتف في أعماقي ينادي بأنني قد سمعته يتردد من قبل وبطريقة غير عادية .

إلا إن سجل أيامي البعيدة لم يسعفني.. فقررت أن أكتفي بهذا القدر من الاستطلاع، والعودة إلى حجرة زين، فقد دلتني ساعتي على أنني أضعت، حتى الآن، ما يزيد على الثلث ساعة، وقدَّرت

t.me/qurssan

أن زين تنتظر مقدمي، وهي في أشد حالات الانزعاج. وهكذا، انسحبت في هدوء من القاعة، وأعدت إغلاقها تاركًا المفتاح في قفل الباب كما كان، غير أنني ما كدت أتوجه إلى حيث يوجد المنفذ السري بين حجرة المعمل وأول الممر، حتى طرقت سمعي أصوات نقاش صادرة من وراء دولاب البياضات الذي يسد المنفذ الوحيد .

وميزت صوتَي الدكتور حليم وتابِعه مرزوق .

وكان الدكتور يقول في انفعال :

. كنت أظن أننا سننتهي من هذا الموضوع عاجلًا .

وتعالى صوت مرزوق :

. لكن المؤتمر تأجل عقده بالقاهرة لمدة شهر بأكمله، وبالتالي سيتأخر قدوم العلماء.. وهذا أمر يخرج عن مقدورنا .

وعاد الدكتور يسأل :

. وماذا بالنسبة للدكتور «هوراس»؟ أظن أنه سيأتي إلى بورسعيد بعد 9 أيام .

فقال مرزوق :

. أجل في يوم 15 من الشهر الحالي، ويصل إلى القاهرة في الليلة التالية، وقد رتبت كل شيء لضمه إلى المكان المُعَد له في... «قلعة النائمين »...

وهمست لنفسي وأنا أقف في مكمني وراء دولاب البياضات ناحية الممر الصخري: سيجلبونه ليرقد داخل جهاز التبريد المدون عليه اسمه، ولكن لماذا يختطفون كل هذا العدد من العلماء ويبردونهم؟

وتعالت إلى أذنيَّ أصوات تقليب الأوراق، بينما قال مرزوق :

. بالمناسبة.. فقد أصلحت لك التروس الثلاثة حسب المواصفات

t.me/qurssan

التي طلبتها.. هاك إياها .

وهمس الدكتور :

. آه.. أحسنت .

وساد صمت قصير، قطعه مرزوق بسؤال عرضي :

. أظن أنه بإحضار التروس يصبح كل شيء معَدًّا؟

وبدا على الدكتور أنه مشغول في أمرٍ ما، فقد أجاب باقتضاب :

. تمامًا .

وعاد مرزوق يتمتم :

. معنى ذلك أنك ستبدأ في تركيب الجهاز.. ربما من الغد.. أليس كذلك؟

. وفيمَ العجلة؟

قال مرزوق :

. أبدًا.. فقط ...

وتساءل الدكتور في حدة :

. فقط ماذا؟

. وددت لو تنتهي من صنع هذا الجهاز.. لنطمئن، فيأخذ كلٌّ منا مكانه في «قلعة النائمين».. وبذلك نقطع صلتنا بالعالم حولنا فترة طويلة من الزمن، حتى ينسانا الجميع .

وتكلم الدكتور في نغمة متهكمة :

. هه.. أرى أن القلق من أن يكتشف أعمالنا أحد.. يعود فيراودك .

وقال مرزوق في حقد :

. على الأقل هذا الـ«كامل» الذي أحضرتَه إلى الفيلَّا... إنني أخشى

t.me/qurssan

من وجوده بيننا .

. كامل؟

. أجل هذا الفضولي.. كم أود لو تخلصنا منه .

لكن الدكتور همس :

. قلت لك أكثر من مرة إنه شخص لا خطر من ورائه.. وها نحن نقوم بمراقبته من أجل راحتك.. ثم.. أنت تعرف مدى احتياجنا إليه.. في المشروع .

وهمست لنفسي في توجس شديد، وأنا أتململ في وقفتي: تُرى أي مشروع جهنمي يدبرون؟

بينما التقط مرزوق أنفاسه بسرعة :

ـ المشروع.. لو تعلم.. إنه السبب المباشر لرغبتي في الاختفاء سريعًا عن أعين الناس.. فلو اكتُشف المشروع قبل الأوان، لهلكنا جميعًا .

وقال الدكتور في صوت خافت :

. وأنا أشد منك رغبة في الانطلاق بعيدًا.. معها .

قال مرزوق في خبث :

. زين؟

فتعالى صوت الدكتور، وهو يتهدج في عاطفة دافقة :

. زين.. حبي ونبض قلبي.. والغرام الوحيد في حياتي .

وكدت أصيح في مكمني المتواري: الدكتور يحب زين.. يا لها من مهزلة !

في حين تعالى صوت الدكتور رقيقًا حالمًا، حتى خلته يبكي :

. كم أتعذب.. وأتألم.. شوقًا لكل نفَس من أنفاسها دون أن تدري

t.me/qurssan

هي.. كم.. أترقب يوم يضمني وإياها رباط أبدي لا ينفصم.. ولكن هل يتحقق لي ذلك؟

قال مرزوق :

. ثق يا دكتور.. سوف تكون الفتاة لك.. أليست هي أختًا لزوجتك المتوفاة؟

. أجل .

. أوَلست مربيها وولي نعمتها؟

. تمامًا .

فقال مرزوق يتملق :

- إذن متى يحين الوقت المناسب، فإنك كفيل بإخبارها بأنها ليست ابنة لأخيك، وإنما هي أخت لزوجتك المتوفاة.. ومن ثمَّ تشرح لها كل شيء.. كيف أويتها لديك.. وكيف تحملت مشاق تربيتها.. وتدريبها.. ثم تخبرها بما تعده من أجلها.. ومن أجل مستقبلها معك.. وصدقني يا دكتور، فإنني على ثقة من أنها لن تستطيع بعدئذ أي مقاومة لسلطانك القوي، المتسلط .

واتضح صوت الدكتور تشوبه فرحة مستترة :

. أتظن ذلك يا حسنين؟

وتجمدت في وقفتي خلف دولاب البياضات .

فقد عرفت بغتة من هو الرجل الذي يطلق على نفسه اسم «مرزوق»، إنه الطبيب الجراح حسنين عبد الهادي، المجرم الهارب من العدالة، وقد قرأت قصة هربه من سجن طرة، منذ أكثر من عشرة أعوام مضت، على صفحات الصحف والمجلات، بعد أن نُسب إليه القيام ببحوث مريبة تسببت في وفاة عدد من مرضاه .

على أنني أفقت من صدمة اكتشاف حقيقة شخصية مرزوق على صوت الدكتور، وهو يأمر تابِعه أو زميله الطبيب الهارب من

t.me/qurssan

العدالة بأن يتوجه إلى الحديقة ليطلق كلاب الحراسة. بينما يذهب هو إلى حجرة زين ليعرف لماذا استدعته في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل .

وقد خمنتُ أن زين افتعلت سببًا لتشغل الدكتور عني، حتى تتيح لي فرصة العودة إلى حجرتي بعد أن أحست بذهاب الدكتور إلى المعمل .

وحينئذ اعتزمت القيام بمهمة رأيت من الضروري أداءها لتعطيل أعمال الدكتور حليم أيًّا كانت أهدافها، وذلك قبل أن أغادر الممر نهائيًّا .

فعدت إلى القاعة أو «قلعة النائمين» كما يطلقون عليها.. ودلفتُ إليها.. وفي سرعة ودقة بالغتَين، رحت أخرب كافة الأجزاء الدقيقة في أجهزة التبريد الخالية من الأجساد، حتى وثقت من تعذر تجميد أناس جدد بداخلها قبل بضعة أيام على الأقل، تكون كافية لأتدبر أمري، وأمر زين معي .

t.me/qurssan

5

الأربعاء 7 مارس 1951

حين استيقظت صبيحة اليوم وفتحت باب الشرفة، استقبلتني أولى نسمات الربيع المبكرة خلال مرورها عبر الحديقة .

وكانت السماء رائقة.. مضيئة.. وقد بدت الهامات الخضراء تحتها متمايلة في تراخٍ، تُدفِّئها الأشعة الذهبية.. بينما راحت جماعات من الطير والعصافير تتواثب بين أفرع الشجر، مطلقة نغماتها النشوى.. أما حيوانات التجارب فقد لمحتُها عن بُعد، تقبع ساكنة تحت أشعة الشمس، وهي تلعق أجسامها في كسل واستكانة .

على أن تَحسُّن الجو اليوم وهدوءه.. وطيب نسماته.. لم يكن ليخفف من وطأة الصراع الذي نشب في أعماقي منذ صدمتني أحداث الأمس، فقد كانت تفوق في غرابتها كل ما يمكن تصوره من خيال. وهل يتوقع إنسان، مهما جنح به الفكر والتصور، أن يرى في إحدى بقاع الجبل الجرداء مثل تلك القاعة الرحبة، وقد زُودت بأحدث الأجهزة العلمية، وتضم بين جوانبها أناسًا من البشر استسلموا، سواء قسرًا أم برضاهم، إلى سبات التجمُّد، دون أن يملك أحدهم الفكاك من أسره العدمي اللانهائي؟ غير أن مصدر الإزعاج الأكبر لديَّ كان إحساسي بعجزي التام إزاء خطط وتدابير الدكتور حليم، وقد كنت شبه أسير في فيلَّا الجبل، وكنت أعزل وحيدًا .

ثم كانت هناك أيضًا عقبة كؤود تقيد حركتي، تلك هي زين.. فإن مجرد شعوري بتعرضها لبطش الدكتور كان كفيلًا بشلِّ تفكيري، ولكن السلبية لم تكن قَطُّ من طبعي .

ولم يكن التردد من شيمي .

لذلك حزمت أمري على اتخاذ خطوة جريئة وحاسمة، وكان لا بد من إنجازها بأسرع ما يكون، فعجلت بكتابة كلمة مختصرة على قصاصة من الورق، أُخطر فيها زين بأنه قد جدَّ من الأحداث ما

t.me/qurssan

يحتم مغادرتنا الفيلّا على الفور، وطلبت منها إعداد الضروري من حاجياتها بداخل حقيبة صغيرة، ثم انتظاري بحجرتها حيث سأوافيها قرابة الحادية عشرة مساءً، وكنت قد عزمت على إعطاء القصاصة خفية لزين خلال فترة تناول الغداء معًا... إلا إن الظروف أعطتني فرصة سانحة مدهشة، قبيل إعداد المائدة، مكنتني من التفاهم مع زين شخصيًّا، وذلك حين تعالى ضجيج أهل الفيلّا على أثر فرار قرد من حيوانات التجارب أثناء تنظيف حظيرته، وقد شارك الجميع، بمن فيهم الدكتور حليم نفسه، في مطاردة القرد على سفح التل القريب من حدود الحديقة الغربية .

وحين تطلعتُ إلى الحديقة من نافذة المكتبة، شاهدت الدكتور ورجاله يتواثبون فوق الصخور المسننة، وهم ينتشرون في شبه مروحة وراء القرد الهارب، ثم لمحتُ زين .

كانت تقف لدى المدخل بقامتها النحيفة، وهي تشب بقدميها الدقيقتين، وقد رفعت عنقها البديعة في أرستقراطية ورشاقة، تراقب الرجال عن كثب في كثير من التحفز، ورأيت عقدًا من الجعارين الزرقاء يتدلى حول عنقها في رفق، حتى يختفي طرفه في فتحة الثوب أعلى صدرها .

وأسرعتُ بمناداتها :

. زين ...

في نظرات دهشة، استدارت إليَّ وراحت تحملق في وجهي، وكأنها لم تكن تتوقع رؤيتي بالفيلّا بعد أن اشترك الكل في المطاردة .

ودلفَت زين إلى حجرة المكتب وهي تقول :

. إذن فأنت وحدك هنا.. دون مراقبة .

فقلت :

ـ لقد أربكهم فرار القرد فغفلوا عن مراقبتي.. وهذا من حسن حظنا .

t.me/qurssan

همسَت في حياء :

. لتراني؟

. سنهرب معًا من هنا.. سنغادر الفيلَّا إلى غير رجعة .

وغرق وجهها في فضول عميق :

. أحقًّا.. متى؟

همستُ في جدية :

. الليلة .

. الليلة.. ولكن.. فيم استعجالك المفاجئ؟

. ما رأيته في معمل عمك الدكتور .

واتضح القلق في نبرات صوتها وهي تسألني :

. آه.. كدت أنسى.. أخبِرني يا كامل.. ما الذي خرجتَ به من غارة الأمس على المعمل؟

قلت في اقتضاب :

. الكثير المذهل.. مما لم ترَه عين ولم يتصوره عقل من قبل .

تطلعَت زين حولها في حيرة :

. ما الذي تقوله؟ أهو جسد آخر يُجرون عليه تجربة مخيفة.. ما رأيتُه؟

. لا.. إنما هي قاعة عظيمة مترامية.. تحوي العشرات من أجهزة التبريد، ويضم بعضها بالفعل أجسادًا بشرية مجمَّدة لعلماء من دول مختلفة .

وحدقَت في وجهي مستنكرة :

. ما هذا؟ ماذا تعني؟ إنني لا أصدق ...

t.me/qurssan

وفي كلمات متلاحقة مختصرة، رحت أخبرها بمجمل واقعة الأمس، ما رأيته في «قلعة النائمين»، وما سمعته مصادفة من حديث الدكتور مع مساعده الطبيب الهارب حسنين عبد الهادي .

وبدا العبء مضنيًا قاسيًا على أعصاب زين في نهاية حديثي، وخُيل إليَّ أن العمر قد تقدم بها خلال الدقائق الماضية عشر سنوات كاملة .

وأخيرًا أطلقَت آهة طويلة.. مُرة.. وقالت في أسى :

. إن أشد ما يبعث على الألم في كلامك هو ما تَحقق من ظنوني من أن الرجل ليس عمًّا لي.. فطالما سيطر عليَّ شعور داخلي بأن نظراته إليَّ وسلوكه معي لم يكن يحمل طابع البراءة والطهر بالمَرة.. وفي أحيان متعددة.. ماذا أقول لك.. لقد كنت أخشاه وأحس أنه يُبيتُ لي أمرًا كريهًا.. ثم هذا المرزوق المزيف.. فإن عينيه تحملان حقدًا أسود لكل من تقابلانه، وهو لا يقل خطورة وغدرًا عن الدكتور حليم .

على أنه لم يكن من السهل إضفاء السكينة على نفسيتها المعذبة، فقد أولتني ظهرها وهي تتساءل في حيرة متزايدة :

. ولكن يا كامل.. ما الدافع بالله لقيامه بتجميد كل هؤلاء الرجال في قاعته.. أو قلعته؟ وما الغرض من وراء أفعاله وتدابيره الخفية هذه؟

أجبتها في إخلاص :

. لا أدري.. صدقيني.. إن تفكيري للأسف لم يؤدِّ إلى أي نتيجة .

فبرقت عيناها وهي تستدير نحوي حانقة :

. تُرى هل هو يجمدهم بعد أن يخطفهم ليُجري عليهم بحوثه فيما بعد؟

. محتمل .

. أو هو ينتقم من هؤلاء بالذات بسجنهم على هذه الكيفية، لأنهم

t.me/qurssan

قد توصلوا لبعض كشوفاته العلمية فهددوه بفضح أسراره؟

قلت :

. ولِمَ لا نقول إنهم أنفسهم قد أتوا طواعية وبمحض اختيارهم إلى هنا.. إليه.. ربما هربًا من العدالة كما فعل مرزوق.. وقد يكون تواريًا من شيء يتهددهم، ونجهله .

ورفعت زين يديها تُخفي خلفهما وجهها الشاحب، وراحت تنشج بنحيب خافت :

. مريع.. مريع.. يا كامل .

وتقدمتُ أقبض على كتفيها لأُدنيها مني، وأنا أتطلع فيما وراءها عبر النافذة إلى القوم العائدين للفيلَّا، وإن لم أتبين هل قبضوا على القرد أم لا :

. أرجوكِ.. دعي البكاء.. فليس هناك ما تذرفين قطراتك الغاليات هذه من أجله .

فهمست في عاطفة جياشة :

. صدَقتَ يا كامل.. يا عزيزي .

ولويتُ عنقي بعيدًا عن أنفاسها، وأنا أقاوم رغبة عارمة لضمها إلى صدري والتقاط شفتيها القانيتين بين أسناني، وقلت وأنا أطوي راحة يدها على قصاصة الورق، وأدفع بها مترفقًا نحو الباب قبل أن يصل الرجال :

. لتذهبي مسرعة إلى حجرتك، فإنني ألمحهم عائدين.. وستجدين التفصيلات في القصاصة، وأما موعد لقائنا فلا تنسَي أنه في تمام الحادية عشرة مساءً .

وعادت تهمس وهي تترك أصابعي على مضض :

. بل لنؤخره إلى ما بعد منتصف الليل .

. ولكنِ الكلاب؟

t.me/qurssan

فتمتمَت قبل أن تغلق باب المكتبة وراءها :

. دع أمرها لي فإنني أعرف كيف أعاملها .

وعقب تناول وجبة الغداء المعتادة مع صاحب الفيلَّا وربيبته، غادرتُ حجرة المائدة في هدوء، وعبرت الممشى الشمالي إلى حجرتي في كثير من البرود، وما كدت ألج باب الحجرة وأُغلقه بالمفتاح خلفي، حتى تحول هدوئي إلى انطلاقة هائلة من الحركة الصامتة، فبدأت على الفور في إعداد خطة المسير خلال رحلة الهرب مع زين إلى حلوان، كما قمت بجمع الضروري من حاجياتي .

*

الآن وبعد أن أحكمتُ عليَّ أزرار المعطف، وألقيت نظرة أخيرة على جوانب الحجرة المظلمة، بعد أن هبط الظلام بست ساعات، ثم فتحت باب الشرفة دون صوت لأتسلل منها إلى هواء الليل الرطيب، فإن لحظةً من التأمل، قبل أن أخطو خارج فيلَّا الجبل في طريق اللاعودة، أمرٌ ضروري بل وحيوي.. فليس من السهل أن يجد المرء نفسه وقد اضطر، تحت وطأة أحداث لا دخل له فيها، إلى دفن آماله العراض في الشهرة والذيوع وزلزلة أركان الدنيا، وإلى ترك متابعة بحوث علمية مذهلة، أصبحَت مع مرور الأيام نبضًا يتردد في أعماق صدره .

ثم، كم هو صاعق ومُفنٍ للكيان، أن تأتي هذه الخطوة بالذات من جانب أحد المتطلعين إلى مزاولة مهنة الجري المضني وراء الأحداث.. أحد العاشقين للقلم.. المغرمين بمداده الذي يُعمِّر أفئدة الناس بالحب والأمل على مَر الأيام .

ولقد كانت ساعة اتخاذ القرار، على قِصرها، تحمل دهرًا من العذاب، غير أن قتل نفسي بيدي كان أهون عليَّ من رؤية زين وهي تُضار أمامي دون أن أملك دفع الأذى عنها .

ثم كان هناك كذلك احتمال مرجَّح أن الدكتور الداهية يدبر

t.me/qurssan

جريمة بشعة من نوعٍ ما ضد الوجود الإنساني، يتمثل فيما يُخفيه من أناس مجمَّدين في قاعته الكامنة في أعماق الجبل، ومن ضمن هؤلاء سيأتي الدور علينا أنا وزين، ليُقاد كلٌّ منا قسرًا إلى الجهاز المدوَّن عليه اسمه، فيصبح في عِداد ممتلكات الدكتور حليم، أو أسراه السابحين في دنيا العدم .

وأخيرًا.. والأهم من كل ما تقدم.. ذلك الحب الأهوج المجنون، الذي يلف الدكتور، تُجسِّمه تصوراته المريضة حيال زين.. زهرة الجبل التي تصغره بما لا يقل عن الثلاثين من الأعوام .

ولكن زهرة الجبل زهرتي أنا دون غيري .

لن تلمسها سوى أناملي وحدي .

ولن يلتقط عبيرها الشذيَّ سوى أنفاسي الولهى بغرامها .

وبشفتين مضمومتين في قسوة، وعينين تتألقان حتمًا بالتصميم والعزيمة التي لا تلين، انطلقتُ في أحشاء الظلمة، أتقدم عبر أشجار الحديقة إلى مقصدي، في خطوات ثابتة قوية .

وخلال سيري، التقت خياشيمي برائحة قوية مميزة، رائحة تبغ يحترق، وتطلعتُ حولي في قلق وأنا أرهف السمع متحفزًا، ومع استدارة بناء الفيلَّا، لمحت نورًا يغمر واحدًا من أحواض الورد المهمَلة المنتشرة بالحديقة، وكان مصدر النور نافذة المكتبة التي فُتحت على مصراعيها .

وجمدت في مكاني .

فقد اقترب الدكتور حليم ببطء، وأطل من النافذة إلى الفضاء الأسود المنتشر أمامها بلامبالاة، ورأيته يحمل بين أصابع يمناه غليونًا كبيرًا، راح يدخن منه في حركة آلية .

وكنت أقف في أسفلَ على مرمى بصره، ولكنه ما كان ليراني، ليس لانبهار عينيه بالضياء حوله بالنسبة للظلام بالخارج، بقدر توهانه.. وانغماسه في أفكاره .

t.me/qurssan

وبدا في هذه اللحظة أن أحدهم قد اقترب من الدكتور يحدثه، فقد استدار إلى الخلف في تثاقل وكأنه يحمل على كتفيه أعباء العالم بأسره، وتمتم ببضع عبارات لم يصل إلى أذنيَّ منها سوى كلمات بعيدة متناثرة، ميزتُ منها :

. الكلاب.. لقد تعبتُ.. لا دعها للغد .

ثم شاهدته يشير بغليونه إلى الفانوس المعلق فوق رأسه، قبل أن أسمع آخر كلماته وهو يتوارى:- أطفئه .

وهكذا انطفأ الفانوس، وفُتح باب الفيلَّا ليخرج منه أحدهم، فيسير مسرعًا وهو يعرف طريقه جيدًا في الظلام، وبينما سار الشخص القادم في اتجاه الحظائر غربًا، تسللتُ أنا بدوري ناحية الشرق في طريقي إلى حيث تستقر نافذة حجرة زين. وحين طلبتُ منها التأهب لمغادرة المكان، بعد مرور ما يزيد على نصف الساعة منذ قدمتُ، همسَت لي في إصرار :

. لا.. إنه لم يَنَم بعد .

دهشتُ :

. وكيف تتأكدين؟

. إنه لا يغلق عليه حجرته قبل أن يطمئن على نومي أنا .

وكدت أسألها عما يفعله حتى يطمئن على نومها حينما أحسست بأصابعها تغلق فمي بغتة، فقد دقت الأرض في هذه الأثناء خطوات ثقيلة تزحف في الممشى، وتوقفت الخطوات أمام باب الحجرة، لتتعالى نقرتان خفيفتان خافتتان، ثم جاء صوت الدكتور من الخارج ضعيفًا رقيقًا، فبدا شخصًا مغايرًا بالمرة، شخصًا ذليلًا.. يحترق :

. هل نمتِ يا زين.. هل نمتِ؟

وخُيل إليَّ أنه كان ينصت في رجاء أليم، ولمَّا لم يأته صوتها، عاد يكلم نفسه في نغمة حزينة تفيض بالعاطفة المشبوبة :

t.me/qurssan

. لقد نمتِ.. هه.. نامت الجميلة.. في رعاية الملائكة يا صغيرتي .

ومـرت دقـائق مـن السـكون الثقيـل، قطعها تـراجع الخطـوات وابتعـادها خطـوة تجـر خطـوة، حتـى تلاشـت كُلِّيَّة فـي نـهاية الممشى .

وفي نفس الوقت لم تستطع زين أن تكتم غيظها، فأخذت تتمتم بعصبية وحنق :

. الأحمق.. المخرف.. المعتوه .

على أن زين سرعان ما استعادت اتزانها وانطواءها حين بدأنا التحرك مع توقيت ساعتي للثانية بعد منتصف الليل، وكأنها رأت أن تدع حدًّا فاصلًا بين ما كان من حياتها حتى هذه اللحظة، وبين ما ينتظرها من حياة مغايرة فيما وراء أسوار فيلَّا الجبل .

وقـفزتُ مـن النافـذة أولًا، فتلقفنـي العشـب الأخضـر أسفلها، ثم قـفزَت زيـن، فتلقفَتـها ذراعـاي، ولكنـي أحسـست فجـأة أنفاسًا متلاحقة تقترب وهي تتفحصنا .

. لا تخف.. فقط قف ولا تتحرك .

قالتها زين وهي تجذب لفافة من الحقيبة المعلقة بيدي .

ولـم أتفـوه بحـرف، وإن كنـت قـد أحسـست بالراحـة حين ميزتُ الرأسين الضخمين يلتهمان الوجبة الشهية التي قُدمت لهما على غـير ميعاد، بينما امتد لأعلى ذيلان أسودان كثيفا الشعر أخذا يتراقصان في تودد وسرور .

وانطلقنا بين سيقان الأشجار، حتى بلغنا نهاية الغابة الصغيرة لدى التقائها بالسور الحديدي، ولما كان هذا الجزء من السور قد تكـاثفت عليـه بعـض المتسـلقات مـن النبـات، فقـد انعطفنـا غربًا بحذائه في اتجاه البوابة الرئيسية الضخمة .

وكان الطريق أمامنا مكشوفًا ممهدًا .

ولما وثقتُ من أن الأمور تسير على ما يرام، رفعتُ زين ببطء

t.me/qurssan

وهدوء، ودفعتُ بها بجميع قواي إلى الجانب الآخر الطليق من السور، ولكن طرف ثوبها علق بقمة السور، فتمزق جزء منه لحظة هبوطها في صوت حادٍّ، عكر بدوره السكون الشامل المنتشر حولنا، ليعتريني إحساس غامض من الانقباض والتشاؤم .

. ما.. ما هذا.. من هناك؟

ولمحتُ الجلباب الأبيض باهتًا قبل أن أتبين ملامح الرجل المندفع نحوي، وهكذا اضطررت لملاقاته بلكمة قاسية استقرت بين عينيه، أتبعتها بأخرى طائشة أصابته في مؤخرة رأسه، أو على قفاه، وهو يترنح في طريقه لافتراش الأرض .

وفي وثبة موفقة، كنت على الجانب الآخر من السياج بجوار زين، وقبضتُ على يدها بقوة، وانطلقنا نعدو بكل ما نملك من جهد فوق الأرض الصخرية الصلبة، وكأن شياطين الدنيا تطاردنا دون هوادة.. ولم نَسِر في الطريق الممهَّد الذي يقود إلى المرصد غربًا، وإنما آثرتُ أن نسلك طريق الجبل الوعر، والذي ينحرف شمالًا فيصل بعد مسيرة أطول إلى عين حلوان المعدنية الجديدة، ومن ثمَّ يصبح في مقدورنا أن نجد هناك ملاذًا لدى خفراء السكة الحديد بمحطة العين، أو خفراء فندق «الهوم»، أو ننحرف جنوبًا فيما بعد فنبلغ المدينة نفسها .

وكانت زين، إبان عَدْوها بجواري، تبذل مجهودًا مضاعفًا حتى تجاريني في تسلق المرتفعات الحادة من الجبل، أو الهبوط على أحد السفوح المليئة بالحصى الدقيق، الذي كان يتطاير بسبب عَدْونا فوقه فيُعرِّضنا بالتالي للانزلاق عليه .

ولكننا استطعنا، على الرغم من كل الصعاب، أن نبتعد معًا عن مكان فيلَّا الجبل بمسافة لا تقل عن الكيلومترين خلال أربعين دقيقة فحسب، ووصلنا أخيرًا إلى إحدى الشرفات الرخامية على سفح الجبل، وكانت تمتد في شكل بيضاوي يشبه قاربًا معلقًا، في هندسة بديعة، بالقرب من القمة شديدة الانحدار. ورأيت زين تسعل بحدة، وقد راح صدرها يلهث متلاحقًا في شبه حشرجة، وهي تكاد تسقط إعياءً بجواري، فأجلستها في مكان منزوٍ

t.me/qurssan

بالشرفة المعلقة حتى تأخذ قسطًا من الراحة وتسترد أنفاسها، بينما قبعتُ بجوارها أُريح صدري اللاهث بدوري، وأُضمد جرحًا صغيرًا أصاب قدمي اليمنى .

وتبقى النصف الثاني من الرحلة الشاقة في جوف البرودة والظلام، وربما هو النصف من الطريق الأقل صعوبة ومشقة .

ولكنْ على الرغم من تقديري المتفائل، فإن إحساسي بالانقباض لم يكن قد زايلني بعد.. بل لعله قد عاد يجثم على صدري أكثر من ذي قبل في هذه اللحظة بالذات.. لذلك فقد اكتفيت بالدقائق العشر التي مكثناها بالشرفة المعلقة، فأنهضتُ زين في رفق، ثم دفعتُ بها أمامي نحو قمة الجبل وأنا أهمس في أذنها :

. لا بد من مواصلة السير يا زين.. فقد قَرب بزوغ الفجر، وربما أدى انتشار الضياء إلى اكتشافهم لمكاننا .

واستدارت إليَّ في حركة مباغتة، أحسستُ بها بالرغم من الظلمة :

. أتظن أنهم يطاردوننا؟

قلت، وأنا أعاود دفعها لتصعد :

. غالبًا هم وراءنا الآن بمسافة كيلومتر أو ما يزيد .

رددَت وهي تتعثر أمامي :

. أتقول غالبًا !

ـ أجل، فقد خُيل إليَّ منذ برهة أنني سمعت شيئًا يشبه نباح الكلاب .

. إذن فهو نباح بالفعل.. لقد سمعتُه أنا أيضًا .

ولم يشأ أحدنا أن يضيف مزيدًا من كلام لا طائل وراءه، وإنما أخذنا نصعد نحو القمة القاتمة في دأب وإصرار، غير مباليَين بأسِنة الصخر المدببة التي كانت تُدمي أصابع أيدينا .

t.me/qurssan

لكن عين السماء كانت ولا شك غافلة عنا .

فحين بلغنا قمة الجبل، وجدناهم في انتظارنا هناك، وكانوا ثلاثة رجال أقوياء، يرافقهم كلبان أسودان مخيفان .

وقد تأهبتْ بطريقة لاشعورية لقتالهم برغم تفوقهم العددي، فلم يكن من السهل عليَّ أن أُسلِّم لهم زين ليعيدوها إلى سجنهم البغيض، ولكنها كانت أسرع استجابة مني للمنطق والواقع المُر الأليم، فقد تشبثَتْ بذراعي، وشدَّتْها إلى الوراء، وهي تتضرع إليَّ في صوت مختنق :

. لا فائدة... لا فائدة .

أجل.. معها حق.. لم تكن هناك بالفعل أي فائدة تُرجى.. ولا حتى مجرد بصيص ضئيل من أمل .

فهم متفوقون في العدد والقوة، ولو استطعت أنا أن أقاوم، أو أعدو بعيدًا عنهم، فلن تقوى زين حتى على الصياح في وجوههم، فقد بلغت حالتها من التعب والإعياء درجة بالغة الخطورة .

وبلغ بها الانهيار النفسي حدًّا يفوق الوصف .

وهكذا، حين عدنا خمستنا، فولينا وجوهنا شطر فيلَّا الجبل مرة أخرى، زين وأنا وخلفنا مرزوق وعبده وسائق العربة، يتقدمنا الكلبان الأسودان الضخمان، كنت أسير مع زين في وجوم ويأس، بينما كان ضوء الفجر يبزغ قبالتنا شاحبًا حزينًا على غير عادته .

t.me/qurssan

6

بدون تاريخ، 1951

هأنذا أُدوِّن السطور التالية على الضوء الباهت الوحيد الذي ينير الظلال الكئيبة حولي، ضوء لمبة البترول.. وقد وهنت ذبالتها واسوَد زجاجها بفعل الهباب المتراكم عليه ساعة وراء أخرى، وانتشرت رائحة البترول المحترق فيها عبر جو الحجرة الراكد الذي يكاد يكتم أنفاسي .

هأنذا أُدوِّن سطوري ولا تاريخ أذكره لها، فقد تعاقبَت أيام طوال ثقال.. لم أميز عددها منذ أُلقيَ بي قبالة الفراش المنزوي لِصُق واحد من الجدران الأربعة الرطبة، وبعد أن أغلقوا الباب الخشبي القصير وراءهم، اتضح لي أن لا منفذ سواه وسط الجدران الملساء التي تضمني. ولقد حاولت أكثر من مرة أن أتفحص محتويات الحجرة الضيقة على قِلتها، غير أنني لم أقوَ إلا بعد ساعات مضنيات أمضيتها طريح الفراش، يهدني المرض واليأس، وكنت كلما رفعت رأسي لأُدير عينيَّ الكَليلتين فيما حولي، يصك أذنيَّ ذلك الفحيح المرعب الآتي من أغوار روحي.. وكياني .

ما جدوى أن ترتكب حماقة جديدة وحولك قبضات تتربص بك بينما أنت سجين، سجين لا حول لك ولا قوة؟

على أنني في النهاية، حين تطلعت عبر الضوء الباهت، استطعت بالكاد أن أُلِم بمعظم المحتويات، هذا الفراش النحاسي عتيق الطراز، والكرسي العريض المبطن بالجلد، وبينهما على الأرض فراء الخروف المتسخ ومنحول الوبر في طرفه الواقع تحت ضوء ذبالة اللمبة المباشر، ثم ذلك الناقوس الصدئ المعلق على مسمار يبرز في الحائط قريبًا من متناول يدي، وتذكرت أمره، لقد أخبرني مرزوق قبل أن تفارقني سحنته بأنه في حالة مناداة واحد منهم، يتحتم عليَّ استعمال الناقوس بعنف حتى يجلجل صداه قويًّا، وإلا فلن يسمعني أحد لبُعد المسافة بيني وبينهم .

إذن فهذه الحجرة قصِية عن حجراتهم .

t.me/qurssan

وسرعان ما خمنت أنني سجين المخزن المجاور للمعمل الشمالي الذي تُجرى به تجارب التبريد على الحيوانات، وليس المعمل الجنوبي حيث تُجرى التجارب على البشر. وقد تيقنت من صواب تخميني حين قصدت دورة المياه لأول مرة، فوجدتها نفس الدورة التي تجاور معمل التجارب على الحيوانات، في نهاية الممر المطلة عليه حجرتي السابقة. وفيما عدا الدقائق التي كنت أذهب فيها إلى دورة المياه، في حراسة مرزوق أو أحد رجاله، وتلك السانحة الأخرى التي كان يُقدَّم فيها الطعام إليَّ بداخل الحجرة، فقد كنت أمضي بقية ساعات يومي في عزلة قاتلة، حتى كلَّت عيناي من كثرة التحديق في الذبالة الضعيفة الشاحبة دونما غاية، وإن كانت هي أنيس وحدتي، والشيء المتحرك وسط الخواء الذي يحيطني .

ولقد حاولت أكثر من مرة أن أستدرج أحدهم إلى الكلام لأعرف منه شيئًا عن مصير زين، وأين يضعونها، وهل هي سجينة بدورها أو مُطلَقة السراح، ولكني لم أكن أفوز بأي إجابة من أي واحد منهم مهما بذلت من محاولات. فقط نجحت في تحريك شفتَي عبده ذات مرة حينما سألته عن الدكتور حليم، فقد كشر حينئذ عن أنيابه الغضبى، أو ابتسم لا أدري، وقال لي في صوته الثقيل، ميِّت النغمات :

. سيلقاك قريبًا .

وتلقفت كلماته لأتشبث بها :

. متى.. أغدًا أم بعد غد؟ أم متى؟

ولكنه لم يزد على النطق بنفس الكلمة :

. قريبًا .

ومنذ هذه الساعة وأنا أترقب مَقدم الدكتور، وأنا أترقب اللقاء المر بين السجين وسجَّانه.. وأنا أعلق على هذا اللقاء آمالًا تتأرجح بين التألق والانطفاء. لقاء الغريم بغريمه، برغم عظم

t.me/qurssan

التفاوت بين كلٍّ منا، فهو العالِم القدير المتمكن من سيطرة ذكائه الخلاق، وهو الشيخ المُدلَّه في غرامه، وقد وقعَت محبوبته في قبضته فأحكم غلقها عليها، وهو الداهية الذي يملك أفكارًا خارقة ومشاريع غير طبيعية بالمرة يُعدها ليوم ينتظره.. وهو قبل كل شيء الزعيم المحاط برجاله وأسراره وكلاب حراسته .

فماذا أملك أنا في الجانب المقابل، وما الذي في مقدوري أن أفعله؟

وأفزعتني المقارنة ...

وأحسست بالخجل من الصورة القاتمة التي ارتسمَت في مخيلتي، وهالني جبل اليأس الذي حطَّ على كاهلي، فصدع رأسي وشتت أفكاري .

لذلك فقد آليت على نفسي أن أستجمع ما تبَقى لديَّ من جهد وقوة، وقدرة على التفكير المتزن، حتى أستعيد مظهري الجاد على الأقل أمامه، ولأملك زمام الرد على غضبته، التي ولا بد ستندلع في مواجهتي اندلاع البركان وثورته .

ولكني مع ذلك سأتحمل وحدي كل النتائج، حتى لا تُضار زين، فسأدَّعي أنني المسؤول عن هربها، فقد حرضتها على التسلل من الفيلَّا معي، بل الأحسن أن أدَّعي أنني قد اقتدتها قسرًا بجواري .

هكذا رتبت أموري للمواجهة المرتقبة مع الدكتور، وكان إصراري عليها رائعًا، ولكنْ مع تعاقب الدقائق الرتيبة المملة، فإنه لم يظهر بين جدران الحجرة الضيقة بعد، ولم أسمع صوته يأتيني ولو من أقصى أبعاد الفيلَّا. فهل نسيني الرجل كُلِّيَّة بعد أن بتَّ في أمري وأصدر حكمه بالقضاء عليَّ؟

حتى أحسست، في أعقاب فترة طويلة من حبسي الانفرادي بلغَت في تقديري ما يقارب شهرًا كاملًا، أنني أصبحت بالنسبة إليهم مجرد حيوان آخر من حيوانات تجاربهم، ينتظر دوره لتُجرى عليه تجربة علمية، أو إجرامية، يكون خَدَر البرودة غلافها الخلاب .

t.me/qurssan

ما زلت أُدوِّن بدون تاريخ .

لا أدري صحة التوقيت في هذه اللحظة التي أيقظتني فيها حاسة مرهفة من غفوتي القصيرة بفراشي: هل أنا في الليل أو النهار؟ فلا صوت ولا بصيص ضوء يرشدني إلى الحقيقة، وأنا مُلقى في مكاني المغلق هذا.. وإن كنت أرجح، تبعًا لشعور داخلي، أن الوقت الآن يقارب قمة الفجر لبداية يوم جديد .

وحين اقتربَت أقدامه تدق الأرض في فتور، وهي تحمل أعلاها جسده المكدود الناعس، تطرقَت إلى أنفي رائحة الفجر الرطيب المميزة.. واضحة هذه المرة .

ورفعت رأسي أتطلع إلى القادم .

كان الدكتور حليم صبرون، بكل ما يحمله وجهه الشقي المتعَب من آلام الفكر وإرهاق البدن.. وفتحتُ فمي لأُعبر عن دهشتي البالغة لمَقدمه مرتديًا منامته دون احتفال رسمي يسبقه! ولكنه سارع بوضع إصبعه على فمه محذرًا، فأمسكتُ عن الكلام على مضض، واقترب من اللمبة ليحملها ويُدنيها من وجهي، متفحصًا إياي في كثير من الإشفاق والأسف، بعد برهة خلتُها لا تنتهي، أعاد اللمبة إلى سابق موضعها، وهمس لي وهو يلقي بجسده على حافة الفراش في مواجهتي، كمن يحاول التخلص من عبء مضنٍ يرهقه :

. إذن فقد حاولت الهرب من صحبتي؟

وعدت أفتح فمي لأقول شيئًا مما أعددته قبلًا، غير أنه سارع يقاطعني في ملل وهو يلوح بيده في لامبالاة :

ـ ولكنْ لا.. يحسن ألا تبرر فعلتك مهما كان لديك من دفاع ووجهات نظر .

وحاولت أن أتكلم للمرة الثالثة، ولكنه أيضًا قاطعني، في عصبية

t.me/qurssan

حاول أن يُخفيها تحت ستار من الهدوء المصطنع، أبداه في إخراج علبة للفائف التركية وضعها على المنضدة الملتصقة بالفراش في متناول يدي، وهو يومئ إليَّ أن أتناول منها واحدة أدخنها، في الوقت الذي أمسك فيه غليونه وراح كعادته يعبئه ببطء :

. قل لي يا كامل.. هل تحبها حقًا؟

بغتني سؤاله، فتمتمتُ وأنا أملأ صدري عميقًا بالهواء الذي يفتقد النقاء حولي :

. مَن؟ !

قال دون أن ينظر إليَّ :

. زين .

ولم أُجبه مباشرة، إنما استمررت في سحب أنفاس متلاحقة من لفافة أشعلتها، وأنا أحاول أن أستشف ما يدور في أعماقه، وأخيرًا أجبته في نغمة جافة رددت أصداءها الجدران المكتومة :

. ربما كان هذا من جانبي فحسب .

. هه.. أنت إذن تحبها؟

. أجل .

. آه.. آخر ما كنت أتوقعه.. هذا آخر ما كنت أنتظره .

فقلت في شبه اعتذار :

. أنا نفسي لم أكن أنتظره .

وطأطأ الدكتور برأسه، وقد ارتسمت على تقاطيع وجهه وغضونه تعاسة بالغة :

. وأنا الذي كنت أُعد شيئًا رائعًا من أجلك.. كنت أُعد لك مجدًا لم ينله أحد قبلك.. ولم يحلم به إنسان على وجه الأرض.. ولكنك..

t.me/qurssan

تأبى الهدية التي أقدِّمها بلا مقابل .. ترفضها رفضًا.. بينما تسطو على الشيء الوحيد الذي أردتُ الاحتفاظ به لنفسي .

وتجاهلت الشطر الأخير من كلامه وأنا أقول له في لهجة آسفة :

. إنني لم أرفض أي هدية.. وما كنت لأفعل ما تقول معك أنت بالذات، بعد أن صدَّقتك في البداية وأُغرمت بكل بحوثك واتجاهاتك العلمية المثيرة.. ولكنْ للأسف.. قُضي الأمر واضطررت لاتخاذ ذلك الموقف الصعب برغمي .

وتفحص الدكتور وجهي في حيرة :

. تقصد أنني أنا الذي دفعتك.. إلى الفرار؟

. أجل .

وبدا أنه لم يستوعب ردي جيدًا :

. أنا السبب !

قلت :

. بل، على وجه التحديد، ما ظهر لي من أفعالك مؤخرًا .

وازدادت حيرته :

. إذا كنت تقصد تبريد مرضى مستشفاي الموشكين على الموت.. فإنني قد انتهيت من إجراء هذه المرحلة من التجارب كُلِّيَّة منذ.. أن ...

قاطعته :

. لا.. إنني أعني شيئًا مغايرًا .

. ماذا تعني؟

وفجرت القنبلة ببساطة :

. القاعة السرية.. المنحوتة في قلب الجبل خلف معمل التجارب

t.me/qurssan

الجنوبي .

قفز الدكتور حليم من هول المفاجأة، وبرزت عيناه في لمعان مباغت مخيف :

. هه.. هه.. ما الذي تقوله؟

. إنـي أتكلـم عـن القاعـة التـي تضـم أجسـادًا مجـمَّدة لعلمـاء مخطوفين .

تدلى فك الدكتور حليم، وبدا عليه الذهول مما يصك أذنيه من كلماتٍ هي آخر ما كان يتوقع سماعه :

. منذ متى وأنت عارفٌ بهذا السر.. ثم كيف.. تهيأ لك اكتشافه؟

فقلت وأنا أشعل لفافة ثانية :

. لقد تيسر لي اكتشاف قاعتك السرية عن طريق الصدفة منذ بضعة أيام.. بعد أن تسلل صوت المولد من خلف دولاب البياضات بحجرة المعمل خلال آخر لقاء بيننا.. أتذكُر؟

ولمعت لمحة خاطفة من إعجاب في عينيه :

. يا لك من رجل دقيق الملاحظة.. وخبيث أيضًا.. إنها لخسارة حقًّا ألا تقف بجانبي .

همست :

. لو كانت أعمالك مشروعة، لكنت أول من يعضدك ويقف بجوارك و ...

لكنه صاح يستوقفني في عصبية، وقد تقلصَت عضلات وجهه الخالي من الشعر، ومد يده في مواجهتي يكاد يلكمني بقبضته المتصلبة في توتر :

. أنت مجنون.. أنت لم تفهمني بعد.. إذ تجعل مثل هذا التفكير السـخيف يسـيطر عليـك.. وهـل تتخيـل أننـي أرتـب كـل هـذه الترتيبات الهائلة، وأبذل الغالي من وقتي ومالي وعصارة جهدي

t.me/qürssan

وروحي، دون أساس علمي أكيد؟

قلبتُ شفتي في عناد :

. لا أظن يا سيدي الدكتور أن أي إجراء يتم في قالب إجرامي يُسمَّى علمًا خالصًا، وينشد صالح الإنسانية وحدها .

اقترب الدكتور أكثر وهو يرميني بشرر عينيه، وقد اعترته حالة عارمة من الهياج، وتكلم في صوت أجوف متحجِّر النبرات، وهو يلوح بمبسم غليونه على بُعد إصبع من أرنبة أنفي :

. أين هي الجريمة في أفعالي هه؟ قل لي.. أوضِح ولا تلجأ إلى الكلمات المبهمة.. الغامضة .

أجبته وقد أحسست حيوية دافقة ترويني، فتُجدد قواي بعد أن نجحتُ أخيرًا في إثارته :

ـ إذن فبماذا تُسمي تبريد المرضى الموشكين على الموت، بعد جلبهم خفية إلى الفيلَّا في أعماق الليل؟ وبماذا تُسمي موقف هؤلاء العلماء المجمَّدين في قاعتك السرية، بعد أن تم اختطافهم قسرًا؟ ثم والأهم من كل هذا.. بماذا تُسمي عملية قتل أستاذ الفلك بمرصد حلوان.. نفس العملية التي تكررت معي شخصيًا؟ بماذا تُسمي كل الذي ذكرتُه؟ أليست هي أفعالًا إجرامية من الدرجة الأولى؟

لم يُجبني الدكتور، وإنما شدَّ قامته وأولاني ظهره ليَعبر الحجرة إلى طرفها الآخر لدى مقدمة الفراش، وأخذ يسير جيئة وذهابًا في خطوات ضيقة عاجلة، وقد شبك ذراعيه خلفًا واستغرقه تفكير عميق. وبدا في نهاية الأمر أنه قد توصل إلى حلٍّ لا يرتضيه، فقد واجهني في شيء من التردد، ومسح جبهته بظهر يده في حركة لاإرادية، قبل أن يتكلم في صعوبة وهو يزن كلماته بميزان مرهف :

. حسن.. الموضوع كله يا كامل.. أن البحوث التي أقوم بها في مصر طيلة سنوات قاربت الخمس عشرة لا تحتوي على أي

t.me/qurssan

جريمة من أي نوع.. وإن كنت لا أنكر أن الإطار الخارجي لبحوثي قد لحقته بعض الشوائب التي توحي، لمن هو في مثل إرهافك العاطفي، بأنها تدور في جو غير مشروع .

تساءلت باستخفاف :

. ألا تزيدني إيضاحًا؟

قال، وهو يصور بيديه جسمًا مستطيلًا مسحوبًا من طرفيه :

. بحوثي هي سفينة صغيرة تمخر عباب يمٍّ، قاسٍ، متلاطم الموج والأنواء.. ولكي تصل السفينة إلى بر الأمان وَسْط ما يحيطها من مخاطر، فلا بد لملاحيها من تضحيات كبيرة يبذلونها، سواء برضائهم أم صاغرين.. كأن يضحي بعضٌ منهم بأرواحهم خلال الصراع من أجل هدف الوصول.. من أجل النجاة للأغلبية .

واعترضت :

. هذا يتوقف على كيفية موت الملاحين.. أهو موت طبيعي.. أم قتل؟

ابتسم في عصبية، وقال في صوت أجوف النبرات :

. كلاهما سيان في نظري.. كلاهما تضحية واجبة في سبيل حياة أفضل للجماعة.. وما الفرق بين القسر والرضاء إذا كان الهدف هو الصالح العام.. ألم تسمع عن طائر البطريق الذي يصنع بعضُ أفراده جدارًا من أجسامهم في مواجهة العاصفة الثلجية.. ويظل الجدار صامدًا أمام الريح الصرصر، والصقيع المتراكم، ساعات وساعات حتى يهلك أصحابه من أجل الإبقاء على بقية القطيع؟ !

قلت مستنكرًا :

. لكن هذا المثل ...

على أنه استطرد :

. إنه مَثل من عشرات الأمثلة التي يمكنني أن أدلل بها على

t.me/qurssan

تضحية الفرد في سبيل الجماعة.. فلماذا لا تطبق نفس المبدأ على الإنسان.. ولو قسرًا؟

قلت، وقد بدأ صبري ينفد :

. وماذا بعد؟

فحك ذقنه بإصبعه، وراح يتكلم بثقة وأَنَفة عميقتين :

. آه.. في المبدأ.. يجب أن تعلم علم اليقين أن الزعم بوجود صلة تربطني بمقتل أستاذ المرصد أو سواه مجرد هراء لا يقوم عليه أي دليل.. وفي نفس الوقت فإنني لم أحاول قتلك بالمرة، وإنما أردت إبعادك عن فيلَّتي فحسب، ولو شئتُ القضاء عليك لما وقف أمامي حائل.. أما بالنسبة لهؤلاء المرضى الذين أجريت عليهم تجاربي وهم موشكون على لقاء الموت.. ثم بالنسبة للعلماء المجمَّدين بالقاعة السرية، أو الذين سيُجمَّدون، وعلى رأسهم أنا وجماعتي الصغيرة، فإن شأننا يختلف كُلِّيَة .

سألته :

. كيف؟

أجاب ببساطة :

ـ لأننا نكون فئة المتطوعين، أو الرواد الأولين، الذين يضحون بالكثير لا من أجل جماعة أو جماعات.. وإنما.. من أجل عصر عظيم مقبل على طريق البشرية .

وعُدت أسأله :

. وعلام انفرادك أنت.. وحدك.. دون كل البشر الذين تزخر بهم الدنيا.. بتنفيذ مشروعات العصر المقبل؟

قال وقد مُلئت نظراته، المركزة عليَّ، بأمارات الصرامة والتحدي :

. لأنني أنا، ولا أحد غيري، صاحب الفكرة العلمية لتبريد الأحياء، وصاحب كافة الجهود التي بُذلت لإبرازها إلى الوجود.. فيتحتم

t.me/qurssan

إذن أن أنفرد دون أدنى شك بتنفيذها .

وصمتَ دقيقة ليستطرد بعدها في صوت أقل حدة :

. ولأنني كذلك لا أرى فيمن حولي من هو جدير بمشاركتي حمل مسؤولياتها .

قلت بعناد :

. لو بحثتَ.. قطعًا ستجد .

. أجد مَن.. هه؟ مَن تتصور يمكنه فهم مخططي العلمي مع عدم استغلاله والانحراف به لصالحه؟ هل ألجأ إلى السراي مثلًا.. إلى الملك وحاشيته.. أم إلى باشا من أرباب النفوذ والأملاك.. أم ألجأ إلى واحد من القادة الإنجليز الذين يسيطرون على البلد وعلى الملك نفسه؟ بالطبع أنت لن تجرؤ على أن تنحو في تفكيرك هذا الاتجاه أو ذاك، وأنت، بصفتك الصحفية، على بينة أكثر مني بمدى العفن الذي يرسف فيه كل شخص تضمه إحدى الطُغم سالفة الذكر .

همست متراجعًا :

ـ أنا لم أتفوه بكلام كهذا.. ولكنْ من المستحيل أن تخلو مصر بأسرها من علماء يقدرونك حق قدرك .

. ربما هذا صحيح.. ومنطقيٌ.. ولكنْ ما الذي يمكن أن يقدموه لي، ومقدرات الشعب كلها في أيدي الكبار الذين يصل إليهم الأمر دوامًا في النهاية؟ هل يبلغ تصورك مثلًا أنني أعيش منذ أمد بعيد حياةَ نفاق وتزلُف كبيرين تجاه الكثيرين من الكبار.. حتى يتركوني أعمل في سلام.. وحتى يغضوا الطَرْف عما يدور من همسات حول تجاربي؟

قلت أؤيده :

. أنا معك.. إن الموقف يكاد يكون مغلقًا .

. بل موصد تمامًا بلا أدنى ريب.. وحتى لو تطلعنا إلى الخارج.. بل

t.me/qurssan

خارج بلدنا.. فإننا لن نسلم من المستغِلين .

وساد الصمت برهة، ليقول الدكتور في النهاية والمرارة تقطر من بين شفتيه :

. غير أنه، بالرغم من تفكيري المضني الدائب في مصير بحوثي وتجاربي، والذي كان يصاب بالخيبة والحسرة على الدوام، فإنني لا أخفي عليك أنني طالما وددت أن أقدم ما لديَّ لبلدي.. لمصر.. ولكن نظرة واحدة لما يدور حولي كانت تبلد مشاعري.. فأخرج بتصميم مجدَّد على عدم تزويد الكبار بسلاح آخر يزيد من سيطرتهم وطغيانهم .

قلت وقد أحسست بانتقال الحيرة إليَّ هذه المرة :

. ما زلت أرى أن كل ما يمتُّ للإنسان كمجموع، فهو بالتالي ملكٌ له كمجموع، مهما كانت النتائج.. لذلك فمن الأفضل ألا تكون اختراعاتك العلمية وقفًا عليك وحدك .

. هذا ليس عدلًا .

أجبت بأدب :

. يُخيل إليَّ أنك ترمي إلى إثارتي .

. أنا.. على العكس فإنني لا أذكر سوى حقائق مجردة.. ومع كلٍّ.. حسن.. يبدو أنه لا مفر لديَّ من إطلاعك على القصة من مبدئها .

. أي قصة؟

أجاب في خيلاء :

. قصة كشفي العظيم .

وانتهى الحوار السريع بيننا، ليبدأ في رواية قصته بشغف فائق :

ـ في المبدأ اكتشف الأقدمون أن الثلوج التي تُكوِّنها الطبيعة يمكنها أن تحفظ مأكولاتهم من التلف.. ثم جاء الصينيون واليابانيون، فاستخدموا الثلج في حفظ الأسماك ومنتجات

t.me/qurssan

الألبان. أما الثلج الصناعي فقد اكتشف عام 1775 حين صُنعت وقتذاك أول آلة للتبريد.. وفي عام 1875 استُخدم غاز الأمونيا في صناعة التبريد.. وتتالت بعدئذٍ مخترَعات التبريد، وتعددت استخداماتها، حتى كان آخرها استخدام حوض الثلج المجروش لإجراء الجراحات الخطرة في القلب وغيره من أعضاء الجسم المهمة.. على أن الذي يسترعي النظر في الموضوع، أن كافة العلماء، الذين تعرضوا لمشكلات التبريد، لم تخرج بهم أفكارهم عن نطاق حفظ المأكولات إلى إجراء الجراحات.. وأبدًا لم يفكر واحد منهم في الانطلاق إلى آفاق أوسع خيالًا وأكثر طموحًا.. لم يفكر واحد منهم في تبريد الإنسان الحي وغيره من الكائنات، وفَتْح المجالات الجديدة التي لم تكن منظورة من قبل.. حتى جئت أنا .

وصمتَ الدكتور حليم ليراقب وقع كلماته عليَّ، وحين لحظ الاهتمام البادي على وجهي، زادت نظرات الخيلاء على وجهه، وانطلق يتكلم في حرية أكثر :

. وفي سبيل تحقيق أفكاري وإخراجها إلى نور الواقع الملموس، كانت كل التجارب السابقة التي قمتُ بها، وكل الاكتشافات التي توصلت إليها.. والتي كُللت في النهاية بنجاحي في تصميم هذه الأجهزة التي لم يُعرف مثلها قبلًا، لتقوم بتبريد الإنسان الحي لأول مرة في تاريخه على ظهر الكرة الأرضية، ولمُدد سيمكن إطالتها مستقبلًا إلى مئات الأعوام، ثم إعادته مرة أخرى إلى الحياة الطبيعية دون أن تُحسب من عمره فترات سباته في قالب التجمُّد .

وعاد الدكتور حليم يزود غليونه بالتبغ ويشعله في حركة رتيبة، ومن خلف سحابة الدخان المعطرة، سمعتُ صوته يتردد، بينما أغلقت عينيَّ أعيش في دنياه الحالمة. قال وصوته يأتيني من بعيد :

ـ وبقيَت مشكلةٌ ظلت تؤرقني أيامًا وشهورًا.. فقد كنت أنشد جهازًا مبتكرًا للتبريد يمكنه التوقف عند ساعة معينة من الزمن

t.me/qurssan

تلقائيًا ودون حاجة لأن يوقفه إنسانٌ ما.. ولقد تمكنت من حل هذه المشكلة، فتوصلت مؤخرًا إلى تركيب أول جهاز آلي من هذا النوع، يمكن للإنسان إدارته وضبطه على زمن معين يتوقف عنده عن العمل بواسطة ساعة إلكترونية مثبتة فيه، تحكمها بعض الآلات الأخرى الدقيقة .

وتكلمت وأنا ألهث فضولًا :

. إذن فقد وُفقت إلى إتمامه.. لكن الفيلَّا ليس بها كهرباء، إذن فبماذا يُدار الجهاز؟

قال ووجهه ينطق بفرحة الفوز :

. بالراديوم المشع .

. تعني الذرة؟

. تمامًا.. هي الذرة .

. لكنْ ...

فقاطعني ساخرًا :

. تريد القول من أين لي بعلم الذرة.. معك حق.. في الحقيقة فإن هذا الجزء من تجاربي هو وحده الذي استعنت فيه بخبرة أجنبية، فهو كما تعلم يخرج عن اختصاصاتي.. وقد عاونني فعلًا في تصميم الجهاز عالِم الذرة الفرنسي الأستاذ «ألكسندر تريفي»، الذي حضر خصيصًا لزيارتي في أواخر شهر يناير الماضي.. والذي، دون شك، قد رأيتَ جسده مُبردًا بداخل القاعة، فقد أصبح من الصعب عليَّ أن أفارقه بعد الذي رأيته من مهاراته .

وتذكرت الاسم، لقد كان واحدًا من الأسماء التي قرأتها مدوَّنة في نهاية كل جهاز من أجهزة التبريد الخمسة عشر بالقاعة السرية المتسعة .

وقسَت نظراته، وجمدَت عضلات وجهه من فرط الكبرياء :

t.me/qurssan

ـ لقد جربنا الجهاز على عبده مرتين.. وقد ضُبطت ساعته في المرة الأولى على 48 ساعة.. كما ضُبطت في التجربة الثانية على أسبوع بأكمله.. وكانت النتيجة في التجربتين مُرضية لأقصى الحدود .

. ألم يحدث أي تأخير.. أو تقديم؟

. حدث تأخير لا يُذكر في التجربة الثانية .

. وكم تأخر الجهاز عن موعد توقفه المحدد؟

. ثلاث ثوانٍ فحسب .

فاعتدلت في جلستي وقلت :

. معنى ذلك أن فروقات كبيرة يُنتظر حدوثها في المدى البعيد .

وفي نبرة غير مبالية، قال وهو يمصمص شفتيه :

. أبدًا.. لن تكون هناك فروقات كبيرة كما تتخيل.. إن التأخير على هذا المنوال لن يزيد على أربع ساعات إلى أربع ونصف كل مائة عام.. أو ما يوازي يومًا كاملًا كل 600 عام .

. وماذا سميت جهاز التبريد الجديد؟

. «حليم رقم 4 ».

. نسيتُ.. لا بد «حليم رقم 4 ».

قلتها وأنا أحس ببعض الخجل من عدم إدراكي هذه النقطة، ثم تمالكتُ مشاعري، وسألت الدكتور وأنا أحاول أن يبدو سؤالي طبيعيًا :

. حتى الآن.. أنت لم تخبرني بالغرض من تصميم جهازك «حليم رقم 4 ».

. إيه.. إنه واضح جدًا يا عزيزي.. فإن هؤلاء السادة المجمَّدين في «قلعة النائمين».. العلماء.. وأعواني.. مَن الذي سيوقف أجهزتهم

t.me/qurssan

ليعودوا إلى حالتهم الطبيعية العادية؟ أنا بالطبع.. لكنْ مَن الذي سيُخرجني بدوري من الجهاز الذي سيجمدني؟

أكملت بسرعة :

. الساعة الإلكترونية.. حينما تتوقف على زمن معين .

. تمامًا.. تمامًا .

وتسللت إلى ذروة السؤال :

. ومتى يتم إيقاظ سكان قلعتك؟ ولماذا؟

اختفت الابتسامة نهائيًا من وجه الدكتور ليحل محلها شحوب مشوب بالقلق، وأخذ ينقل بصره بيني وبين الباب الموصد في نظرات حيرى متوجسة. ولكنه قال أخيرًا في صوت خفيض متموج، وهو يقترب بوجهه مني :

. كأنك تطلب مني أن أكشف لك عن أدق وأخطر أسراري؟

همست :

. ألهذه الدرجة؟

. بل أكثر بكثير.. إنه أساس عصري القادم .

همست ثانية :

. إذن أعتذر لك عن السؤال.. وألغيه .

غير أنه استطرد في مرارة :

. لا ضرورة للاعتذار بعد أن توصلتَ إلى كشف النقاب عن معظم أسراري.. فإنني لا أجد مفرًا من إطلاعك على السر الباقي.. خاصة وأنت لا تملك وسيلة إفشائه، وهذه الجدران تقف سدًّا منيعًا في مواجهة أي محاولة تُبديها .

وأمَّنت على كلامه بهز رأسي، في حين استطرد هو ينساب مع انطلاقة لسانه :

t.me/qurssan

ـ كما سبق لك ورأيت في القاعة السرية، فقد رتبتُ كل شيء لتجميد نخبة مختارة من العلماء والأعوان.. أما العلماء فقد بُردوا كلهم ولم يتبقَّ منهم سوى اثنين جُلبا أول أمس، وسيُبرَّدان بدورهما غدًا.. وأما بالنسبة لأعواني، وأظنك قد قرأت اسمك من بينهم، فإنني سأبدأ في تبريدهم، الواحد تلو الآخر، خلال أيام معدودات، على أن يكون آخر من يُبرَّد زين، فمرزوق، فأنا.. هذا وسوف يحتل كلٌّ من زين وأنا جهازًا من النوع الجديد «حليم رقم 4 »!

فقد قررتُ أن توضع زين في جهاز آخر مشابه للجهاز الذي سيضمني، حتى أتيح لها فرصة مزدوجة للخلاص إذا ما حدث ما ليس في الحسبان لجهازي أنا .

قلت متهكمًا في غيظ :

. أنتما الاثنان في المقدمة والباقون تحت رحمتكما .

قال، وكأن تهكمي لا يمسه :

. ولقد قررت أن أشيع نبأ سفري إلى خارج البلاد.. أوروبا مثلًا.. بعد أن أغلق الفيلَّا وأتركها في حراسة بعض الخفراء الأمناء، يتناوبون السهر عليها مقابل أجر يأتيهم من جهةٍ ما بصفة منتظمة، كأن يكون وقفًا أو بنكًا يمدهم بأمواله بإذنٍ مني متروك لديه على الدوام.. وذلك بينما أنا وزملائي قابعون في «قلعة النائمين» الموصدة علينا من الداخل نرفل في سبات التجمُّد .

ولا بأس من استيقاظي أنا وحدي لمدة شهر.. مرة كل عشرة أعوام لأتتبع الأحداث الجارية في دنيانا .

. ومتى يوقَظ الباقون؟

. هم لن يوقَظوا إلا يوم الميعاد .

. ومتى يحين يوم الميعاد؟

قال في لهجة صادقة :

t.me/qurssan

. لا أدري.. قد يجيء بعد ثلاثين عامًا.. في عام 1981.. وقد يتأخر عن هذا التاريخ، فيجيء بعد أربعين عامًا.. أي عندما يحل عام 1991.. ولكن قلبي يحدثني بأن ما أنتظر حدوثه لن يتأخر إلى ما بعد عام 2000.. وإلا فإنه لن يحدث على الإطلاق .

وتملكني فضول مُلح حول إشارته الغامضة، فعدتُ أسأله في إصرار، وأنفاسي تكاد تكف عن التردد :

. وما الذي تنتظر حدوثه بكل هذه اللهفة؟

قالها في لهجة قاطعة، ويقين راسخ لا يحيد :

. الحرب العالمية الثالثة .

وبلغَت دهشتي ذروتها فرددتُ :

. الحرب ...

أجاب بهدوء، وفي صوت مقيت خلا من الحياة :

. التي ستدمر أكثر من ثلاثة أرباع ما يحتويه عالمنا السابح في مداره ضمن المجموعة الشمسية العتيدة.. من أنفُس ومدنيات.. بينما نحن المجمَّدين في قلب الجبل سوف نكون في أمان تام .

وبعد الحرب ندخل مباشرة إلى «عصر حليم».. وحينئذٍ تبدأ مرحلة مختلفة كُلِّيَّة في حياة البشر، كما سبق وأخبرتك، فيتحررون نهائيًا من سجن الأطماع والخوف والاستغلال .

وأكملتُ وأنا مبهور الأنفاس من جمال تصويره لعالمه السحري الشائق، وقد انطلق بي الخيال في أجواء بعيدة خلابة تنساب داخل رأسي في عذوبة وحنان :

ـ عصر الراحة والرفاهية.. والمتعة.. والأمان.. حيث لا ذل ولا حروب إلى الأبد.. ولكن.. ألا تظن أن قنبلة ذرية تسقط بالقرب من فيلَّتك كفيلة بالقضاء نهائيًا على كل أحلامك؟

ضحك الدكتور حليم من أعماقه، بينما استقرت على صفحة

t.me/qurssan

عينيه نظرة شاردة مجنونة، وقال فجأة :

ـ بل لو سقطت حتى قنبلة هيدروجينية مضاعَفة رأسًا على الجبل، فإنها لن تؤثر على أي ثنيَّة مما تحتويه بين صخوره وفي أعمق أعماقها، تحت ألوف الأطنان من الصخر الصلد بارتفاع 105 من الأمتار.. لا تخف.. لا تخف يا عزيزي.. لقد رتبتُ كل حساباتي وتقديراتي بمنتهى العناية والدقة .

وصمتَ .

. أهذا كل ما لديك؟

قال :

. لا.. بقيَت كلمة.. لن أتركك قبل أن تجيبني عليها بنعم.. أو لا .

أجبته :

. إذا كان في مقدوري .

قال في اقتضاب، كمن أُرغم على التصريح بشيء يود عدم البوح به :

. إنك مقرب مني أكثر مما تتصور يا كامل.. وأنا شديد الإعجاب بذكائك وقدراتك على الاستجابة والتصرف.. وما زلت أرغب في ضمك إلى مجموعتي من الأعوان الأوفياء، لتكون ساعدي الأيمن في كافة أعمالي.. خاصة حينما يصير لنا التوجيه النهائي على روح العصر العظيم الآتي قريبًا.. وربما يحدث لي مكروه.. وفي هذه الحالة تكون أنت وحدك الموجِّه لكافة الأمور، يعاونك مرزوق.. وإني لعلى ثقة أنك خير من يفهمني ويسير وفق المنهج الذي رسمته لذلك العصر بالغ الحساسية .

وأحسست خلال حديثه المنمق، وقد اختار ألفاظه بعناية، أنه يحاول استدراجي بشتى سبل الإغراء لأنضم إليه في تنفيذ أفكاره العلمية بالغة الغرابة، على أن الفضول دفعني لأسأله :

. ما الذي تطلبه مني بالضبط؟

t.me/qurssan

قال وهو يراقبني في صرامة :

. عِدني بشيئين، أطلق سراحك في الحال .

. وما هما؟

قال ووجهه عابس مكفهر :

. أولًا أن تنسى حبك لزين وتبتعد عن طريقها ...

. وثانيًا؟

. ألا تحاول ترك الفيلَّا مرة أخرى .

تطلعت إلى الدكتور حليم في سكينة ووقار، وقد اكتسى وجهي بصلابة مفاجئة جعلَته جامدًا لا يهتز له طَرْف، بينما تمتم فمي وهو يقطر تصميمًا :

. اسمع يا دكتور حليم.. إنني لن أعدك بشيء طالما بقيَت زين في قبضتك.. وتحت رحمتك .

وتغيرَت سحنته تغيرًا كليًا، فقال في شراسة، وكأنه يوشك أن ينشب أظافره في صدري :

. حتى ولو كانت هذه رغبة زين الأكيدة؟

قلت :

. إذا كانت هي رغبتها حقًا فدعها تخبرني بنفسها.. وحينئذٍ أُلبي رغباتك على الفور .

همس وهو يكزُّ على أسنانه :

. كما تريد.. قد تندم لضياع الفرصة منك .

وحدق الدكتور حليم في وجهي برهة قصيرة، خُيل إليَ أثناءها أنني لمحت بعض التأثر يجتاح نظراته إليَ، وبدا أنه يهمُّ بأن يقول شيئًا، على أنه أولاني ظهره في حركة مباغِتة، ثم غادر

t.me/qurssan

الحجـرة علـى الفـور صـافقًا البـاب خلفه فـي عجلة، ومع ابتعاد خطواته عاد السكون القاتل يجثم فوق صدري مرة أخرى، أشد ثقلًا مما كان أضعافًا مضاعفة .

*

ما المصير؟

وأنا أصل إلى هذا الحد من تدوين مذكراتي عن الأحداث التي دارت حولـي، وعلى مرأى مني، منذ وطئت قدماي فيـلًا الجبل التي شيدها الدكتور حليم صبرون في قلب التلال شرقي مرصد حلوان.. أجدني مضطرًا للتوقف عن إمساك القلم إلى أجَل غير مسمى، بعد أن نضب مَعين ما معي من ورق، بالرغم من لجوئي في الصفحات الأخيرة إلى الكتابة بحروف دقيقة قدر إمكاني .

وهأنذا.. كامل أحمد بهنسي.. ما أزال قابعًا بين جدران سجني المقوسة المنحنية نحوي توشك أن تنقض عليَّ لتسحقني تحت ثقلها، في الوقت الذي تدور فيه عيناي، تتبعها تلافيف مخي، في تـرقب جامـد للمصـير الـذي ينتظـرني علـى يـد الدكتور ورجاله. وروحي تهتف من أعماقي بدعاء واحد لا يتغير: اللهم أنقذ زين من براثن الوحش.. وليكن بعدها مصيري كما يكون .

t.me/qurssan

القسم الرابع

الأبدية

1

في غضبة الحيوان الحبيس داخل قفصه، وانفجار أحاسيسه بالتعاسة والرغبة في تحطيم كل ما يقابله، راح يلف في حجرته المرة تلو المرة في شبه دائرة ضيقة أمام فراشه، وقد أنسته الثورة المختزنة في أعماقه كل صلة تربطه بالإنسان الذي كانه قبل أن يلقوا به وسط هذه الجدران، التي تشبه القضبان الحديدية في برودتها وقسوتها .

وكان كلما توقف عن المسير لثوانٍ معدودات يروح يتحسس، بأظافره المستطيلة، لحيته ورأسه وما فيهما من شعر غزير متسخ. وفي الحقيقة، فإن هذا الكائن متهدل الثياب، والذي ترتسم على بشرته الكالحة غضون رجل عجوز أنهكته السنون والمرض، كان يصعب على المرء أن يتبين فيه الشاب كامل أحمد بهنسي.. الممتلئ قوة وحيوية.. والذي خطا بقدميه أعتاب فيلّا الجبل في تلك الأمسية البعيدة من يوم الجمعة 19 يناير 1951 .

ورفع كامل رأسه إلى أعلى في دهشة امتزجت بالقنوط: تُرى كم من الأيام قضاها في سجنه؟ كم حتى الآن؟ وأي الأيام من عام 1951 يومه هذا؟

وعاد الحيوان الحبيس يدور في أجواء قفصه في عصبية أكثر وخطوات ملولٍ أقصر، وقد أُضيف إلى مشاعره إحساس آخر، هو الجوع، فلأول مرة منذ سجنوه يتأخر كلٌّ مِن مرزوق وعبده في إحضار الطعام إليه. وقد بلغ التأخر حدًّا بعيدًا لا يُعقل. يقارب اليومين، فهل تراهم قد بدأوا في القضاء عليه.. جوعًا؟ !

حين بلغ تفكير كامل هذه النقطة المفزعة، رجع ذليلًا إلى فراشه، وانكمش على طرفه وهو يخفي وجهه بين كفيه، وقد انتابته حالة أقرب إلى البكاء، وقادته أعصابه المحترقة إلى نوع من

t.me/qurssan

الشرود التام، فاستلقى على فراشه يحدق فيما يحيطه من سقف وجدران وهو لا يراهما .

*

على أنه، وقد استقر في وهدة يأسه وأحزانه، إذ به يحس نغمًا حالمًا يعمه في هدوء، ليدفع بعض السكينة إلى فؤاده: هل هي نظراتها التي تتركز عليه؟ نظراتها الدافئة الحنون.. وخُيل إليه أنها تبتسم له كذلك، وتمد يدها الرَّخْصة الصغيرة إليه لتنتشله من أعماق سجنه . الأمر الذي كان يجدر به أن يفعله هو لها .

وشعر بعضلاته وأعصابه تتيبس تحت جلده .

وبدا وكأن الخجل المر يلتف حول عنقه دون رحمة، فمد أصابعه يفتح أزرار ياقته وهو يتمتم في تبتل :

. تُرى أين أنتِ الآن يا زين؟ أين أنتِ يا صغيرتي المسكينة؟

وجاءه صوتها ناعسًا.. حلوًا.. يجيبه من بعيد.. في رنين.. وإغراء لا يقاوَم :

ـ إنني أرقد ها هنا في رحاب «قلعة النائمين».. أرقد في قلب فراش التجمُّد البديع.. وسترقد أنت أيضًا بداخل فراشك بجواري.. سيكون جسدك على بُعد خطوات من جسدي.. وستتعانق روحانا وتندمجان في وحدة أبدية لا تنفصم، طالما ظل جسدانا مجمدَين.. لأن كُلًّا منا سيتجمد، وأفكاره مركزة على الآخر ومنطبقة عليه .

ولبى نداء زين ...

فتقدم يكشف لهم عن ذراعه ليدفعوا في وريده الإكسير الوردي، وارتدى القناع الذهبي، ودلف بدوره إلى داخل الجهاز الرطيب الحاني بعد أن تجرَّد من ملابسه وارتدى السروال القصير، ودون تردد أشار لهم بأن يغلقوا فتحة الجهاز عليه، وحين بلغ سمعه صوت الأقفال، وهي تُحكم الجهاز حول جسده، يأتيه مكتومًا، لم يكن يشعر بأى ضيق أو انزعاج .

t.me/qurssan

وبدأت الكبسولة القابضة عليه تئزُّ في خفوت حتى شملته رجفتها الرتيبة، فأحسَّ وكأنه موشك على التفكك والتبعثر إلى أشلاء متناثرة، ثم تقدم ذلك الهواء الثقيل، أو ذرات الرمل غير المنظورة، لا يدري.. لتطبق عليه.. وتظل تضغط وتضغط من أعلى ومن أسفل، وكأنها تريد أن تسحقه أو تحوله قزمًا مشوهًا.. رباه، إن آلامه لا تُطاق .

إن كل عين من عينيه قد غُرزت فيها فتاحة، مما يُستعمل لنزع سدادات الزجاجات عنوة، وقلبه.. ذلك الراقص الماهر، إنه يئنُّ تحت وطأة القبضة الوحشية التي تنشد سحقه، بالرغم من حيويته الدافقة، وخُيل إليه أنه بدأ يترنح، ويهبط ببطء في المبدأ.. ثم بسرعة أكثر.. تتزايد وتتزايد.. إلى البئر السحيقة، ليحمل على كاهله أطنانًا مريعة من المياه الثقيلة. وظل يتخبط في أعماق البئر، ويزداد انسحاق عظامه واعتصار خلاياه .

ولكنْ.. تدريجيًّا.. ثانية بثانية.. ولحظة وراء لحظة.. بدأ الثقل ينزاح عن صدره.. ولفه الضوء الأخضر الفيروزي الباهت في عتمة الغسق.. ونَعِمَ أخيرًا بالخدر اللذيذ.. الرائع.. بالغ العذوبة .

وانقطعَت صلته بالزمن .

*

وبغتة عادت إليه مشاعره.. ولكنْ بعد أن كانت قد مرت مائة عام كاملة دون أن يلحظ أقل بادرة على مرورها، ودون أن يتقدم به العمر ساعة واحدة .

وفتح غطاء الجهاز، وتسلل خارجه في تردد ...

وحين لامسَت قدماه العاريتان الأرضية المكسوة بالمشمع، أدهشته الخفة المتناهية التي شملته وهو يصلب قامته تحت ضوء القاعة الفوسفوري، لأول مرة بعد سباته الطويل. ومدَّ ذراعه يتناول رداء من الأردية البيضاء المعلقة في ركن القاعة ليستر به جسده العاري، وحينئذ لحظ بعض التغيير في شكل ذراعه. فقد

t.me/qurssan

بدت له أكثر استدارة، وبدت عضلاته نافرة مجسمة، فأسرع يستدير إلى لوحة الأرقام المعدنية المثبتة في نهاية جهاز التبريد الذي كان يؤويه، فهي تعكس المرئيات، وحدق في صورة وجهه بعصبية، يا لعجبه.. إن هذه ليست صورته التي بُزِّد عليها قبل قرن كامل من الأعوام، إنها صورة الشاب الذي كانه وهو في العشرين من عمره. وهزته الفرحة.. لقد عاد شبابه وفتوته من جديد.. بينما تخطى مائة عام، احتسبت من عمر الزمن وليس من عمره هو .

ولكن تُرى ما شكل الدنيا فيما وراء هذه الجدران التي تضم «قلعة النائمين»؟ ما شكل الدنيا عام 2051؟

وانبهرت عيناه مما شاهد إثر مغادرته الفيلَّا وانحداره مع الجبل إلى مدينة حلوان، وانبهرتا أكثر حين طالعته القاهرة. لقد تغير كل شبر في العاصمة التي أصبحت تؤوي 25 مليونًا من البشر، واتسعت إلى حدٍّ لا مثيل له، وبدت بمبانيها الزجاجية الشفافة، في استدارتها وعلوها الشاهق، وتحت تلك السحابة الصناعية في لون البنفسج، والواقية من عواصف الجو وتقلباته، وبالأنوار الفوسفورية التي تلف كل شارع وكل ميدان وكل بناء فيها، وقد لمعت حانية كالطيف الرقيق الهفهاف، بدت أشبه بخطوط أسطورية لا تعي الذاكرة مقابلًا في رشاقتها وانسيابها وجمال ألوانها .

وكان أبرز ما لاحظه أيضًا انتشار دُور التبريد البشري لاستخدامه في شتى الأغراض والنظم التي تُميز «عصر حليم». ووجد القاهرة ليست فحسب عاصمة للقُطر المصري، وإنما أصبحت العاصمة المركزية للعالم الموحَّد بأقطاره وشعوبه، والذي تتجه أنظار كل فرد فيه إلى موقعها، بوصفها الأم الوحيدة للدنيا في مجرى هذا العصر الخلَّاب. وأما بقية العواصم الموجودة في الأقطار الأخرى فقد اتسعت بدورها، وانتشرت فيها دُور التبريد، وتطورت مرافقها وأساليب الحياة بها تطورًا مذهلًا، في حين بدت العواصم القصية، المنتشرة على الكواكب المستعمَرة القريبة من الأرض، تلهث من أجل اللحاق بتباشير العصر الجديد. وكانت أبرز مظاهر

t.me/qurssan

السيادة الفكرية والسياسية للقاهرة هو تسيُّد اللغة العربية وانتشارها على لسان كافة البشر على ظهر الكرة الأرضية وبين الكواكب .

ووجد نفسه يستقل واحدًا من تلك الأقبية الدائرية المتحركة، والموجودة بكثرة تحت الأرض فيما بين الميادين الرئيسية بالعاصمة، وهي عبارة عن مسارات من صفائح الصلب تنتظم في صفٍّ طويل يشق أقبية دائرية متشابكة على أعماق متفاوتة في باطن الأرض، وتتحرك بصفة دائمة في اتجاهين متضادين، وأحيانًا يوجد طابقان أو ثلاثة من هذه المسارات يعلو بعضها الآخر، وكلٌّ منها يأخذ اتجاهًا بعينه، والناس يستقلونها بالوقوف عليها لتُقلهم إلى المكان الذي يقصدونه، دون أجر .

ولقد كان شيئًا عمليًّا، ومُسليًا في نفس الوقت، أن يجد كافة طرق المواصلات التقليدية القديمة قد اختفت كُلِّيَّة من على ظهر الأرض، ليحل محلها التاكسيات وهي تندفع في سرعة الصوت عبر المسافات القريبة، وكذلك الصواريخ عابرة القارات تشق السماء في سرعة تماثل عشرة أضعاف سرعة الصوت، وأما السفر بين الكواكب فقد كان عصبه الوحيد الصواريخ الكونية الضخمة التي تنطلق بسرعة تبلغ نصف سرعة الضوء، كما أنه سمع همسًا يقول بقرب اكتشاف مجموعة من العلماء لوسيلة تُمكن البشر من الانتقال من مكان لآخر عبر الأثير .

وخلال تجواله بواسطة الأقبية المتحركة، قابل الكثيرين من البشر، وراقب هيئتهم وسلوكهم، فوجد غالبية القاطنين بالمدن يرتدون نماذج متشابهة من هذه الملابس المصنوعة من رقائق السيليكا والحرير الشفاف، والتي تتدرج في لونها الطوبي من الشفافية المطلقة لدى قمة حمَّالتيها . فهي بدون أكمام . وحتى تصل إلى لونها الداكن المعتم فيما تحت الحزام، حيث يوجد السروال القصير لدى الرجال والثوب الذي يعلو الركبتين مباشرة لدى النساء .

وإذ بدا مرأى الرجال عاديًّا بالنسبة إليه، فإن مرأى النساء

t.me/qurssan

بأثدائهن المشرئبة، بديعة البروز والتكوين، قد استرعى انتباهه أكثر من مرة. وحين ابتعد عن المدن المغطاة بأستار الضباب الواقية والتي تقوم مقام التكييف المنظِّم للجو، وجاس خلال حقول الريف المترامية والتي استُبدل الطمي في معظمها بأحواض مُلئت بمحاليل كيميائية تنمو فيها النباتات وتتغذى على محتوياتها، فإنه وجد القوم يلبسون أردية رصاصية تشبه أردية الغوص التقليدية، صُنعت من المطاط المقوى بمعدنَي الألومنيوم والنحاس الرقيق، وزوَّد كل رداء منها بجهاز محلي للتكييف. وأما الأحذية، سواء في المدن أم في الريف، فقد كانت جميعها مبسَّطة، مألوفة، تشبه الخف الذي كان يرتديه قدماء المصريين فيما قبل ميلاد المسيح .

وقد وجد القوم يتميزون بطول القامة، كما وجدهم أكثر نحافة ورشاقة، ويتفوقون إلى حدٍّ غير متصوَّر في جمال القسمات ومرونة العضلات وصلابتها... وكان رأس الواحد منهم يكبر في الحجم مرة وربع مرة عن رؤوس البشر عام 1951، ولاحظ أيضًا أن طابعهم السرعة الفائقة في كافة ما يصدر عنهم، يتكلمون بسرعة، ويتحركون بسرعة، ويأكلون بسرعة، ويؤدون أعمالهم بسرعة، والشيء الوحيد الذي كانوا يمارسونه ببطء هو الحب.. فهل أدى انتشار التلقيح الصناعي ونشوء الأطفال في المختبرات إلى برودهم؟

كذلك كانت لمحات الذكاء والفهم النابه تضوي في كل بُزقة من نظراتهم، وكانت الطفولة لديهم تنتهي في سن الثامنة، والفتوة في سن الثانية عشرة، والشباب في سن العشرين، في حين تمتد الرجولة من العشرين إلى ما بعد المائة أو إلى ما لا نهاية، وأما الكهولة فقد كادت تختفي تمامًا، وتظل درجة الإخصاب بالغة ذروتها لدى الجنسين، من الرجال والنساء، حتى فناء الجسد على صورته ما بعد المئات من السنين !

وشاهد كامل جمعًا من الناس يهبطون من أحد التاكسيات الطائرة بجوار بناية ضخمة لتبريد البشر، فوجدها فرصة سانحة ليرى إحدى هذه الدُور من الداخل، فاندس بين الجمع الهابط وتسلل

t.me/qurssan

معهم دون أن يلحظه أحد. وهناك عرف لأول مرة أن عملية التبريد الشعبية تتم نظير أجر رمزي يُدفع عن كل عام يقضيه المُبرَّد في سبات التجمُّد. وكانت البناية مُقسمة إلى 60 طابقًا، يضم كل طابقين منها قسمًا من أقسام التبريد يختلف عن الآخر تبعًا للتصنيف العلمي والثقافي للأشخاص، كما عرف أن مؤسسات التبريد العامة تبلغ في القاهرة وحدها أكثر من 4000 مؤسسة، بخلاف دُور التبريد الخاصة، ودُور تبريد الحيوان والنبات وخلافه .

ووجد نفسه يُودَع مع المودعين، الشاب الأسمر فارع الطول، قبل أن يحتويه الجهاز «حليم رقم 18»، وهو جهاز محسَّن ومتطور جدًّا للتبريد، وذلك في قسم تبريد «مؤرخي الكشوفات الكونية» بالطابق 34. وفي طريق مغادرته للبناية، قابلته بالطابق التاسع مفارقة طريفة ضحك لها من أعماق قلبه . وهذه المرة الأولى التي يكتشف فيها أن انفعال الضحك من الممكن أن يلازمه في هذا العصر المعروف بطابع الجدية والعمل المتواصل . وكانت المفارقة أن أحد الآباء خرج من جهاز التبريد ليجد ابنًا له، تركه يوم تبريده منذ 50 عامًا، وقد شبَّ وفاقه في كبر السن بـ22 عامًا !

واختلط كامل بأناس أكثر من جميع الأعمار، من الأطفال إلى الذين تخطوا المئات، وذكَّره مرأى الإنسان بمن يعرفهم من أقارب وأصدقاء، فراح يبحث عنهم في أماكن عدة، ويسأل عنهم كل من يصادفه، ولكنه أبدًا لم يعثر على أي واحد منهم، فغالبيتهم قد تُوفُّوا في السنين الأولى من بدء انتشار التبريد، وقلةٌ منهم مُبرَّد حاليًّا بداخل أجهزة التبريد. وحين ألحَّ في الاستفسار عن صديقه رؤوف، تأكد لديه أنه قد قُتل إبان الحرب الذرية التي اجتاحت العالم في آخر التسعينيات من القرن الماضي، وداهمه الحزن بصورة قاسية.. وبكى دمعًا غزيرًا راح يُلهب خديه ويُغرق ياقته وقميصه. وخلال بكائه سأله شخص، وقف قبالته، سؤالًا عابرًا مبهمًا :

. ألم تستعلم بعدُ عن الدكتور حليم صبرون؟

t.me/qurssan

. لا.. لم أسأل عنه.. أين يوجد؟

وقال الشخص الذي لا يذكر ملامحه :

. إن مقره هناك.. في الدور الـ51 بعد المائة بعمارة «مركز التوجيه والإرشاد لعصر حليم ».

وتطلع كامل في اتجاه إشارة الشخص الغريب، فرأى ناطحة السحاب المغطاة جدرانها باللدائن الفولاذية وألواح البلور الزرقاء المعتمة، وقد بدت في علوها الشاهق، بثلاثمائة طابق، ظاهرةً عن بُعدٍ تكاد تطاول السحاب وتدخل فيه، يغلف جزءها العلوي، وهو على شكل برج هرمي القمة، غلالة رقيقة من الضباب. ولكنه أحجم عن التقدم نحوها، فهو لا يريد بعد أن يتصل بالدكتور، ويفضل لو يطلع أولًا على كافة منجزات العصر الجديد، قبل أن يضع يده في يد مُنشئه ويتعاون معه، فقد يخذله ضميره كما حدث وخذله من قبل .

وفي كل مكان طرقه بعد ذلك، كان يجد القوم يتكلمون عن الدكتور النابغة في إجلالٍ بلغ حد التقديس والهوس، وقد أحس هو نفسه بالتعاطف مع الدكتور، غريمه القديم، وعلى الرغم مما كان يراه في سلوكه من مخطط إجرامي لا يشك قيد أنملة في حقيقة تواجده، إلا إنه كان يلتمس له العذر في أعماقه، فقد كان يرى فيه الإنسان الغيور المخلص لمادة العلم بصورة تفوق كل المفاهيم، فهو عالِم ومفكر من طراز لم يوجد له قَطُّ مثيل، وكان يرى فيه كذلك الرجل اليائس من إصلاح ما ينخر في بلده من فساد، وما يستشري بين جذوره من ظلم واستبداد وتأخُّر، ومرة أخرى فللدكتور كل العذر، فطالما أحس كامل في أغواره بهذه الدفقات القانطة من إمكانية رفع طبقات الطين المتراكمة، طبقة فوق طبقة، عبر السنين الطوال من ذل المستعمِر، وسيطرة القوى الأجنبية والدخيلة على ثرى بلده .

ولقد كان كل خبر يدور حول واحد من قادة الاحتلال أو واحد من الباشوات أصحاب الإقطاعيات المترامية، إنما هو خنجر آخر مسموم ينغرس في صدره دون رحمة، لذلك فقد كان على ثقة من

t.me/qurssan

أن عين الأحاسيس المُرة.. القاتمة.. هي التي كانت تقود الدكتور إلى استعجال بحوثه والانكباب عليها في حمية، وتوتُّر ينسيه في بعض الأحيان إنسانيته !

وجنى الدكتور حليم في النهاية ثمرة كفاحه وتفانيه، واستطاع أن يحقق أكبر معجزات العلم التي عرفتها البشرية.. فقد وُفق إلى تحقيق الحلم البعيد عن التصديق، ألا وهو، قهر الزمن .

وسمع محاورة عن الزمن بين شخصين، وخُيل إليه أن نبرات صوتيهما تشابه نبرات صوته هو :

الأول :

. ما هو الزمن؟

الثاني حالمًا :

. يا له من سؤال.. فلا شيء يبعث على الحيرة أكثر من ترديد هذه الكلمة الغامضة.. الزمن .

الأول بإصرار :

. اصدُقْني.. ما هو الزمن؟

الثاني :

. هو وقت.. أي وقت.. يمر علينا ويحتوينا.. ونحن فيه بلا بداية ولا نهاية .

الأول هامسًا :

. أريد تحديدًا أدنى .

الثاني :

. إذن فالزمن هو المعروف لدينا بالساعة.. واليوم.. والشهر.. والسنة.. وكلها مجرد مصطلحات أوجدناها نحن لنرمز إلى دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس .

t.me/qurssan

الأول في حيرة :

. معنى ذلك أن الزمن عنصر مهم بالنسبة لنا؟

الثاني مؤكدًا :

ـ بل هو أهم أبعاد الإنسان على الإطلاق.. فالواحد منا بأبعاده المختلفة من طول.. وعرض.. ووزن.. يتغير فيه شيء هو أهم جانب من جوانب وجوده.. إنه عمره.. وتغيُّر عمره معناه أنه قد مرَّ عليه الزمن.. أي زمن.. ولو لحظة واحدة .

الأول ببطء :

ـ معك حق.. ومفهوم الزمن تبعًا لكلامك يعني: الطريقة التي نقيسه بها في دنيانا .

الثاني :

ـ تمامًا.. فالأرض تدور حول محورها.. فيتعاقب كلٌّ من الليل والنهار.. وهذا هو مقياس أعمار.. أو زمن.. كل فرد منا .

الأول :

. وهل هي أحكام حقيقية؟

الثاني في أسى :

. للأسف لا.. فالعالم الذي نراه ليس هو الفعلي والواقعي.. وإنما هو عالم اصطلاحي بحت، نحيا فيه ونحن أسرى للرموز التي يخلقها عقلنا.. وما نلمسه فيها حولنا بالقطع هو ناقص ومبتور، لأنه يسير وفق حواسنا المحدودة عبر الكون الغامض اللانهائي .

الأول :

. كيف؟

الثاني :

. الأمر بسيط.. وإلا لاستطعنا أن نميز حدود الكون، ولأمكننا أن

t.me/qurssan

نتذكر أحداث تاريخنا منذ بدء الخليقة أيام آدم وحواء. بل ولَتيسَّر لنا أن نلمح ما يحيطنا من أطياف.. وأرواح.. وكائنات غير منظورة .

وسكت الشخصان .

وأحس كامل أنه لا بد أن يضيف كلمة إلى ما قالاه، فإذا كان مفهوم «الزمن» هو الحركة والتغيير، فإن الدكتور حليم حين استطاع، بعبقريته الخلَّاقة، أن يجمِّد أول مخلوق بشري في التاريخ ويلغي وجوده النظري، يكون بذلك قد تمكن من إيقاف الزمن.. ويكون بالتالي قد سيطر عليه وقهَره.. ففكرة التبريد تقوم أساسًا على إيقاف الحركة والتغيير بوقف الحرارة، لأن كلًّا من الثلاثة مرتبط بالآخر. أجل، إن الدكتور حليم هو الإنسان الوحيد الذي أمكنه أن يحطم الزمن ويقهره.. وقد ساعده في ذلك مرزوق وجماعة مجهولة من الأعوان .

وذكَّرَته كلمة مرزوق والأعوان بشيء، وعاد الجوع المهلك يغزو أحشاءه، ويلحُّ عليه، فشغله عن متابعة ما يقابله في رحلته العجيبة من رؤى تفوق حد الخيال، شغله الجوع عن متابعة المنشآت الصناعية المذهلة، فقد ظل اطراد التقدم الصناعي أحد العمد الرئيسية في «عصر حليم»، بل إن التصنيع الآلي أصبح هو الأساس الراسخ الذي يرتكز عليه العصر الحافل الجديد، حيث تقوم الآلة بغالبية الأعمال التي تحقق رفاهية البشر، ولعل أجهزة التبريد هي أصدق النماذج لدَور الآلة منقطع النظير في «عصر حليم ».

*

وجاهد كامل لينتزع نفسه من الإغفاءة الطويلة التي انتابته، وحين أفاق في النهاية، وجد جسده وقد انكفأ في وضع متعب على حافة الفراش، فتنملت قدماه ونضح العرق غزيرًا حول عنقه وجبهته، بينما ظلت الحجرة خاوية تضيئها ذبالة اللمبة، وظل الباب موصدًا دون أن يطرقه أحد. وبحث بعينيه طويلًا يحدوه بصيص من رجاء وهو يلعق شفتيه، ولكن أيضًا لم يكن هناك

t.me/qurssan

مطلقًا أي أثر لطعام، لا طعام، ولا ماء، ولا حركة، ولا نسمة نقية، لا شيء سوى الصمت والخواء، يا لهم من قتلة حقًا.. إنهم بالفعل يهدفون إلى تجويعه حتى الموت .

وللمرة الثانية انقض الحيوان المحبوس ـ وقد أعماه الجوع ـ ينشب أظافره في خشب الباب ويطرقه في جنون، وأثناء ثورته العارمة وعقب دفعة قوية، انهار الباب تحت ثقله منفرجًا على مصراعيه، وملقيًا به يسبح في الهواء، ليفترش أرضية الردهة الوسطى المغطاة بالبلاط في سقطة غادرة .

t.me/qurssan

2

ليس هناك ما يدفع المرء قُدمًا إلى الأمام في إصرار مثل تعطشه للانتقام أو لوعته لإنقاذ حبيب غالٍ، وقد سيطرت كلتا الرغبتين عميقًا على مشاعر رجلنا الهارب توًّا من سجنه الحقير، وهو يتقدم حثيثًا وفي خطوات متحفزة عبر الممشى الجنوبي بفيلًا الجبل .

ووجد الظلام والسكون هما السمة الغالبة على حجرات الفيلًا وخباياها. ولكنْ مع انحرافه إلى امتداد الممشى في اتجاه الشرق، ميز أول علامة على وجود أحد سواه، فقد اتضح له بصيص ضئيل لضوء خافت يتسلل من أسفل باب المعمل الجنوبي .

وتساءل، وهو يتقدم في رجاء: هل يصح تقديره هذه المرة، فيجدهم بداخل المعمل قائمين بإنجاز إحدى ألاعيبهم الإجرامية؟ لكنه حين دفع الباب بحذر، فإنه لم يعثر على أي شخص بالداخل، فقط شاهد فانوسين ضخمين يرسلان ضوءهما قويًا، وقد علِّقا في ركنين متقابلين، فتقدم يقف على مقربة من صندوق زجاجات الإكسير الوردي المعلق، بينما راحت عيناه تتفحصان أنحاء الحجرة في حيرة فهو لا يرى ما يريب، وإنما كل شيء يجده في مكانه الذي يذكره. وحين تقدم من المنضدة القصيرة التي اعتاد الدكتور أن يجلس إليها ليزاول دراساته وبحوثه، شاهد المجلدات الثلاثة التي سبق له أن خطَّ بعض سطور المجلد الثالث منها بأنامله .

ولحظ بجوار المجلدات كراسة لها غلاف ذهبي لم يرها من قبل، فالتقطها بفضول ليقرأ على أولى صفحاتها بحروف كوفية جميلة :

«تعليمات خاصة بالحكومة المثالية في عصر حليم »

وتابع بنود وفقرات اختصاصات الحكومة المثالية، والمكتوبة بالرقعة بحروفٍ أقل حجمًا في الصفحات التالية على التوالي :

«الحكم المثالي»، «الحكومة العالمية»، «جهاز التخطيط المركزي»،

t.me/qurssan

«بنـد العلمـاء»، «بنـد الخبـراء والعمـال المـهرة»، «بنـد حكـام المستعمرات الكوكبية»، «بند متابعة الكشوفات الفضائية»، «بند قوات الدفاع المسلحة الأرضية » ، «بند قوات الدفاع المسلحة الكونية ».

وود لو يستمر في القراءة، بندًا بعد بند، وجهازًا وراء جهاز، ولكن خـاطرًا مزعـجًا انتزعـه مـن بـراثن الصـفحات المثـيرة: تُرى أيـن اختفـى الـدكتور صـاحب هـذه التعليمـات؟ وأيـن ذهـب مـرزوق والآخرون؟ والأهم أين زين؟

وفي إلحاح بعث الرجفة إلى أوصاله، قادته حاسته السادسة في خطوات جامدة معذبة نحو القاعة السرية.. «قلعة النائمين ».

وفـي منتصـف القاعـة الرحبـة، السـابحة فـي ضـوء الفوسـفور والبرودة الشديدة، وقع بصر كامل أول ما وقع على زين ترقد بداخل جهازها الجديد، الذي عرف فيه الجهاز «حليم رقم 4» من الرسـومات السـابق رؤيتـه لـها، ثم رأى بقيـة المجمَّدين يرقدون بداخل الأجهزة «حليم رقم 3» في مظهرهم الرخامي الخرافي .

واقترب من زين في رهبة.. كانت ترقد في جلال ومهابة، وكأنها ملكة أسطورية يحيط بها رعاياها وعبيدها .

ورأى شـعرها فـي غـير الضـفيرة هـذه المرة.. كـان يسـترسل فـي موجات حانية إلى ما فوق ثدييها، ثم يعود فيلتف حول القناع الـذهبي القبـيح الـذي أخفـى ملامـح وجـهها البريء.. كما بدا له كتفاها العاريتان وذراعاها البضتان، وهما تمتدان من أسفل إلى أعلى مع انحناء الجهاز نفسه بالزاوية 30 درجة، وكأنهما ذراعا «فـينوس» فـي رقتـهما وبياضـهما.. أمـا سـاقاها فمع ميلهما إلى النحافة، كانتا تبدوان بديعتين، كاملتَي الاستدارة والطراوة، على الرغم من تجمُّدهما .

ولكنْ ما باله يقف هكذا محملقًا وقد غُلب على أمره؟

ودار دورة بطيئة حول الجهاز الذي يضم جسدها، أتبعها بدورة ثانية وهو يسائل نفسه فى يأس .

t.me/qurssan

إن هذا الجهاز «حليم رقم 4» يختلف حقًّا عن أيٍّ من الأجهزة «حليم رقم 3»، فالساعة التي تتصدر الجهاز «حليم رقم 4» تبدو أشبه بالساعات الفلكية المعقدة، فهي تتكون من عدة دوائر مليئة بالأرقام والرموز والحروف الهجائية المبهمة، ثم إن المفاتيح والمؤشرات والعدادات، على جانبَي جهاز التبريد وعند رأسه الخفيض إلى أسفل، يبلغ عددها 22، في حين أن الأجهزة الأخرى يضم كلٌّ منها ثلاثة مفاتيح وعدادَين ومؤشرًا واحدًا، كذلك فإن فتحة الجهاز «حليم رقم 4 » العليا تبدو بغير مقبض يفتحها. وتذكَّر أن هذا الجهاز قد صُمم، كما سبق وأخبره الدكتور حليم، ليُفتح من الداخل إذا ما توقفت ساعته الإلكترونية عند الزمن المعين الذي ضُبطت عليه قبلًا لتوقُّف الجهاز حينما تبلغه .

وأُسقط في يده، فإنه لا يعلم الزمن الذي ضُبطت الساعة لتقف عنده، وإن كان على علم به، فإنه ليست لديه الدراية بالكيفية التي تعمل بها الساعة المعقدة، لا يعرف كيف يؤخرها، أو يُرجع عقاربها إلى الوراء.. أو يوقفها كُلِّيَة .

على أن ضوضاء تعالت بخارج القاعة حسمت الموقف، واضطرته إلى الاندفاع ليختبئ خلف جهاز قصِيٍّ للتبريد، فإن بعضهم قادم خلال الممر الصخري، ولكن الأقدام الثقيلة المقبلة من اتجاه فرن صَهْر المعادن استمرت في سيرها حتى عبرت من أمام القاعة في طريقها إلى المعمل، والتقطت أذناه ثلاثة أصوات تختلط في حدة، ميز بينها صوت مرزوق البغيض .

وهنا تيقظت حواس كامل دفعة واحدة، وتحفزت أعصابه وخلاياه للعمل، وراح عقله يفكر بسرعة: هل يفاجئهم وينقض عليهم الآن، أم يصرع كلًّا منهم على حدة عندما تحين فرصة مواتية، أم الأجدر به أن يتريث حتى يعرف عددهم ويكون على بينة بما يدبرون، وحينئذ تكون هجمته الكبرى المباغتة؟ واستصوب الرأي الأخير، خاصة وهو لا يحمل أي سلاح، فتسلل يغادر القاعة السرية مقتفيًا أثرهم إلى حجرة المعمل الجنوبي، وهناك. وكما فعل منذ عدة أيام. أخذ ينصت لما يدور بالمعمل من

t.me/qurssan

خلف دولاب البياضات .

وتناهى إليه صوت مرزوق يخاطب الدكتور حليم في وعيد، ولسانه يطنُّ بين فكيه، بينما شفتاه تقطران سمًّا :

. والآن يا دكتور.. أين النوتة الزرقاء؟

همهم الدكتور في وهن :

. قلت لك إنني قد تركتها على.. هذا.. الرف .

تغيرت لهجة مرزوق فأضحت تتقد نارًا :

. أنصت إليَّ يا رجل.. ليكن في علمك أنني سأحصل على النوتة التي أريدها، بأي وسيلة كانت.. فإنني بعد أن سيطرتُ على الفيلَّا، واستوليت على كافة ما تضمه جدرانها، لم يعد ينقصني سوى النوتة.. لأنها تحتوي على تركيب الإكسير الوردي، الذي يُعتبر عصب التبريد وأهم أسسه.. لذا فالنوتة لازمة لي، ولن تفلت من يدي .

اهتز كامل في مكمنه، فقد كونت كلمات مرزوق مفاجأة ضخمة آلمته أشد الألم، إذن ففيلَّا الجبل واقعة في هذه اللحظة تحت سيطرة هذا الطبيب.. القاتل.. والهارب من السجن.. وأحس كامل بالشفقة والعطف على الدكتور حليم، الذي وقف يتلمس بعينيه الزائغتين منفذًا للنجاة، وإن كان على يقين من عبث محاولته .

وعاد كامل ينصت للحوار المتسلل من خلف الدولاب، فتناهى إليه صوت الدكتور يقول متهربًا :

. ولِمَ لا تحاول معرفة التركيب بنفسك.. ألست عالِمًا كما تدعي؟

فانطلق صوت مرزوق الغاضب :

ـ أنت على ثقة أكثر من غيرك بأنني عالِم، وقدير أيضًا، فقد ساعدتك في العديد من بحوثك وتجاربك.. بل إن لي بعض المبتكرات كذلك .

t.me/qurssan

. إذن، فهاك صندوق زجاجات الإكسير معلق أمامك.. فتناوَلْ منه زجاجة، وحلِّل محتوياتها، تصل لمبتغاك !

وبدا أن صبر مرزوق قد نفد، فقد صرخ قائلًا :

. قلت لك لا وقت لديَّ للهذر والمراوغة.. فإما أن تعطيني النوتة.. وإما.. أقتلك .

تساءل الدكتور في يأس :

. وبماذا يفيدك موتي؟

أجاب مرزوق :

. على الأقل تلحق بذلك الصحفي الأفَّاق.. فأتخلص نهائيًا من أي معارضة للمشاريع الخاصة بي.. فإنني أيضًا لي آمالي وأهدافي .

تمتم الدكتور :

. مشاريعك الإجرامية .

. سمِّها ما شئت.. المهم أنني سيد الموقف أخيرًا، بعد أن فاض بي طيلة السنوات العشر الماضية .

. وماذا وجدتَ لديَّ خلاف الراحة والأمان.. هه؟ ألم أَحمِك وآوِك وأُتِح لك كل سبل الاستقرار، أنت القاتل الهارب من يد العدالة؟

قال مرزوق في حقد :

. لقد عملتُ لديك كخادم.. أجير.. حقير.. مع أنني طبيب مثلك وشهاداتي لا تقل عن شهاداتك ...

. وما ذنبي أنا؟ إن مقتضيات التخفي هي التي فرضت عليك هذا الأسلوب بعينه في طريقة العيش ...

ولكن مرزوق استرسل :

. لقد عاملتني على الدوام كتابع، يأتمر بأمرك، ويتحرك لمشيئتك، ولم تُشعرني مطلقًا بأنني إنسان له مشاعره وكيانه.. لم تعطني

t.me/qurssan

حقي كندٍّ لك .

وهنا انفجرت ثورة الدكتور عارمة، بالرغم من حشرجة صوته ولهاث أنفاسه :

ـ أقسم إنني ما رأيت على امتداد عمري مَن هو أكثر جحودًا ونكرانًا للجميل منك.. فقد أعماك حقدك حتى نسيتَ ما قدمتُه لك منذ مجيئك من عطف ورعاية ومودة .

ورد مرزوق بانفعال :

. وأنا سددت لك ما يفوق كافة ديونك عليَّ .

. كيف.. هه؟

أجاب مرزوق :

. ألم أتحمل على عاتقي جَلْب مرضاك الميؤوس من شفائهم إلى فيلَّتك، ثم العودة بجثثهم إلى المستشفى ثانية.. وقد مات بالفعل كل من أحضرتُهم وأجريتَ عليهم تجاربك؟

تمتم الدكتور :

. إنك تُذكرني بالفترة المجنونة في سلسلة بحوثي.. وقد انطوت هذه إلى غير رجعة .

وتابع مرزوق كلماته المحمومة :

ـ ثم.. ألم أتحمل وحدي مسؤولية التخلص من عالِم المرصد بقذفه إلى الهوة؟

. رشاد! أنت فعلت ذلك؟

ـ أجل أنا.. حتى أريحك من مراقبته لنا، تلك التي أوشكت أن تفضح أعمالنا .

قال الدكتور بهلع :

. ولكني لم ...

t.me/qurssan

فقاطعه مرزوق ساخرًا :

. وهل كنت أنتظر إشارتك في أمر حيوي كهذا.. لقد بادرتُ بفعل ما رأيته صوابًا وفي صالحنا .

واقترنت الدهشة بالغضب في نبرات الدكتور :

. تقتل رجلًا بجانب مسكني.. ودون علمي؟

قال مرزوق في خيلاء :

. وكدت أقتل كامل كذلك.. حتى لا أتيح لك فرصة إحضاره إلى هنا.. إلى الفيلَّا.. ووضعه في نظامك الرجل التالي لك مباشرة بدلًا مني .

وبدا الحرج عميقًا في صوت الدكتور، وهو يتكلم مدافعًا عن نفسه أمام حجة مرزوق في شيء من التردد :

. أنا لم أفضله عليك و.. لكن.. حسن، إن عمله يختلف عن عملك ...

فقاطعه مرزوق بعصبية :

ـ آه.. نفس الأسطوانة المعادة.. رجل فكرٍ.. وإدارة.. ودعاية.. وإنسان حر.. ويعمل بضميره.. وذواقة للعلم.. وإن كان هو، في حقيقة أمره، شخصًا عاديًا، لا يطوي شيئًا مما تنعته به .

ـ ولكنه صاحب مبدأ، وهو يتمسك بمبدئه في شجاعة تدعو للإعجاب .

. أرجوك.. كفاك دفاعًا عنه فإنني على بينة بالسبب الخفي لتعلقك به ...

واضطرب صوت الدكتور :

. ماذا.. تقول؟

بينما صرخ مرزوق في لهجة آمرة :

t.me/qurssan

. يا أبا غنيم ...

فتعالى صوت همهمة بعيدة عن الآدمية، في حين تابع مرزوق بنفس اللهجة الآمرة :

. راقب الدكتور جيدًا يا أبا غنيم، ولا تدع حركة من حركاته تغيب عن بصرك.. أفهمت؟

وللمرة الثانية تعالت الهمهمة تعوي بين الجدران الصماء، وكأنها خوار ثور ذُبح بسكين غير مسنونة، وتملّك كامل الفضولُ ليرى مصدر الهمهمة ولمن يوجه مرزوق أوامره، فدفع جسم دولاب البياضات الذي يسد منفذ الممر بهدوء قدر بوصة واحدة، ولكنْ كان في فعلته فصل الخطاب .

لمحت عين مرزوق حركة الدولاب الهينة، وعلى الفور ترجمت لخلايا مخه المعنى الكامن وراء هذه الحركة، فتأهبت لملاقاتها بقية خلاياه، على أن الرجل استطاع أن يتحكم في مشاعره وهو يتقدم في تؤدة من الدولاب، ويمد يده ليفتحه على اتساعه كاشفًا عن كامل الواقف خلفه .

. إذن فقد وفرت علينا مشقة دعوتك لتشريفنا بالاشتراك في أداء المسرحية الطريفة التي تدور هنا .

وخرجت الكلمات قسرًا من شفتَي كامل :

. تعني مسرحية أَسَر الدكتور واحتلال فيلّته .

وابتسم مرزوق فزاد قبح وجهه، ولكنه تغاضى عن تلميح كامل، واكتفى بأن أشار إليه في حركة هازئة ليتقدم، وهو يقول :

ـ تفضل يا أستاذنا لتنضم إلى جوار الدكتور.. الممثل الأول، البطل.. وحاذر أن تأتي بحركة مريبة، فإنني لن أرحم أحدًا .

ودون أن ينبس بحرف، خطا كامل إلى الداخل، ولأول مرة شاهد الحاضرين بالمعمل في وضوح. كان الدكتور حليم يقف في مواجهة مرزوق بجوار المنضدة الواطئة، وقد ارتدى منامة بنية

t.me/qurssan

داكنة عليها سترة قديمة يعلوها شاله المعهود، بينما انتعل خفًا صوفيًا، مما يدل على أنه أُخِذ على غرة، فاعتُقل أثناء نومه، كذلك بدت على هامته المنحنية، وذراعيه المتدليتين في استرخاء، علامات التعب والإرهاق الشديدين. ووقف خلف الدكتور أحد الرجلين اللذين سبق لكامل مشاهدتهما لدى فرن صهر المعادن خلال جولته الأولى بالممر المنحوت في الجبل، وكان كلٌ من مرزوق وتابِعه يرتدي رداء أبيض، من تلك التي تُستخدم أثناء إجراء التجارب .

وحين أخذ وقفته بالقرب من الدكتور، شاهد مرزوق يمد يده إلى جيب الرداء الأبيض ليُخرج صورة فوتوغرافية لامعة راح يقربها ببطء من وجه الدكتور، وكأنه يتعمد إثارته وإيلامه. ولدهشته لحظ شحوبًا شديدًا يعتري وجه الدكتور، حتى حاكت ملامحه وجوه الأموات، وبدا عليه أنه يبذل جهدًا خارقًا حتى لا يترنح ويسقط، وتحشرجت الكلمات في حلقه :

. من.. أين.. أخذتها؟

ارتسم الانتصار في أعماق نظرات مرزوق الشريرة، وقال في خيلاء :

ـ إذا كنت تظن أن هناك ما يمكن إخفاؤه عليَّ، فأنت واهم يا دكتور .. إن مرزوق يغمض عينيه أحيانًا.. ويبعد عن مسرح الأحداث أحيانًا أخرى.. ولا يتكلم في معظم الأحيان.. ولكن ثق أنه يرقب كافة ما يدور حوله في صمت، فلا يفوته أي شيء.. مهما تَفِهَ .

عاد الدكتور يلحُ في السؤال :

. ولكن كيف وصلَت إليك؟

قال مرزوق :

ـ تريد الصراحة.. كنت أعبث منذ حوالي الشهر بمحتويات خزانتك، فعثرت عليها.. ولقد خُيل إليَّ في المبدأ أنها صورته ...

t.me/qurssan

قالها وهو يومئ برأسه تجاه كامل، ويقترب منه وهو يضيف :

. انظر.. أليست تحمل نفس ملامحك؟

وحدَّق كامل في الصورة، فرآها تشبهه بالفعل إلى حدٍّ كبير. بينما استرسل مرزوق وهو يسحب الصورة، ويعيد إلقاءها تحت بصر الدكتور :

ـ ولكنْ لا.. لقد كانت مفاجأة ضخمة لي حين قرأت الإهداء المكتوب خلف الصورة، فإذا بها لأخ لك يا دكتور يصغرك ويُدعى «إمام صبرون».. وحين قرأت الكلمات التي دونتها بخطك تحت إهداء أخيك، عرفتُ المأساة التي حاولت أن تخفيها عليَّ.. بل علينا جميعًا طيلة سنوات وسنوات، عرفتُ أن أخاك إمام قد تُوفِّي غريقًا على شاطئ الإسكندرية عام 1939، أي منذ 12 سنة.. وقد أشعرَتني كلماتك التي تقطر لوعة وأسى أنه كان أثيرًا لديك، محببًا إلى قلبك، ومن هنا تيسر لي أن أربط بين الأصل والشبيه.. أعني بين صاحب الصورة المرحوم، وبين شبيه الصورة لدرجة مذهلة، كامل بهنسي.. ثم تكشفَت الأمور أكثر، فتمكنتُ من تأويل الأسباب الكامنة وراء دعوتك الشاذَّة لشخص غريب مثل كامل ليقيم بيننا، وبحجة واهية هي تدوين المجلد الثالث من سجل أعمالك، وكان في مقدور أيٍّ من المقيمين بالفيلَّا أداء هذه المهمة اليسيرة.. ثم اتضحت بعدئذ بقية تصرفاتك.. انسياقك لأحاديثه والمناقشة معه بحرارة، وشغفك بآرائه وتحاليله ووجهات نظره، أنت الذي كنت تضنُّ بإضاعة وقتك حتى على مائدة الطعام.. ثم والأهم من كل ما ذكرت.. تحمُّلك الفائق لتطاوله عليك، ومعارضته ونقده المُر للكثير من تصرفاتك، أنت الآمر الناهي الذي لم تكن تتحمل من أيٍّ منا أقل خروج على أبسط رأي لديك.. بل إنه حتى.. حين فرَّ مع زين، وكاد ينجح في الإيقاع بنا، سرعان ما غفرت له ورحت تتلمس المعاذير لفعلته، وانطلقتَ تساومه في حجرة سجنه أن يترك زين في سبيل عفوك عنه وإخلائك لسبيله ...

وهنا انفجر الدكتور صارخًا في مرزوق :

t.me/qurssan

. كفى.. كفى ...

وراح الدكتور ينشج وهو يهتز في عصبية وانفعال بالِغَين :

. كفاك.. لقد حطمتني.. إنك شيطان.. أناني.. متجرد من الشعور والعواطف .

وبدا الانفعال على قسمات مرزوق ممتزجًا بالنشوة الفائقة وهو يراقب انهيار الدكتور حليم وانسياقه لأحزانه، في حين على العكس شابت وجه التابع، أسمر البشرة، علامات الحيرة وعدم القدرة على استيعاب المأساة التي تقع أمامه .

وترنح الدكتور، وقد غشيت عينيه سحابة قاتمة، على أنه مدَّ ذراعه يتكئ بها على حافة المنضدة الواطئة، وفي بطء ووهن استجمع قواه وجلس فوق حافتها، وهمس وهو يطرق برأسه الأصلع إلى الأرض :

ـ أجل.. لقد آثرت كامل بعطفي وإعجابي ومودتي.. ليس لأنه يشبه أخي المرحوم إمام في الملامح فحسب، وإنما لأنه يماثله في جميع تصرفاته، حتى طريقة كلامه وتفكيره.. إنه صورة مجدَّدة للمرحوم، بكل ما كان يحتويه من طاقة وحيوية .

وتململ كامل في وقفته بجوار الدكتور، وقد شُل تفكيره كُلِّيَة تحت وطأة المفاجأة وهول عذاب الضمير. فقد كان مجحفًا بالفعل في تحامله على الدكتور، وكان حكمه . أخذًا بالظواهر . تسرعًا منه. بدت قسوته وفظاعته شديدة الوطأة على مشاعره .

وانتزعه صوت الدكتور بقوله :

. غير أنني كنت سأغفر له لو وعدني بترك زين.. بالابتعاد عنها.. بل.. وربما ...

وتحول الدكتور يتطلع في عينَي كامل بعاطفة جياشة :

. أجل كان من الممكن لو طاوعتَني وبادلتَني عاطفتي أن أتركها لك.. أن أتنازل عن حبي لزين من أجلك أنت.. كان من الممكن أن

t.me/qurssan

أسحق قلبي وأنتزعه انتزاعًا في سبيلك يا أخي.. الأصغر.. الحبيب ...

لكن مرزوق انتفض، ولوح بيديه معًا في استهجان :

. أبدًا.. مُحال.. إن زين لن تكون لواحد منكما.. إنها فتاتي أنا ...

وبُهت الدكتور :

. زين ...

وأُرتِج على كامل :

. أنت؟

قاطعهما مرزوق في عاطفة ملتهبة تتنافر مع دمامة وجهه، ووحشية خلقه :

ـ أنا أيضًا أحببتها.. ولِمَ لا أحبها بدوري.. أليست لي مشاعري وأحاسيسي وقلبي الحاني.. لقد أحبَّها كلٌّ منا.. ثلاثتنا.. ولكني وحدي الذي سأفوز بها دونكما.. والآن عجِّل بإعطائي النوتة يا دكتور .

. سأعطيك النوتة يا مرزوق .

. إليَّ بها .

قال الدكتور ببرود :

. إنني أنشد في مقابل ذلك حرية زين.. وكامل .

تمتم مرزوق في عدم فهم :

. ما هذا الهراء؟ أتنقاد لعواطفك، وأنت رجل العلم الذي يجب أن يُحكِّم عقله لا قلبه؟

قال الدكتور بحزم :

. لقد انقدتُ لعقلي على الدوام.. فلا بأس من الإنصات لنداء قلبي

t.me/qurssan

مرة واحدة.. اسمع، هي كلمة.. امنح الاثنين حريتهما، أمنحك سر تركيب الإكسير .

. على أي كيفية؟

. دعني أوقف عمل جهاز التبريد الذي يحتوي زين وأعيدها إلى حالتها الطبيعية.. ثم نتركها تغادر الفيلّا برفقة كامل.. وحينئذ ...

قال مرزوق في فزع يقاطع الدكتور :

. سوف يُخطران الشرطة .

. في استطاعتنا أَخذ التعهدات الكافية عليهما.. وأيضًا ألست أنا رهينة لديك؟

خيم صمت رهيب.. فركز كامل نظراته يراقب تعبيرات وجهَي كلٍّ من الرجلين.. ورأى مرزوق يدير رأسه فيما حوله، ويلعق شفتيه في حيرة وعبوس.. بينما شاهد الدكتورَ يجلس في استرخاء على حافة المنضدة، قد علق بصره على مرزوق، واتكأ بيده اليمنى وسط المنضدة يسند جسده المكدود حتى لا يسقط إعياءً. وبدا وجه الدكتور جافًّا باهتًا، قد تورمت عيناه، وبرزت الأخاديد بطول جبهته وحول عنقه، كذلك ظهر كيسان منتفخان قاتما الاحمرار أسفل عينيه، كأنهما حاجبان مقلوبان بدلًا من حاجبيه المفقودين.. على أنه لحظ شيئًا مثيرًا يكمن في أعماق هاتين العينين المرهقتين.. لحظ ومضة خبيثة دفينة تتحفز معها كل أعصاب الدكتور المتوترة. وضبط الدكتور يتحرك ...

وراقب كامل ذراع الدكتور في يقظة أكثر، وتأكد مما التقطت عيناه الحادتان: كان الدكتور يحرك ذراعه بالفعل في غفلة من مراقبيه تجاه السيخ الحديدي المدبب، الموضوع على الطرف الآخر للمنضدة، إذن فالرجل على ثقة من أن مرزوق لن يحترم أي اتفاق، وإنما هو يهدف إلى كسب الوقت حتى يجد السانحة المناسبة لينقضَّ عليه وعلى تابِعه فيصرعهما. ومطَّ كامل شفتيه في أسى، فقد كانت كفة الرجلين هي الراجحة دون شك، ولكنْ هل نسي نفسه؟ إنه سيتقدم لنصرة الدكتور حتمًا متى بدأت

t.me/qurssan

المعركة، وربما قلب تدخله المفاجئ ميزانها لصالحه، لصالحه هو وأخيه الأكبر حليم صبرون !

وقطع مرزوق حبال الصمت يقول في خشونة :

. عليَّ أن أتأكد أولًا من وجود النوتة، وهل هي سليمة أم لا .

. موافق ...

. أرِها لي .

قال الدكتور في لهجة خلت من أي مغزى، وهو يومئ بإصبع يده اليسرى السبابة تجاه دولاب الأدوات الجراحية :

. إنها ترقد أسفل لوحة المشارط ...

وتحولت الأنظار في الحال لتستقر على الدولاب ذي الواجهة الزجاجية، ولكن الأمور تلاحقت في الثواني التالية بسرعة مذهلة، فاقت سرعة تحرُّك الأفكار بين جنبات عقل مرزوق الضيقة، فقد تأوه التابع فجأة في فحيح مريع وانهار متكورًا على الأرض، والسيخ الحديدي الذي قذفه به الدكتور يتوسط صدره، وفي نفس الوقت انقض الدكتور دون هوادة، ومع الفارق بين بنيان بدنه وبدن غريمه مرزوق، ينطحه في ظهره، وكان الأخير في نصف استدارة ملقيًا باله إلى حيث تختفي النوتة المزعومة، وانكفأ مرزوق قليلًا إلى الأمام، غير أن بدنه الثقيل ساعده على استرداد توازنه والاستدارة ليواجه الدكتور، وعيناه تقدحان شررًا ومقتًا دفينًا، وتمتم مرزوق في غيظ، وهو يتقدم من الرجل اليائس الذي راح يتراجع بدوره إلى الوراء :

. أيها المخادع، تريد أخذي على غرة.. كما تريد، فقد كنت أنتوي قتلك سواء حصلت على النوتة أم لم أحصل عليها .. فلا يعقل أن أترك زين تتسرب من يدي لأجل عينيك .

وسكت مرزوق وانقض، فقفز الدكتور جانبًا .

وانقض مرزوق ثانية بكل قواه، وانحرف الدكتور متجنبًا ركلته

t.me/qurssan

العنيفة، ومقتربًا في نفس الوقت من دولاب الأدوات الجراحية، وبغتة قذفه الدكتور بأحد الكراسي، ثم انحنى وأطلق قبضته اليسرى في زجاج الدولاب ليُحدث فيه فجوة صحبها دوي تهشم الزجاج، وفي ثانيتين، انتصب الدكتور وقد قبض بيمناه على مشرط مرهف السن، في حين استقرت في راحة يده الأخرى الدامية نوتة زرقاء صغيرة .

وكف مرزوق برهة عن التحرك وهو يلهث إزاء تحفز الدكتور وتسلحه بالمشرط، وإن كان قد أخذ هو الآخر يلهث ويسعل في إعياء واضح، وببطء اقترب مرزوق من جثة تابِعه، وانتزع من بين أضلعها السيخ الحديدي الملطخ بالدماء، ثم خطا يعاود الانقضاض الوحشي على الدكتور، وقد انتفخت أوداجه وعلا الزبد شدقيه، فأصبح حيوانًا مفترسًا أعماه الغضب من مراوغة ضحيته وعدم النيل منها .

ولم يتبين كامل ما الذي حدث بعدئذ على وجه التحديد حين التحم في العراك ليحتويه بعنفه ووحشيته، فقد مرق إلى حيث أصبح يتوسط حجرة المعمل، وكانت ضربة موفقة من هراوة استقرت بيده، دون أن يدري من أين التقطها، أصابت رأس مرزوق فرجَّته، ثم ضربة عشواء من مرزوق استقرت في وسط زجاج الدولاب المعلق، الذي يحتوي زجاجات الإكسير الوردي، وانسكاب محتويات أكثر من زجاجة متطايرة على أرضية المعمل، ثم سقوط الدكتور فاقد الوعي على يمينه .

وساد السكون برهة، لا يقطعه سوى لهاث الأنفاس، ثم عادت الضوضاء بضربتين منه أصابتا مرزوق في جنبه، وضربتين من مرزوق خدشت إحداهما أذنه، وهشمت الثانية أحد الفانوسين المعلقين بالحجرة، ثم اندلعت النيران.. زأرت قوية، وتصاعد الدخان من حولها كثيفًا .

وفزع مرزوق، فانطلق يتلمس سبيل الفرار في جنون، وتبعه كامل دون هوادة، بعد أن التقط المجلدات الثلاثة لأعمال الدكتور حليم بين ذراعيه .

t.me/qurssan

وعدا مرزوق إلى الممشى الخارجي، وهناك انكفأ على وجهه، إثر إصابته بضربة قوية في ظهره ورأسه بالمجلدات، ولكن كامل سقط بدوره إثر تعثره في قطعة أثاث ملقاة على الأرض .

ولم يتحرك مرزوق، بينما التقط كامل المجلدات الثلاثة ثانية، وراح يزحف مبتعدًا عن النيران بكل جهد وطاقة متبقية لديه .

ودوى انفجار مُروع على غير انتظار.. وتطاير كل شيء في الهواء .

وفقدَ كامل وعيه .

t.me/qurssan

3

بدت الردهة الضيقة تكاد تلفظ الرجال الخمسة الذين التفوا جلوسًا حول منضدة مستديرة تتوسطها، وكان أربعة من هؤلاء الرجال يتبادلون الحديث همسًا في اهتمام شديد، في حين راح خامسهم يدوِّن بسرعة كل كلمة تتقاذفها شفاههم الملتحمة عن قرب .

وكانت أنظار الرجال الخمسة تتعلق بين الفينة والأخرى بباب مجاور، كلما تناول حديثُهم شخصًا بالذات يرقد خلف هذا الباب، أو كلما فتحته السيدة البدينة صاحبة الدار، عابرة من خلاله في رشاقة لا تتناسب مع كتلة بدنها، وهي تحمل بعض الأدوات الطبية. كذلك كانت هناك وجوه عدة متسائلة تتطلع عن بُعد، من أقصى ممشى ضيق يتصل بالردهة، نحو الرجال المجتمعين، وهي تحصي عليهم كل حركة أو إيماءة تبدر منهم. وكان ثلاثة من الرجال الخمسة يمثلون قمة عين الأمن الساهرة في حلوان، أحدهم وكيل النيابة وهو شاب حديث السن، حديث التخرج، أسمر الوجه، وضابطان من ضباط شرطة المباحث الجنائية: أولهما برتبة صاغ وهو طويل القامة، تُزين شعره خصلة بيضاء ظاهرة، والثاني برتبة يوزباشي، وهو أقصر من زميله، ينطق وجهه بدهاء شديد. ثم الرجل الرابع، وكان صولًا كاتبًا لتدوين محضر التحقيق، الذي يدور الحوار لملء بياناته، وأما الخامس فقد كان رؤوف، صديق كامل .

وتقدمت الست فردوس، صاحبة الدار، من الحاضرين، تضع أمامهم أقداح القهوة، بينما انطلق صوت رؤوف، قوي النبرات، يتكلم وهو يشد من قامته بداخل الحُلة الفاتحة المتسعة عليه من جوانبها :

. أعتقد أنه ليس لديَّ ما أضيفه إلى أقوالي السابقة في محضر الأمس، فإن كامل بالرغم من صلة القرابة التي تربطني به.. والصداقة التي تجمعنا.. قد انقطعت أخباره عني كما ذكرت لحضراتكم منذ صمم على الاشتراك فى بحوث الدكتور حليم،

t.me/qurssan

وولجَت قدماه أعتاب فيلّا الجبل ...

واعترض أكبر الضابطين سنًّا وهو الصاغ :

. ولكنك أشرت قبلًا إلى اتفاق لتبادُل الرسائل بينكما .

أجاب رؤوف :

. هذا صحيح.. وفحوى الاتفاق أن يتسلل كامل كلما سنحت له الفرصة، فيسلم رسالته إلى نور حارس المرصد، ليقوم بدوره بتسليمها إليَّ.. ولكنْ للأسف لم تصلني منه ولا رسالة عن هذا الطريق.. وحتى ذلك الخطاب الذي بعثته له بالبريد على الفيلّا لم يصلني الرد عليه مطلقًا .

تساءل وكيل النيابة وهو يتفحص مُحدثه :

- أوَلم يُثِر عدم وصول رسالة من صديقك، طيلة هذه المدة، تساؤلًا في نفسك يا أستاذ رؤوف، بأنه ربما كان يعاني بعض المتاعب.. كأن يلقى معاملة سيئة منهم.. أو كان معتقلًا مثلًا؟

وبدت الحيرة على وجه رؤوف :

- لا أبدًا.. وإلا لحاول الهرب.. ثم إنه كان على لهفة كبيرة يوم أبلغني قراره بالذهاب للعمل في الفيلّا، فالفضول كان يتملكه حيال بحوث الدكتور بصورة لا تقاوَم.. كذلك زين كانت هناك، وكيقينٍ لديَّ فإنه كان مهتمًّا بها كثيرًا .

ابتسم وكيل النيابة :

. تعني يحبها؟

. أظن ذلك .

ومد وكيل النيابة يده يعبث في مجموعة من الأوراق استقرت قبالته على المنضدة، وهو يلقي بسؤال غير مباشر :

. من المعاينة والبحث الدقيق الذي قمنا به.. رجالُ الشرطة وأنا.. لمكان الانفجار في الفيلّا، وخلال أنقاض الحجرات التي أتى عليها

t.me/qurssan

الحريق.. ومن تفتيش جثة مرزوق والأشلاء المتناثرة للدكتور وسواه، والتي صَعُب التعرف على معظمها، فإننا لم نعثر قَطُّ على أي دليل يشير إلى طبيعة البحوث التي كانت تجري في ذلك المكان الغامض.. فهل لديك فكرة عن ماهية بحوث الدكتور حليم صبرون؟

قطب رؤوف جبينه :

. لا بالمرة ...

. وكامل.. ألم يخبرك بشيء؟

. مطلقًا.. فإنه، حتى لآخر لقاء بيننا قبيل ذهابه للفيلَّا، كان يجهل مثلي حقيقة هذه البحوث .

تناول وكيل النيابة مظروفًا من بين الأوراق، أخرج منه بقايا محترقة لنوتة لها مغلَّف أزرق متآكل، أدناها بحرص من رؤوف، وقال ببطء :

. كما هو ثابت لدينا، فقد كان نور الحارس النوبي أحد أول اثنين سمعا صوت الانفجار ووصلا إلى مكان الكارثة.. وقد عثر نور على بقايا هذه النوتة ملقاة بجوار جثة مرزوق. وكما ترى، فهي مليئة بالمصطلحات والرموز الحسابية المبهمة.. فهل لديك معلومات عن محتوياتها يا أستاذ رؤوف؟

وحدق رؤوف في الوريقات الصفراء المشوهة برهة، ثم هز رأسه نفيًا دون أن يتفوه بحرف، في حين تدخَّل اليوزباشي في الحديث لأول مرة، فقال وهو يربت بيده على فخذه بحركة لاإرادية :

ـ لقد كان الانفجار من العنف بحيث أدى، علاوة على الحريق المروع، إلى انهيار جزء كبير من الجبل على الفيلَّا.. فهل تطرَّق إلى سمعك ذكر نوع من المفرقعات يستخدمه الدكتور في تجاربه؟

أجاب رؤوف :

t.me/qurssan

ـ لا.. وإن كنت أرجح أن الدكتور ربما نقل واحدة من أنابيب الأكسجين التي يستخدمها في مستشفاه إلى هناك.. ثم لأمرٍ ما تَسبب الأكسجين في الانفجار .

فقال الصاغ :

ـ حسب علمي.. أنبوبة الأكسجين ليست لها كل هذه القوة التدميرية .

وأضاف اليوزباشي :

ـ كما أن الدكتور حليم قد أغلق مستشفاه منذ أكثر من شهر مضى .

ـ أغلق المستشفى !

قالها رؤوف في دهشة لم يستطع إخفاءها .

ـ أجل ودون سبب معلوم .

وفي هذه الأثناء فُتح الباب المجاور، وبرز منه الطبيب والسماعة مدلاة حول عنقه، واقترب منهم بخطوات متزنة، وقد انطبعت على أسارير وجهه المكتنز المستدير علامات تدل على التفاؤل .

قال :

ـ والآن يا سادة.. يمكنكم مقابلة المصاب والتحدث معه .

همس الصاغ وهو يتقدمهم تجاه الباب :

ـ ألا ترهقه ساعة من الحديث يا دكتور.. فلدينا أسئلة واستفسارات متعددة .

فأجاب الطبيب في بشاشة :

ـ بل يمكنكم التحدث معه فترة أطول لو شئتم، فإني على ثقة من أنه بخير .

t.me/qurssan

وعبرت الأقدام اللهفى إلى الداخل في شيء من التزاحم لتلتف حول الفراش الخشبي الصغير، وقد توسطه كامل، تحيط برأسه وبذراعه وساقه اليُسريين لفائف من الشاش الأبيض تفوح منها رائحة المطهر النفاذة. وبينما راحت عيون القادمين تتفحص الجسد الناجي بمعجزة من براثن الانفجار، كانت عينا كامل تراقبان بدورهما وجوههم واحدًا وراء الآخر، حتى استقرتا على قسمات رؤوف المألوفة والمحببة إليه .

همست شفتا كامل :

. أنت هنا.. بجواري ...

تمتم رؤوف وهو يحتضن اليد الممدودة نحوه :

. حمدًا لله على نجاتك وسلامتك من الكارثة .

وخيمت فترة من الصمت أبلغ من كل كلام، وزاد الرباط الروحي الذي يجمع القريبين الصديقين تألقًا وانسجامًا، بعد أن ألهبته لوعة الفراق :

. وهل نجا الدكتور حليم؟

. لم ينجُ الدكتور .

. مسكين.. لقد كانت أفكاره تسبق عصره.. وكانت عقليته الخارقة أكبر من قدراته.. كان طموحه وآماله العراض أبعد من أن يتطاول بمفرده، ولا بمعونة رجاله العاطلين عن الموهبة، على تحقيقها.. ومرزوق؟

. قُتل هو الآخر .

بدا التردد في نظرات كامل قبل أن يجرؤ على التفوه في ضعف :

. ولكن زين لم ...

على أن رؤوف استدار يستنجد بوكيل النيابة الذي شق طريقًا بين رفاقه، واقترب من الفراش ليجلس على حافته، ويقول في

t.me/qurssan

صوت حاول أن يجعله حانيًا :

. المهم يا أستاذ كامل أنك الآن سليم معافى .

. زين.. أين هي؟

وهمس الرجل، وهو يربت على الساق المصابة التي تلامسه :

. في الحقيقة فإن أحدًا سواك لم ينجُ .

تمتم كامل في حيرة :

. مستحيل !

في حين استطرد وكيل النيابة :

. لقد مزق الانفجار كل شيء.. ولم يتبقَّ سوى دمار فظيع شمل كل ركن في الفيلَّا.. خاصة مكان الانهيار .

. أي انهيار؟

. ألم أخبرك.. لقد انهار جزء من الجبل على مؤخرة الفيلَّا نتيجة للضغط الهوائي الذي تولَّد عقب الانفجار .

وعاد كامل يردد في حيرة أعمق :

. ولكن زين لم تكن في نفس الفيلَّا ...

. أين كانت إذن؟

قال كامل في وهن :

. معهم.. في «قلعة النائمين ».

وبدا عدم الفهم على الوجوه الجامدة المترقبة، وتساءل واحد من الرجال الخمسة :

. وأين توجد ما تطلق عليها «قلعة النائمين» هذه؟

فأجابهم كامل في دهشة، وقد ظن أن الجميع ولا بد يعرفونها ما

t.me/qurssan

دام هو يعرفها :

. إنها بالداخل.. فيما وراء الانهيار في قلب الجبل .

وتطلعت الوجوه إلى بعضها البعض، وقد داخَلها شك كبير، فلم يجد كامل مناصًا من التحدث إليهم في صراحة، ليخبرهم خلال ساعة حافلة مثيرة بكل ما مر به منذ وطئت قدماه فيلًا الجبل، حتى تفجرت في المعمل الجنوبي زجاجات الإكسير الوردي شديد الاشتعال. وكان كلما أوغل في الحديث ازدادت وجوه الحاضرين عبوسًا، وقلَّ الحماس المرتسم عبر قسماتها ليحل محله مزيد من البلادة والاستنكار .

قال الصاغ أخيرًا في ضجر :

. تجارب على التبريد.. تبريد البشر.. وقاعة خفية في قلب الجبل.. وأناس مجمَّدون بينهم زين.. إن ما تقوله أبعد ما يكون عن التصور .

وسخر اليوزباشي في أَنَفة :

. كل هذا حدث في مدينتنا الهادئة حلوان، ولم يدرِ به أحد؟ إذن فأين كنا نحن؟

وعاد الصاغ يحسم الموقف بقوله :

. اسمع يا بني.. اعذرني.. لعدم تصديق قصتك الغريبة ما لم يقم الدليل عليها .

وجَّه وكيل النيابة الكلام لرفاقه :

ـ وكذلك فلا بد لنا يا سادة من تركه فترة أخرى.. للاستجمام والنقاهة .

وأمَّن الجميع على قوله، وهموا بالتحرك وترك الحجرة الصغيرة التي يستأجرها كامل من الست فردوس.. لولا دمدمة يائسة تعالت فأوقفتهم :

t.me/qurssan

. انتظروا من فضلكم.. أعيروني سمعكم لحظة أخرى.. إنني أؤكد لكم أن كافة ما ذكرته لم يبتعد عن الحقيقة قيد أنملة.. وأن هذه هي بحوث الدكتور حليم الفعلية كما اطلعت عليها بنفسي، دون أي إضافة أو جموح لخيال مني .

فتساءل اليوزباشي بخبث :

. إذا سلمنا جدلًا بما تدعي.. فهل في مقدورك أن تخبرنا بالهدف الكامن وراء بحوث الدكتور العجيبة كما تُصورها لنا؟

همَّ كامل أن يُطلع محدثه على المعجزة الكبرى التي كادت تتحقق مع بداية «عصر حليم»، همَّ أن يخبره بمنجزات هذا العصر الساحر الذي يتركز أساسًا على التبريد، وهمَّ أن يفيض في وصفه حول ما كان ينتظر البشرية من تقدم حضاري مذهل لولا خسارة العالم بتلك الخاتمة المؤسفة التي انتهت عليها بحوث الدكتور وجهوده المضنية، والتي لن تعوَّض إلا بالسير في الدرب الطويل الشاق من جديد، علها تصل يومًا كما حدث وقاربت أن تبلغ ذلك في تلك الشهور الأولى من عام 1951. ولكن شيئًا مبهمًا جعل الكلمات تجف وتحتبس على طرف لسانه، فاكتفى بأن بلع ريقه في صعوبة وقال :

. المهم قبلًا.. أن أثبت لكم صحة كلامي بالبرهان الملموس .

وسألوه كلهم عن كيفية حصوله على ذلك البرهان، وماهيته.. وأين يوجد إن كان له وجود؟

فهز رأسه وهمس يجيبهم عن أسئلتهم المتلاحقة في بساطة :

. سأذهب معكم إلى هناك.. إلى أنقاض فيلَّا الجبل .

فاعترض رؤوف في وجل :

. ولكنك متعب و ...

قاطعه كامل، وقد التقط سترته وارتداها :

. لقد استرددت قواي بما يكفيني للتحامل معكم حتى نصل .

t.me/qurssan

وحاول الطبيب الذي استُدعي على عجل، وكذا الباقون، أن يثنوه عن الذهاب، لكنهم أخفقوا كلهم .

*

وصلت السيارات «الجيب» الثلاث متتابعة إلى مشارف السياج الذي يحيط فيلَّا الجبل بعد رحلة استغرقت ثلث الساعة، وغادر السيارات رهط من رجال الشرطة والأمن يضم بينه: كامل، والضابطين اللذين زاراه، ووكيل النيابة، والصديق رؤوف. وحين هبط كامل من السيارة الأولى، وبالرغم من سابق علمه بما ينتظره من رؤى، فإن المشهد الذي قابله أصابه بالدوار والغثيان، فقد كان الدمار الذي أحاق بالفيلَّا أضخم من أن يوصف. كانت هناك في المقدمة جدران متداعية متفحمة من أثر الحريق، ولا وجود لأي سقف أعلاها أو أثاث بداخلها، فقد أتت النيران على كافة ما قابلها، ومن بينها الكتب الثمينة بالمكتبة .

وفيما عدا الجدران السوداء التي كانت تكوِّن الحجرات الأمامية، فقد بدا كل شيء متداعيًا محترقًا وراء هذه الحجرات، ويكاد يتساوى بالأرض. أما خلفية الفيلَّا، ثلثها الأخير الملاصق للجبل، فقد استقر عليه هرم عالٍ بالغ الضخامة من الأحجار الثقيلة والأتربة وركام الصخر، يمثل الجزء المنهار من الجبل على الفيلَّا. كذلك امتدت آثار الحريق إلى الحديقة، فشملت أشجارها ونباتاتها، كما أدت إلى نفوق حيوانات التجارب، إلا ما تمكَّن منها من الفرار .

على أن اهتمام كامل جميعه انصب في الجزء المنهار من الجبل على مؤخرة الفيلَّا، ففي أعماق هذا الرديم الهائل من الصخر والحجارة يكمن الباب السري المؤدي إلى الممر الواطئ الضيق في قلب الجبل، وخلال الممر، على بُعد سحيق، تستقر القاعة المنشودة، المسماة بـ«قلعة النائمين».. والتي ترقد زين بها وهي في سبات التجمُّد .

ولكن كامل فشل تمامًا في تحديد مكان فتحة الباب السري، كما

t.me/qurssan

ذهبت جهود العمال وجند الشرطة الذين قاموا بالتنقيب خلال بقعة الانهيار إلى لا شيء، وحتى في اليوم التالي حينما استؤنف البحث، لم يعثروا على منفذ من أي نوع بالمرة .

ويومًا وراء يوم لم تكشف الجهود المبذولة عن أي جديد، ولم تؤدِّ إلى أي نتيجة شافية. وهكذا سرعان ما فترت همة الرجال، وانطفأت وقدة الحماس في صدورهم، وصدر الأمر ذات صباح بوقف عمليات البحث والتنقيب نهائيًا .

وأصبح من المألوف سماع بعض الهمسات تعزو إصرار كامل على قصته إلى وقوعه تحت وطأة الحادثة المروعة التي كادت تذهب بحياته، أو تعزوها إلى حب الظهور أو تغلُّب روح القصص والتأليف عليه، بل لقد جرؤت بعض الهمسات فاتهمته باختلال قواه العقلية، وأنه في حاجة أكيدة لاستجمام طويل بإحدى المصحات النفسية. وحين كان بعض الفضوليين يتساءلون عن حقيقة ما كان يدور بين جدران فيلَّا الجبل، كان يرد عليهم ذوو الرأي بأن الأمر لم يتعدَّ قيام الدكتور حليم بتجارب جراحية عادية على حيواناته، وأن الفيلَّا قد لحقها ذلك الانفجار الرهيب، الذي أطاح بها وبمن فيها، أثناء تجربة فاشلة .

ولكنْ هل فُقد الأمل في العثور على زين.. وانتشالها من براثن الجَمَد بـ«قلعة النائمين»؟ هل تلاشت كل بارقةِ رجاءٍ في إنقاذها؟ تلاشت وانطوت إلى غير رجعة في أعماق الغيب المقيت؟

ظلت الإجابة عن هذه التساؤلات الشبحَ المخيف الذي يخشى كامل لقاءه والاعتراف به، والكابوس الذي يؤرقه في يقظته ومنامه ويحطم معنوياته ببطء لحظة وراء لحظة. فقد كان على يقين، في أغوار نفسه، بأن أحدًا لم يعد يصدقه أو يثق في كلامه، ومن المحال أن يجد عطفًا أو أذنًا صاغية من إنسان. حتى صديقه وقريبه رؤوف أصبح يهيب به أن يترك منطقة الفيلَّا بما فيها نهائيًا، وأن ينأى بأفكاره كُلِّيَّة عن زين أو عما يربطه بها، خاصة وكل البراهين تشير إلى أنها قد لقيت حتفها في الكارثة .

وخلال أمسية يوم قائظ فى أواخر يونيو عام 1951، وفى مكان

t.me/qurssan

منزوٍ شاذ خلف سياج الحديقة بفيلَّا الجبل، حيث تراكمت الأتربة والأنقاض وبقايا النفايات المتخلفة عن الحريق، وحيث نمت الأعشاب البرية وجاست خلالها الحشرات والهوام وضواري الجبل، وقف رجلان يتجادلان في أسلوب حادٍّ عقيم .

كان الأول يرتدي ثوبًا متسخًا ممزق الأطراف، وقد استطالت لحيته وتهدل شعره في غير ترتيب، ويحتضن بين ذراعيه صندوقًا حديديًّا مربعًا يضم مجموعة من الأوراق، بينما كان الرجل الثاني يرتدي حُلة منسقة، وقد اتضح مظهره على النقيض من صاحبه من حيث النظافة والأناقة، على أن الرجل الثاني كان يبدو عليه الانفعال أكثر من رفيقه، لدرجة أنه نسي نفسه فجلس بحُلته الجديدة على جذع شجرة محترقة، وراح يتكلم في صوت متهدج مبحوح يتفجر بالغضب، وهو يُلوح بكلتا ذراعيه في عصبية جامحة منطلقة :

. أنا في الحقيقة لم أعد أفهمك يا كامل.. لم أعد أفهمك بالمرة.. وإلا فعلام إصرارك الغريب على أن زين لا تزال موجودة هنا على الصورة التي تسميها أنت بـ«سبات الجَمَد» مع أن كافة الأدلة والبراهين تثبت أن.. أنها قد لقيت حتفها .

صاح كامل وهو ينتفض :

. أي أدلة تعني.. ونحن لم نعثر على جثمانها قَطُّ؟ أي أدلة تسوق والانفجار لم يدمر سوى الفيلَّا؟ جزء من الفيلَّا فحسب.. أما القاعة ...

وقاطعه رؤوف في ضيق :

. عدنا إلى قصة القاعة ...

ولكن كامل استطرد ثائرًا :

. أرجوك ألا تقاطعني.. فإن قصة القاعة أو القلعة صادقة مائة في المائة، دون أدنى ريب.. وهي لا تزال توجد في مكانٍ ما بداخل هذا التل الشامخ من الجبل.. وأنا على ثقة أن القاعة لم تُمس بضر

t.me/qurssan

من الانفجار.. وعلى يقين لا يتزعزع بأن زين لا تزال ترقد مجمَّدة بداخل الجهاز «حليم رقم 4» وسط مجموعة المجمَّدين الآخرين بالقاعة المذكورة .

وخفتَ صوت كامل حتى قارب الهمس :

ـ وأقسم لك يا رؤوف إنني لست بهازل أو مخرف، فقد رأيتها بعينيَّ هاتين.. ترقد في مهابة.. وعظمة.. في جهاز التبريد بالقاعة قبل الانفجار بلحظات .

. لكنك لم تستطع الوصول إليها بعد الانفجار .

. وهذا ما يحطمني .

قالها كامل في تعاسة بالغة، ثم أسرع يضيف مكابرًا، وهو يبذل جهدًا خارقًا ليُبعد اليأس عنه :

. لكني باقٍ هنا.. وسأحاول دوامًا، وبكافة الوسائل، البحث عنها.. ولو بأظافري.. براحة يدي ولحم أصابعي، حتى تدمي وتتلاشى في سبيلها.. ولن أيأس بأي حال.. لن أتراجع أبدًا.. أبدًا .

واختنق صوت كامل بالعبرات وهو يتمتم :

. لن أتركها.. محال أن أجد الراحة والهناء وهي ترقد في هذه البقعة الموحشة.. وحدها ...

. وما الذي ستفعله مع رئيس تحرير المجلة التي تعمل بها؟

رد كامل في اقتضاب :

. لقد بعثت إليه باستقالتي منذ يومين.. كما قررت التوقف عن الكتابة في مؤلَّفي عن الفلك في مصر، وقد أخطرتهم في المرصد بذلك صباح اليوم ...

لم يتمالك رؤوف مشاعره، فانطلق يصرخ في صاحبه برغمه :

ـ أنت مجنون دون ريب.. ألم تفكر يا رجل في كيانك .. في مستقبلك؟

t.me/qurssan

على أن كامل، وقد أخذ يتأمل صاحبه بقلب مثقل حزين، قال في لهجة جادة واثقة :

- إن كياني.. ومستقبلي .. ووجودي هنا.. إن رسالتي الكبرى تنتظرني في مكانٍ ما وراء هذا الركام المنهار من الجبل.. حيث ترقد زين.. فلا بد لي، وقبل كل شيء، من إنقاذها .. لا بد يا رؤوف أن أثبت للكل.. للعالم بأجمعه أن روايتي صادقة، حين أنجح في إخراج زين بيديَّ هاتين من قلب «قلعة النائمين».. وإلا .. فبالله.. كيف تتصورها تفعل هذه الحبيبة المسكينة، حين يكف الجهاز الذي يبردها عن عمله بعد عدد لا يعلمه إلا اللّٰه من السنين؟ قل لي.. ماذا سيكون مصير هذه الغالية على فؤادي، حين تستيقظ من سبات الجَمَد فتجد نفسها محبوسة ضائعة بداخل القاعة الرحبة، وقد أحاطت بها أجهزة التبريد الأخرى، وبداخلها بقية المجمَّدين يرقدون في تصلب رهيب.. وصمتٍ قاتل.. بينما تشيع رائحة البرد، ويجثم سكون مطبق في كل ذرة هواء راكدة عبر عشرات السنين؟

إنني أتخيلها يا رؤوف تتحرك في تثاقل.. ثم تتجه نحو باب القاعة في رجاء .. فإذا نجحت في فتحه تسللت إلى الممر.. ولكنْ ماذا ستجد بعد ذلك؟ إن الصخور تسد بالطبع المنفذ الوحيد إلى النور .. إلى الحياة.. هل فهمت يا صديقي؟ هل اقتنعت الآن؟ إنها مهما صرخت ومهما أطلقت صيحاتها المدوية الملتاعة، فإن أحدًا لن يسمعها.. لن يمد إليها يد العون في محنتها الغريبة التي لم يسبق لها مثيل في الوجود.. وحينئذ سوف تقبع في مكانها وهي ترتجف حتى يقضي عليها الخوف المريع والجوع وقلة الهواء في نهاية الأمر.. تصوَّرْ.. بعد عدد من السنين ربما كان عشرًا، وربما تعدى المائة.. تستيقظ زين لتعود، فتموت بعد استيقاظها بساعات معدودات .

وصمت كامل ودفن وجهه بين راحتيه وراح يبكي بكاء مرًّا، بينما تمتم رؤوف في إعياء واستغراق شديد، وقد اتجه ببصره في نظرة غامضة نحو السماء :

t.me/qurssan

. لو صح ما تذكره.. يكون فيه انتقام رهيب من الزمن الذي تطاول عليه دكتورك.. كأن الزمن الذي أوشك الدكتور حليم صبرون أن يقهره.. ويذله.. قد استرد سلطانه بغتة، فقضى عليه وعلى أعوانه، وسلب منه أعز ما يملك.. زين .. ليطويها في ثناياه.. في أبديته .

همهم كامل، وقد شعر انقباضًا وتقلصًا في عضلات ظهره وساقيه، وهو يتخيل النهاية الأليمة التي تنتظر زين :

ـ لا.. محال أن يحدث هذا في وجودي.. إذا رغب الزمن في الانتقام فلينتقم مني أنا.. فليُنزل غضبه وسخطه على شخصي وحدي.. ولكنْ لن ينال زين بسوء.. لن ينالها بسوء .

وانتهى الحديث بين الصديقين فجأة دون أن يصل إلى غاية، وعاد رؤوف على مضض إلى المدينة القابعة في اتجاه الغرب، تاركًا كامل بمفرده هناك، ليستغرق بين آونة وأخرى في تدوين ما يعنُّ له من رؤى وخواطر وتصورات يغلب عليها الحنين، وتمتزج بها آلام اللوعة والفراق .

t.me/qurssan

حاشية

الآن وقد آذنت القصة ـ التي نقلتها أمينًا إليكم ـ بختام أحداثها، فإنني أجد لزامًا عليَّ أن أضيف بضعة سطور تالية في أعقاب ذلك الختام.. فقد تواترت أخبار الرجل، كامل أحمد بهنسي، يحملها جيل عن جيل، وهي تروي كيف أن الناس ـ مع مرور الشهور والأعوام ـ قد نسوا حادثة الانهيار الرهيبة على فيلَّا الجبل، وإن لم ينسَ أهالي مدينة حلوان بالذات الناسكَ غريب الأطوار الذي يعيش بين أطلال الفيلَّا .

وقد سموه «الحلواني» نسبة إلى مدينتهم التي آوته، وكانوا يودونه ويتبركون به ويمدونه بالطعام والزاد، ويستمعون في إشفاق كبير إلى قصته التي لم يكفَّ يومًا عن ترديدها في نفس الحرارة والصدق والإخلاص. وغالبًا ما كانوا يرون جسده اليابس يجوس بين التلال المحيطة بالفيلَّا، أو يرون ذلك الجسد يفترش أديم الجبل الأصم، وقد أراح خده بارز العظام، طويل اللحية، على حصاةٍ وهو يرهف أذنه لذروتها، يحاول سماع تردُّد أنفاس زين أو دقات قلبها، متناسيًا بالمرة أنها لا تتنفس وأن قلبها لا يدق، فهي ترقد في الأعماق مجمَّدة.. ساكنة.. أشبه بالجثمان المحنط .

وذات يوم، بعد أعوام عديدة من حادثة الانهيار، وكانت التلال المترامية ترتدي ثوب الربيع الباهي، ونسائم الصبح تحمل أنفاس الدفء خلال مسام الصخور، ونباتات الصبار المتناثرة قد فتحت زهراتها البيض، عثر بعض الصبية عليه، يستند إلى حجر أملس كبير وعيناه شاخصتان على الجبل.. وقد فاضت منه الروح .

أما الصندوق الحديدي الذي يضم أوراقه المهمة فلم يعثر عليه الصبية، ولا الرجال الذين أتوا في أعقابهم، فقد سبق وأخفاه «الحلواني» في مكان أمين بسفح الجبل .

*

كذلك فإنني أود أن ألفت نظر القارئ ـ حتى يتمكن من متابعة الموضوع لو شاء ـ إلى أننا قد تمكنَّا مؤخرًا من تحديد بقعة

t.me/qurssan

غامضة تقع على عمق حوالي 98 مترًا أسفل أحد التلال الواقعة إلى الشمال الشرقي من منطقة الحفائر بـ«المرصد المصري» سالفة الذكر، عن طريق جهاز الباحث الإشعاعي. وسوف تكشف أعمال التنقيب المستقبلية، عما إذا كانت هي بالفعل «قلعة النائمين» المقصودة بالقصة، أم مكانًا آخر يقرب منها .

مختارات الكرمة

1 - 1. مليم الأكبر . عادل كامل
2 - 2. دنقلا . إدريس علي
3 - 3. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس . أحمد حجي
4 - 4. الشبكة . شريف حتاتة
5 - 5. الناس في كفر عسكر : أولاد عوف . أحمد الشيخ
6 - 6. النزول إلى البحر . جميل عطية إبراهيم
7 - 7. ملك من شعاع . عادل كامل
8 - 8. إجازة تفرغ . بدر الديب
9 - 9. رابعة ثالث . علي الشوباشي
10 - 10. رباعية أيام الطفولة . إبراهيم عبد الحليم
11 - 11. الرحلة (الجزء الأول) . فكري الخولي
12 - 12. الرحلة (الجزءان الثاني والثالث) . فكري الخولي
13 - 13. حديث شخصي: أربع تنويعات . بدر الديب
14 - 14. الباب المفتوح . لطيفة الزيات
15 - 15. أوراق شخصية . لطيفة الزيات
16 - 16. الشمندورة . محمد خليل قاسم
17 - 17. بيت سري . عثمان صبري
18 - 18. هوامش الفتح العربي لمصر . سناء المصري
19 - 19. صدمة طائر غريب . كمال القلش
20 - 20. صاحب البيت . لطيفة الزيات
21 - 21. الوسية (ثلاثية «الوسية» 1) . خليل حسن خليل
22 - 22. الوارثون (ثلاثية «الوسية» 2) . خليل حسن خليل

t.me/qurssan